زكي مبارك

مدامع العشاق

الكتاب: مدامع العشاق

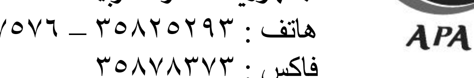
الكاتب: زكي مبارك

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية


هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

مبارك ، زكي

مدامع العشاق / زكي مبارك

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٦٥ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٤٢٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١١٢٢٩ / ٢٠١٧

مدامع العشاق



الإهداء

إلى تلك النفس التي لا يعنيها من أمري شئ ، والتي أخلفت ما أخلفت من الوعود ، ونسيت ما نسيت من العهود ، والتي شغلت بنعمة المال ، والجمال ، عما أقاسي من محنة وعذاب ، والتي ما احسبني أطمع في أن تسكن إلي ، أو تعطف علي ، إلى تلك النفس الظلوم: أهدي هذا السفر الحزين !

ولست آمل والحمد لله والحب ، أن تتوجه بالقبول ، فإن هذا أمل عزيز المنال ، وكل ما أصبو إليه: أن تنفحني من أجله بظلم جديد.

فبعض الظالمين وإن تناهى   شهي الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

مقدمة:

(١)

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟!

آية كريمة ، تذهب فيها النفس مذاهب شتى ، ولكني أريدها لمعنى خاص: هو الحكم على الأقوال والأفعال.

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول ، أو يعمل ، فنحكم عليه بالبر أو الفجور ، فتارة نخطئ ، وتارة نصيب. وأكثر ما نكون شططًا إذا حكمنا على القول ، أو الفعل ، من غير أن نحيط خبرًا بظروف القائل ، أو الفاعل. وهي وحدها محور الخير ، والشر ، والخطأ ، والصواب. فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة ، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها معاند جحود ، وليست القصائد الخمرية شهادة على قائلها بالاثم ولا قصائد التشبيب رميًا لصاحبها بالفسوق ، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير !

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال ، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة ، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره المجون.

وليس في ذلك خروج على أصول الدين ، فقد قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امريء ما نوى» ليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص بأعمال الخير ، لا الشر. فإنه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر ، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير ، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما لهم من الضر ، والنفع ، لتتماثل النيات والأعمال.

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله، من غير أن تلم إلمامة بالأسباب القريبة والبعيدة ، لما يعمل وما يقول وقد

تكون نيته سيئة فيحبط عمله ، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله ، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب.

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه ، والبيئة التي احدفت به ، فنال منها ونالت منه ، لاحتمال أن تسود كتاباته فكرة كانت في عصره حسنة ، وهي عصرنا سيئة ، فنحكم عليه بما هو منه براء.

(٢)

ولنرجع إلى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإني لا أكتم القراء أني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه. مع إني أعرف أني كتبتها من قبل ، وأنا نقي القلب ، خالص الضمير. ولقد تبدو تلك الكلمة ، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال ، وهي سذاجة طريفة ، تمثل عهدًا من عهود الصبا ، خيل إليّ فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكًا لجميع العيون ، تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور ، ولا يحجبها عنه ضنين. وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة ، لأني حرمت من تلك السذاجة ، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر ، يلؤم من بعدها الكريم ، وحاشاي ! وسأفرض الآن أني في العهد الأول من عهود الشباب ، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين أطهارًا بررة ، لا يحرفون الكلم عن مواضعه ، ولا يتقولون الأقاويل ، ولأذكر طرفًا من ذلك الخطاب:

«يا أرباب الجمال !

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما ، ويأكله التراب أكلاً لما ؟

كم صائن عن قبلة خده ... سلطت الأرض على خدّه

وحامل ثقل الثري جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود ، والمراود من الجفون ، والمساويك من الثغور ، والأمشاط من الشعور ، والغلائل من الأعطاف ، والزينة من الأطراف.. فلم تحرموننا في حبنا لكم ، وإشفاقًا عليكم مما تكرمون به

الجمال ليلاً ونهارًا ، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن ، وأحدق به من جمال ؟!

يا أهل الملاحة !

إن الله ما خلقكم كالأزهار ، في القفار ، تزهر ، ثم تذبل ، ولا يتمتع أحد بشمها ، ولثمها ، وإنما خلقكم روحًا لكل حي ، ونعيمًا لكل موجود ، فاجعلوا لنا منكم حظًا ، ولا أقل من النظر ، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم ، وتموت بصدكم ، وما الله بغافل عما تعملون !!

يا أعلام الحسن !

إن كنتم فطرتم على العزة ، وجبلتم على النخوة ، فهبونا بعض القرب منكم ، والأنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية ، وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا ، فكفى بالحب جمالاً وبالعشق زينة ، وإن الحب المملول ، لخير من الحبيب الملول ، فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والاعراض ، فإنا نبشركم بأن الحسن حال تحول ، ودلوة تدول ، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين !

أوردية الخدين من ترف الصبا ... ويا ابنة ذي الأقدام بالفرس الورد
صلي واغنمي شكرًا فما وردة الربى ... تدوم على حال ولا وردة الخد

(٣)

ولقد يعجب قارىء هذا الخطاب حين يرى كاتبًا يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر ، وأن البخل به إثم وعقوق ، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط ، وأن صاحبها لا يسلم من الإسراف ، ورحم الله ذلك العهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود !!

ليالي لا تنجو بنبلي خريدة ... وإن عز حاميها وجم عديدها
إذا ما رمتني ذات دل رميتها ... بعين لها منها مقيد يقيدها

(٤)

على أنني لا أمنع أحدًا من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين ، فإن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية ، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة ، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل ، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه ، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس ، فهل يعقل هؤلاء الذين يطيعون أهواءهم ، وشهواتهم ، فينسون أنفسهم ، ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد ؟

إن قليلاً من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار ، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع العشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة ، موجهة إلى إحدى العذارى.

«قضي الأمر ، وأصبحت حيًا كميت ، وموجودًا كمعدوم ! فما ضرني لو أذعت هذا الحب ، وما أبقى هواك مني ما أسمع به ملامًا أو أرى وجه عذول ؟

على أن قلبي يحدثني بأن الاشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين ، وما إلى ردعهم سبيل ! أو أنت المعنية بهذا الاشفاق ، أما أنا فما كنت لأرهب قومًا لا سلاح لهم غير القيل والقال.

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لقوني

إذا ما رأوني طالعًا من ثنية يقولون: من هذا ! وقد عرفوني

وبعد فإنه لم يبق ما أسكن إليه في هذا الوجود غير حديث الحب ، وبلايا المحبين ، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم: وهو النسيب ، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا إليه ، وهو الحديث عن الدموع ، وما لها من سبب قريب أو بعيد، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المفسوح ، عدت فصاحبت

الشعراء ، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى ، وبينت مهوى عيونهم ، ومصرع قلوبهم ، بين الخدود الفواتن ، والعيون الفواتك ، ولن أتحرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل ، والردف الثقيل ، وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب والكهول ، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث.

نصحتك علمًا بالهوى، والذي أرى مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

(٥)

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة ، فضلاً عما فيه من المجازفة ، في حمل إثم الآثمين ، وفتك الفاتكين ، ولقد آذتني آثامي ، فكيف أحمل آصار الناس !

ولم يمر ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الاسبوعية ، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد ، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية:

« في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط ، الذي يخيل إليه كما كتب: أنه قسيس في كنيسة حافلة ، أو خطيب في مسجد جامع ، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعند المنكرات !؟ فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن ، وبدائع الجمال ، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع !!

ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة ، التي طارت بألباب الشعراء ؟ وصيرتهم في كل واد يهيمون ؟ أتراهم يقولون أنها من خلق الله ، أم من خلق الشيطان ؟ فإذا كانت من خلق الله ، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع ؟ وإن كانت من خلق الشيطان ، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان ، لأنه من عمل الشيطان الرجيم ؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب !

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم ، وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شئ، ماذا يريدون ؟ إنهم يريدون أن أجاريهم في عمايتهم ، وأن أسايرهم في جهالتهم ، فلا أكتب في غير ما يروقهم من ذم الدنيا ، التبرم بالوجود !! ولكنني عرفت ما لم يعرفوا من «أفنان الجمال» في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على أن يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان ، فعدت خليقًا بحمد الحسن ، والتقديس له ، كلما أمنعوا هم في الجحود !

يقولون أن مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب ، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال ، وماله من الأثر في تهذيب النفوس ، وتثقيف العقول ويهددون ويعدون بالويل والثبور ، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف !

فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حق أنزل عند رأيهم السخيف المأفون !

أبينا أن نطيعكم أبينا ... فلا تلقوا نصيحتكم إلينا

ركبنا في الهوى خطرًا فإما ... لنا ما قد كسبنا أو علينا

ولو لم يرض ربك ما أردنا ... لما أعطى لنا أذنًا وعينا

فما تسآلكم عن كل صب ... كأن لكم على العشاق دينا

(٦)

إلى هنا وقف القاريء على ألوان من الخواطر ، مرت بخاطر شاب يهم بالتمرد على ما أِلف الناس ، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي الرياء ، فأنا بصريح القول: موكل بالحسن أتبعه ، ومغرب بالتغريد على أفنان الجمال. وإني لأقول:

أشجاك ما خلف الستار وإنما ... خلف الستائر لؤلؤ مكنون

والناس في غفلاتهم لم يعلموا ... أني بكل حسانهم مفتون

وأقول:

فيا رب إما رمت لي الخير منعما ... ففي قرب من أهوى وبعد أخي اللوم

وإن كان لي فيما قضيت مساءة ... فحزن على النائين جيرتي القدم

وإن شئت لي يومًا جوارك فلأكن شـهيد الجـوى لا نضـوهم ولا سـقم
وطـول حسـابي فـي المعـاد علـى الهـــــــــــــــوى فطـول أحاديـث الصـبابة مـن همـي

وما كان اغناني عن الفزع إلى حكم الاخلاق ، لا رجع الخير والشر إلى النيات ، لا إلى الأعمال ، فقد آن لنا أن نعرف أن من الحق ، بل من الواجب ، أن ندرس الجمال، وأن نتغنى به ، وأن نصفه بالنثر البليغ ، والشعر الجميل ، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن: من العشاق ، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال: (إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له) وأنا لا أريد أن يعجب الله مني ! وسينكر المتعنتون هذا الحديث ، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته، ولكني أثق بأنه يقرر حقيقة واقعة ، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمي عنه ، أو لنرمي عشاقه بالاثم والفجور ، وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة ، لهم الويل ! وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة ، وسرها المكنون ؟ !

وماذا اصنع بالأشجار ، والأزهار ، والثمار ، والأنهار ، والكواكب ، والنجوم ، والسهول ، والحزون ، والجبال ، والوديان ، والطيور الصوادح ، والظباء السوانح؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك ، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول ، وأساجله الحديث ، وأساقيه صهباء هذ الوجود ؟!

وهذا الإنسان ؟ أليس لي الحق في اختياره ، قبل اصطفائه ، وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق ، في تمييز جسمه وروحه ، وعقله وشعوره ، وحسه ووجدانه ؟

وما قيمة الليل أن لم تظلني في الحب ظلماؤه ؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود ، وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود ؟ وكيف أميل إلى الظباء ، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها ، ما للحسان من أعناق وعيون ؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال ، لولا ذكري تلك النبرات العذاب ، التي يسمونها السحر الحلال ؟

وإنك لتعلم أيها القمر ، كيف كنت أصدف عنك ، وأنا طالع ذلك الوجه ، الذي نعمت معي بثغره المفلج ، وأنفه الأقنى ، وطرفه الأحور ، وجبينه الوضاح ، وأنك لتعلم أيها القمر ، كيف هجرتك حين غاب ، وتعلم أني لا انظر إليك إلا حين السرار ، لأرى كيف يفعل الشحوب بك ، وكيف تنال منك الليالي ! وأنها لشماتة طفيفة ، أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك ، في حين أودع كل يوم جزءًا من شبابي ، وواحسرتاه على ما أودع من أجزاء الشباب!!

لأصبحت نهب الأسى والحزن	لجسم أقام وقلب ظعن
فيا ويحهم يزمعون الرحيل	وما زودوني غير الشجن
دموع تحدر فوق الخدود	كصوب الغمام إذا ما هتن
وقلب يقلب بين الضلوع	بعيد القرار فقيد السكن
وأصبحت والرأس مرعى المشيب	قليل السرور كثير الحزن
لعمري لئن شبت قبل الأوان	لقد شاب حظي وشاب الزمن
كأن الشعور عراها البياض	سهام الردي أو خيوط الكفن
وإن الشباب إذا ما انقضى	لكالحلم اقلع عنه الوسن

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب «الأخلاق عند الغزالي» ، فرمونا من أجله بالكفر ، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق ؟ وسيرموننا من أجله بالفجور ، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب «آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية» وكتاب «أفنان الجمال» ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب !

وقد زعمت ليلى بأني فاجر لنفسي تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكي مبارك

سنتريس في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب ، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في صف ما يشقى به الحب ، وما ينعم به الحبيب !

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى اصلين اثنين:

الأول – وصف ما يلاقي المحبوب من عنت الحب . ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد ، ويثر الدمع ، كحديث الفراق ، والعتاب ، والذكرى ، والحنين.

الثاني – وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس ؛ والعين ، من جمال الأبدان والأرواح ، كوصف العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والصدور ، وكالحديث عن العطف ، والرفق والوفاء والعفات.

وقد رأيت أن أفضل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى به المحبون في كتاب اسميه «مدامع الجمال».

وكان الواجب أن نبدأ بطبع «أفنان الجمال» لأنه أوفى وأمتع ، ولأن أفنان الجمال ، وجدت قبل مدامع العشاق.

ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة ، فلنتابعها في الظلم ، ولنقدم الفروع على الأصول !!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء ، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء ، وابيضاضها بعد أن كانت حمراء !!

وللدموع أسباب عامة ، وأسباب خاصة. فأما الأسباب العامة فهي الحرق الدخيلة ، والجوى الدفين ، وما إلى ذلك من البث والحزن ، واللوعة والحسرة ، فمن هذا قول العباس بن الأحنف:

ظلمـــت عينـــاك عينـــي انهـــا بادلتهـــــا بالرقـــــاد الارقـــــا
ســلط الشــوق علــى الــدمع فمــا هـــب داعـــي الشـــوق إلا انـــدفقا

وما كان له أن ينسب إلى عينيها الظلم ، لابتلائه بالسهاد. وخير منه قول صريع الغواني:

أســـهرتموني أنـــام الله أعيـــنكم لســنا نبــالي إذا مــا نمــت مــن ســهرا

ولو قال:

رحمـــت عينـــاك عينـــي أنهـــا بادلتهـــــا بالرقـــــاد الأرقـــــا

لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل ، فحسب المحب ما أهدته عينا حبيبه من ضني الجسم ، وسهد الجفون. وقال البحتري:

قــد أرتــك الــدموع يــوم تولــت ظُعُـــن الحـــي مـــا وراء الـــدموع[1]
عبـــرات مـــلء الجفـــون مرتهـــا حـــرق للفـــؤاد مـــلء الضـــلوع[2]

---

[1] الظعن والظعائن: جمع ظعينة ، وهي المرأة في الهودج.

[2] يقال مرى الراعي الناقة: إذا مسح ضرعها لتدر اللبن. ويريد الشاعر أن يقول أن اللوعة مرت الدمع ، أي حملته على أن يفيض.

فرقــة لــم تــدع لعينــي محــب   منظـــرًا بـــالعقيق غيـــر الربـــوع

ولا أدري ما الذي أراده البحتري بما وراء الدموع ! أهو الدم الأحمر الذي تجود به الشئون عندما تفيض المدامع ، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبيء عنها الدمع ، ويفصح عن مكنونها البكاء ! وقال الشريف الرضي:

يقولــون مــا أبقيــت للعــين عبــرة   فقلــت جــوى لــو تعلمــون ألــيم

أيســمع جفنــي بالــدموع وأغتــدي   ضـــنينًا بهـــا ؟ أنـــي إذن للئـــيم

ولــو بخلــت عينــي إذن لعتبتهــا   فكيـــف ودمـــع النـــاظرين كـــريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء ، بذكر موجبه ، والداعي إليه ، وأنه لشعر بديع. أما الأسباب الخاصة فهي كثيرة. فمن العشاق من يبكي لتلمس الأخبار، كما قال ابن هرم.

واستخبر الأخبار من نحو أرضها   وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي

فإن ذكرت فاضت من العين عبرة   على لحيتي نثر الجمان من العقد

وإني ليروقني قوله (وأسأل عنها الركب عهده عهدي) فإنه يدل على حيرة ووله ، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئًا ، استرواحًا بالسؤال عنها ، وكذلك يفعل المشوق ! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية في هذا الشعر ، لأن الأمر كما قال أبو تمام:

أجلى الرجال من النساء مواقعًا   مـــن كـــان أشـــبههم بهـــن خـــدودًا

وقاتل الله الشيب ، ولا عفا عن جنايته على الشباب !

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم ، أو مطالعة الرسوم. كما قال ابن الدمينة:

هــل الحــب إلا زفــرة بعــد زفــرة   وحــر علــى الأحشــاء لــيس لــه بــرد

وفـيض دمـوع العين يـا مـي كلمـا   بـدا علـم مـن أرضـكم لـم يكـن يبـدو

وما كان الحب زفزة ولا عبرة ، كما قال ابن الدمينة – ولكنه شئ به الروح تكلف – وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني:

قـــال الخلـــي الهـــوى محـــال فقلـــت لـــو ذقتـــه عرفتـــه
فقـــال هـــل غيـــر شـــغل قلـــب إن أنـــت لـــم ترضـــه صـــرفته
وهلـــى ســـوى زفـــرة ودمـــع إن لـــم تـــرك جريـــه كففتـــه
فقلـــت مـــن بعـــد كـــل وصـــف لـــم تعـــرف الحـــب إذ وصـــفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض ، إذ تذكره رشاقة أغصانها ، وحمرة أزهارها ، بالقدود الرشيقة ، والخدود الوردية ، كما قال ابن المعتز:

وقفت بـالروض أبكـي فقـد مشـبهه وقـد بكـت بـدموعي أعـين الزهـر
لو لـم تعرهـا الجفـون الـدمع تسفحه لرحمتـــي لاســـتعارته مـــن المطـــر

وهذا نوع من الاسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتز فيما أعلم ! وإنما كانت تسعد الحمائم ويبكي الرفيق[1].

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم. كما قال بعض الأعراب:

لعمـرك مـا ميعـاد عينيـك والبكـا وقـد بـدراء إلا أن تهـب جنـوب
أعاشـر فـي (داراء) مـن لا أحبـه وبالرمـل مهجـور إلـي حبيـب[2]
إذا هـب علـوي الريـاح وجـدتني كـأني لعلـوي الريـاح نسـيب[3]

ومنهم من يبكي لبكاء الحمائم ، وهو كثير في كلامهم. ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه:

رب ورقـاء هتـوف فـي الضـحى ذات شـجو صـدحت فـي فـنن[4]
ذكـرت إلفًـا وعيشًـا سـالفًا فبكـت حزنًـا فهاجـت حزنـي
فبكـائي ربمـا أرقهـا وبكاهـا ربمـا أرقنـي

---

[1] الاسعاد هو المشاركة في البكاء.
[2] داراء اسم موضع ، وكذلك الرمل.
[3] علوي نسبة شاذة إلى عالية نجد.
[4] الورقاء هي الحمامة ، والشجو الحزن ، والفنن الغصن ويجمع على أفنان.

ولقـــد تشـــكو فمـــا أفهمهـــا ولقـــد أشـــكو فمـــا تفهمنـــي

غيـــر أنـــي بـــالجوى أعرفهـــا وهـــي أيضًـــا البـــين مـــا جرعنـــي

أتراهـــــا بالبكـــــا مولعـــــة أم ســـــقاها البـــــين مـــا جرعنـــي

وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيمًا ، وأبرعه تصويرًا ، ولقد افتتح بها الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء ، ظنًا منهم أنها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات ، من حيث لا يشعر الناس !!

ومما ابتدعته المتأخرون في موجب البكاء ، ما جعله بعضهم عقابًا للعين ، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شجى ، وللجسم من نحول ، فقال:

لأعـــذبن العـــين غيـــر مفكـــر فيمـا جـرت بالـدمع أو سـالت دمـا

ولأهجـــرن مـــن الرقـــاد لذيـــذه حـق يعـود علـى الجفـون محرمًـا

هـي أوقعتنـي فـي حبائـل فتنـة لـو لـم تكـن نظـرت لكنـت مسـلما

سـفكت دمـي لأسـفحن دموعهـا وهـي التـي بـدأت فكانـت اظلمـا

وهو مذهب غريب ، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن ، وفهم الجمال ! وإلا فأي عاشق يذكر جناية النظر عليه ، ولا يدعو لعينيه بطول البقاء. ولله در القائل:

قالـت أترقـد إذ غبنـا ؟ فقلـت لهـا نعـم، وأشـفق مـن دمعـي علـى بصـري

ما حق طرف هداني نحو حسنكم أنـــي أعذبـــه بـــالنوح والســـهر

ومنهم من جعل الدمع غسلاً للعين مما زنت بالنظر ، فقال:

وقائلـة مـا بـال عينـك مـذ رآت محاسـن هـذا الظبـي ادمعهـا هطـل

فقلـت زنـت عينـي بطلعـة وجهـه فحـق لهـا مـن فـيض مـدمعها غسـل

وقال الآخر:

إنســـــــــانة فتانـــــــــة بـــــدر الـــــدجى منهـــا خجـــل

إذا زنـــت عينـــي بهـــا   فبالـــــدموع تغتســـــل

وهو خيال فقهاء ، لا خيال شعراء !!

وقد نظر الارجاني إلى قول أبي تمام:

بسـطت إليـك بنانـه أسـروعا   تصـف الفـراق ومقلـة ينبوعـا[1]

كـادت لعرفـان النـوى ألفاظهـا   مـن رقـة الشـكوى تكـون دموعًـا

فولد منه معنى لطيفًا ، إذ جعل دموعه عند الفراق ، وقد تحدرت كالآلئ بقية ما نفثه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس. وذلك قوله:

لـم يبكنـي إلا حـديث فـراقهم   لمـا اسـر بـه إلـى دمـوعي

هـو ذلـك الـدر الـذي اودعتـه   فـي مسـمعي ألقيتـه مـن مـدمعي

❋

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صرَّدُرّ:

حتـام أرعـى وردة لا نجتنـي   فـي الخـد أو تفاحـة لا تلـثم

أيـذاد عـن تلـك المحاسـن نـاظري   ويريـد منـي أن يسـوغها الفـم

فـي كـل يـوم للعيـون وقـائع   إنسـانها الطمـاح فيهـا يكلـم

لـو لـم تكـن جرحـى غـداة لقـائهم   مـا كـان يجـري مآقيهـا الـدم

لـم أدر أن الحـب حومـة مـأزق   تصـلى ولا أن اللـواحظ اسـلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد:

يـا واشـيًا حسـنت فينـا إسـاءته   نحـن حـذارك إنسـاني مـن الغـرق

إنـي أسـد دموعًـا لـج سـائقها   مطروفـة العين بالمرضـى مـن الحـدق

ويرى القاريء أن أصحاب هذه الأخيلة الشعرية ، يرون أن احمرار الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق. فيما لها من حرب ضروس تطأ فيها اقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشيط. وإنا بهذه الهزيمة لفرحون !!

---

[1] الاتسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الأنامل الرقيقة.

وكان عجيبًا أن تبيض الدموع بعد احمرارها !! وقد رأينا كيف أولوا احمرار الدموع. ولنذكر أن أصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول:

أتبعـــتم يـــوم أســـتقل فـــريقهم ... نظـــر المشـــوق وأنـــة المفجـــوع

لـم تبـك يـوم فـراقهم عينـي دمًـا ... إلا وقـــد نـــزف البكـــاء دمـــوعي

والآن نريد أن نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد أن صيرها الحزن حمراء. فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الخدود التي قطفها بعينيه عند الرحيل ، كما قال بعض الظرفاء:

كانـت دمـوعي حمـرًا يـوم بيـنهم ... فمـذ نـأوا قصـرتها بعـدهم حرقـي

قطفت باللحظ وردًا من خدودهم ... فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

ومنهم من جعله شيبًا للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله:

قالـــت عهـــدتك تبكـــي ... دمًـــا لطـــول التنـــائي

فلِـــم تعوضـــت عنـــا ... بعـــد الـــدماء بمـــاء

فقلـــت مـــا ذاك منـــي ... لســـــلوة عـــــزاء

لكـــن دمـــوعي شـــابت ... لطـــول عمـــر بكـــائي

وأشجى منه قول الآخر:

وقائلـة مـا بـال دمعـك أبيضًـا ... فقلـت لهـا يـا عـز هـذا الـذي بقـي

ألـم تعلمـي أن البكـا طـال عمـره ... فشـابت دمـوعي مثل مـا شـاب مفرقي

وعمـا قليـل لا دمـوعي ولا دمـي ... تـــرين ولكـــن لـــوعتي وتحرقـــي

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزنًا ، وأغزره دمعًا ، وهل تجد أدعى للشجو والبث من قوله:

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي !!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون ، والغليل على الضلوع:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها وغال بكم تلك الأضالع غولها
فمن ناظر لم يبق إلى دموعه ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلبًا بالغرام أذيبه عليكم وعينًا في الطلول اجيلها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء. ولهم في ذلك فنون من اقول ، وشجون من الحديث ، وأجمل ما رأيت في ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذاله به ، وإسعادهم له:

بكى عاذلي من رحمة فرحمته وكم مسعد لي في الهوى ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر أرباب الدموع

لا تعـذل المشـتاق فـي أشـواقه حتـى يكـون حشـاك فـي أحشـائه
إن القتيـــل مـــبللاً بدموعـــه مثـــل القتيـــل مضـــرجًا بدمائـــه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم ، وما يحتجون به لدى عذالهم. وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع ، وداعي البكاء. والشعراء فيه رجلان رجل غلبه الحب ، وقهرته الصبابة: فباح بمكنون سره ، ومكتوم حبه ، ورجل تخوف الرقباء ، وتهيب العذال ، فأخذ يختلق العلل ، وينتحل الأسباب ، دفعًا لكيد الواشين ، ودرءًا لعذل اللائمين... فمن الأول قول البحتري:

سـارت مقدمـة الـدموع وخلفـت حرقًـا توقـع فـي الحشـا مـا ترحـل
إن الفـراق كمـا علمـت فخلنـي ومـــدامعًا تســـع الفـــراق وتفضـــل
إلا يكــن صــبر جميــل فــالهوى نشـوان يجمـل فيـه مـا لا يجمـل

وحسن البيت الأول في خلود اللوعة ، وبقاء الغليل ! وهو خير من قول ذي الرمة:

لعـل انحـدار الـدمع يعقـب راحـة مـن الوجـد أن يشـفي شـجي البلابـل

والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى:

والصـبر أجمـل غيـر أن تلـددًا فـي الحـب أحـرى أن يكـون جمـيلاً

وقال البحتري في الاعتذار عن البكاء:

لا تلمنــي علــى البكــاء فــإني نضـو شـجو مـا لمـت فيـه البكـاء
عـــذلاً يتـــرك الحنـــين أنينًـــا فــي هــوى يتــرك الــدموع دمــاء
كيـف أغـدر مـن الصـبابة خلـوًا بعــد مــا راحــت الــديار خــلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب:

عــش فحبيــك ســريعًا قــاتلي   والضــني إن لــم تصــلني واصــلي
ظفــر الحــب بقلــب دنــف   فيــك والســقم يجســم ناحــل
فهمــا بــين اكتبئــاب وضــنى   صــيراني كالقضــيب الــذابل
وبكــى العــاذل لــي مــن رحمــة   فبكــائي لبكــاء العــاذل

وهذا معنى جميل ، لا ينقص غير القرب من الحقيقة: فقد يندر أن يبكي اللائمون رفقًا بالحب الحزين !

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسبابًا غير اسبابه قول كثير:

إذا زرفــت عينــاي أعتــل بالقــذى   وعــزة لــو يــدري الطبيــب قــذاهما

وهو نوع من الكتمان يفزع إليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم:

يــأس يحســن لــي التســتر فــاعلمي   لــو كنــت أطمــع فيــك لــم أتســتر

ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه ، وقد استحيا من صديقه:

كــم مــن صــديق لــي أسـا   رقــة البكــاءَ مــن الحيــاءِ
فــإذا تأمــل لامنــي   فــأقول مــا بــي مــن بكــاءِ
لكــن ذهبــت لأرتــدي   فطرفــت عينــي بــالرداءِ



الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط. ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب:

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها فلن تمنعوا مني البكاء والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها خيالاً يوافيني على النأي هاديا

وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن:

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تداني
نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علاني

وما الذي يضير أعاء الحب من أن يرى القمر كما تراه ، ويعلوها النهار كما علاه ، ما داموا قد أبعدوه عنها ، وحرموه منها. وقد تنبه بعض الأعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال:

بربك هل ضممت إليك ليلى قبيل الصبح او قبلت فاها
وهل رفت عليك فروع ليلى رفيف الأقحوانه في شذاها

على أنه لا ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وأمثاله من روعة الصدق ، وجلال الوفاء. وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول ، حين يغدو الحب ولا أمل له في غير الوجد المشبوب ، والدمع المسكوب ، والصبر المغلوب !

من أجل هذا نخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه أن يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم ، وحزنه المقيم:

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها مقالة واشٍ أو وعيد أسير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ولن يذهبوا ما قد أجن ضميري

إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ومـــن كــــرب تعتـــادني وزفيـــــر

ومن حرق للحب في باطن الحشا وليـــل طويـــل الحـــزن غيـــر قصـــير

سـأبكي علـى نفسـي بعـين قريحـة بكـــاءَ حـــزين فـــي الوثـــاق أســـير

وكنـا جميعًا قبـل أن تظهـري النـوى بـــأنعم حـــالي غبطـــة وســـرور

فمـا بـرح الواشـون حتـى بـدت لنـا بطـــون الهـــوى مقلوبـــة لظهـــور

لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ولكنمـــا الـــدنيا متـــاع غـــرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الإنسانية أجمل تصوير ، وتثيلها أدق تمثيل. ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء ، ثم انطلق يشكو إلى الله لوعته ، وحرقته ، ولياليه الطوال !! ألم تر إليه وقد كان يحسب الدمع نعمة سابغة يكبت بخلودها الأعـداء ، فعـاد يـرى الـدمع آيـة الـذل والمسـكنة ، وآخـر مـا يفـزع إليـه الاذلاء المساكين!!

الفزع إلى الدموع

قال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة ... من الوجد أو يشفي شجي البلابل

فخلوت فبكيت فسلوت !! ولست أدري كيف تذهب بالوجد زفرة ، أو تودي به عبرة ، وهو كما قيل:

ظن الهوى لبسة تبلي فيخلعها ... فكان في الروح مثل الروح في البدن

وكنت أسمي هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع ، وفقًا لما يجنح إليه الشعراء ، ولكني رأيت أن اسميه «فزعًا إلى الدموع» حين تبينت أن الدمع لا يطفئ اللوعة ، وأنه نار حامية ، لا برد وسلام !!

وهل تجد ادعى للبث ، واجلب للحزن ، من قول كثير ، وقد ترحلت حبيبته:

كفى حزنًا للعين إن رد طرفها ... لعزة عير آذنت برحيل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا ... فقلت البكا أشفى إذن لغليلي

توليت محزونًا وقلت لصاحبي ... اقاتلتي ليلى بغير قتيل

وما اختار البكاء لأنه أشفى للغليل كما قال. ولكنه اختاره ليفر من الصبر الذي رآه مر المذاق !! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال ، وفي ذلك قول:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا ... أجاب البكا طوعًا ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين: فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون ، ولكنه ينقض عليه انقضاض الصاعقة ، فإذا هو صريع ! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم. ولكنهم يمنون على أحبابهم بهذا الدمع المجلوب.

ومن الشعراء من تنبه إلى أن السلامة من الجوى أمض من الجوى ، وهؤلاءِ يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم «ومن أسماءِ الحب الضلال» ومن مختار الشعر في هذا البكاءِ قول المتنبي:

يـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم   وتـــأبى الطبـــاع علـــى الناقـــل
ولـــو زلـــتم ثـــم لـــم أبككـــم   بكيـــت علـــى حبـــي الزائـــل

وأوجع منه قول البحتري:

وأود أنـــي مـــا قضـــيت لبـــانتي   مـــنكم ولا أنـــي شـــفيت غليلـــي
وأعـــد برئـــي مـــن هـــواك جنايـــة   والبـــرء أعظـــم نمايـــة المخبـــول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه في السلوة ، ولا في البكاء.. وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر ، ويقصف العمر ؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة ؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع ، هي سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سببًا قريبًا ؟ وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الاكباد ، ويرق له قساة القلوب ؟

تلك حسرة البحتري أفسح عنها بقوله:

وأود مــ انــي   ـا قضـيت لبـانتي   مـــنكم ولا انـــي شـــفيت غليلـــي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول:

قـف مشـوقًا أو مسـعدًا أو حزينًـا   أو معينًـــا أو عـــاذرًا أو عـــذولا
وخـلاف الجميـل قولـك للـذاكر   عهـــد الأحبـــاب صـــبرًا جمـــيلاً
علـى مـاء الـدموع يخمـد نـارًا   مـن جـوى الحـب أو يبـل غلـيلا
وبكـاء الـديار ممـا يـرد الشـوق   ذكـــرًا والحـــب نضـــوًا ضـــئيلا
لـم يكـن يومنـا طـويلاً بنعمـان   ولكـــن كـــان البكـــاء طـــويلا

إن فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية: فهي ليست موحدة المشاعر والميول. ولو جاز أن نجد نفسًا خالدة الألم لفقد شقيقتها في عالم النفوس ، لجاز أيضًا أن تكون في لوعتها الخالدة ذات تصاريف في الشكوى والأنين ! وليس طلب السلوة إلا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيم العاني: ومن الذي يحرم على شقي أن يلتمس إلى السعادة السبيل ؟ ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفرًا بنعمة الحب التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء ؟! وقد يحسن أن ننشد القارئ قول البحتري نفسه:

قد كان مني الوجد غب تذكر إن كان منك الصد غب تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامد ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

ألا تراه جعل الوجد أثرًا للتذكر الذي حسب البكاء يفضي إليه فيريحه من الشوق في قوله:

وبكاءُ الديار مما يرد الشوق «ذكرا» والحب نضوًا ضئيلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة ، ويجعله داءً تارة أخرى ! ولسنا نتخذ من ذلك دليلاً يرضاه المنطق عن خلود الصبابة ، والعالم كله لن يرزق الخلود ، ولكنا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيم المحزون ، فما يدري أيشفيه الدمع ، أم يزيد لوعته اضطرامًا..

على أنه لا عيب على الشاعر في أن «تتناقض» خواطره ، لأن الشعر كالمرآة والنفس دنيا ثانية ، تتراءى صورها المختلفة ؛ في لوحة الشعر الجميل.



الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق. فمن ذلك قول ابن الرومي:

لـو كنـت يـوم الفـراق حاضـرنا　　وهـن يطفـين غلـة الوجـد

لـم تـر إلا دمـوع باكيـة　　تقطـر مـن مقلـة علـى خـد

كـأن تلـك الـدموع قطـر نـدى　　يقطـر مـن نـرجس علـى ورد

وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه: وهو قول أبي نواس في جنان:

يـا قمـرًا أبصـرت فـي مـأتم　　ينـدب شـجوًا بـين أتـراب

يبكـي فيـذري الـدر مـن نـرجس　　ويلطـم الـورد بعنـاب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال ، ونراها أخيلة عادية ليس لها جمال خاص ، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخدها الأسيل !! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله:

تلاقينـا لقـاء لافتـراق　　كلانـا منـه ذو قلـب مـروع

فمـا افتـرت شـفاه عـن ثغـور　　بـل افتـرت جفـون عـن دمـوع

ومما جمع بين براعة التصوير ، ومتانة التعبير ، قول المتنبي:

لمـا تقطعـت الحمـول تقطعـت　　نفسـي أسـى وكـأنهن طلـوح

وجـلا الـوداع مـن الحبيـب محاسنًا　　حسـن العـزاء وقـد جلـبن قبـيح

فيـه مسـلمة ، وطـرف شـاخص　　وحشًـا يـذوب ومـدمع مسـفوح

يجـد الحمـام ولـو كوجـدي لانبـرى　　شـجر الاراك مـع الحمـام ينـوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات:

دعوني فلي أن زمت العيس وقفة　　أعلـم فيهـا الصـخر كيـف يلـين

وخلـوا دمـوعي أو يقـال نعـم بكـى　　وزفـرة صـدري أو يقـال حـزين

فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى لمـا خلقـت لـي أضـلع وجفـون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر:

إذا لـم أفـز مـنكم بوعـد فنظـرة إلـيكم فمـا نفعـي بسـمعي ونـاظري

وقال السري الرفاء في ذكر مظاهر الوداع: من اللوعة ، والحنين ، وتخديد الخد بالدمع ، مع ذهاب العزاء:

وقفتنـا النـوى علـى الكـره منـا موقفًـا ضـم شـائقًا ومشـوقا

حـال ورد الخـدود فأضـحى النـ ـرجس الغـض بالـدموع غريقًـا

لوعـة أفرطـت فعـادت حريقـا وحنـين أربـى فعـاد شـهيقًا

وخليـق بلوعـة الحـب صـب لـم كـيكن بـالعزاءِ فيـه خليقـا

ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي:

ولمـا تواقفنـا ذهلـت ولـم يحـن لطيـر قلـوب العاشـقين وقـوع

عشـية لـي مـن رقبـة الحـي زاجـر عـن الـدمع إلا أن تشـذ دمـوع

وقـد أمـرت عينـاك عينـي بالبكـا فقـل لـي أي الآمـرين أطيـع

ولهذا الشعر مزية خاصة: وهي ترتيب المعاني ترتيبًا لولا حيرة المودع لكان غاية في الوضوح. ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول ابن زريتي:

ودعتـه وبـودي لـو يـودعني صـفو الحيـاة وإنـي لا أودعـه

وكـم تشـفع بـي أن لا أفارقـه وللضـرورات حـال لا تشـفعه

وكم تشبت بي يوم الرحيل ضحى وادمعـي مسـتهلات وادمعـه

ومن الشعراءِ من يفرح بالوداع ، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا عند الرحيل. فمن ذلك قول البحتري:

إن للبـين نعمـة لا تـؤدي ويـدًا فـي تماضـر بيضـاءَ

حجبوهـا حتـى بـدت لفـراق كـان داءً لعاشـق ودواءَ

أضـحك البـين يـوم ذاك وأبكـى كـل ذي صـبوة وسـر وسـاءَ

فجلعنــا الــوداع فيــه ســلامًا وجعلنـــا الفــراق فيـــه لقـــاءَ

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء:

لــم أنــس إذ ودعتــه والتقــى ذا البـــدن النـــاعم والناحـــل
كأنمــا جســمي علــى جســمه غصـــنان ذا غـــض وذا ذابـــل
يــا رب مــا أطيــب ضــمي لــه إلـــي لـــولا أنـــه راحـــل !

وقد الم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات:

افــي كــل يــوم لفتــة ثــم عبــرة علــى رســم دار أو مطــي موقــف
وركـب علـى الاكـوار يثني رقـابهم لــداعي الصــبا عهــد قــديم ومــألف
فمـن واجـد قـد الـزم القلـب كفـه ومــن طــرب يعلــو اليفــاع ويشــوف
ومســتعبر قــد اتبــع الــدمع زفــرة تكــاد لهــا عــوج الضــلوع تثقــف
قضى ما قضى من أنه الشوق وأنثنى بـدار الجـوى والقلـب يهفـو ويرجـف
ولـم نغـن حتـى زايـل البعـد بيننـا وحتــى رمانــا الأزلــم المتغطــرف[١]
كــأن الليــالي كــن ألــين حلفــة بــأن لا يــرى فهــن شــمل مؤلــف
أيـا وقفـة التوديـع هـل فيـك راجـع إشـــارته ذلـــك البنـــان المطـــرف
وهــل مطمعــي ذاك الغــزال بلفتــة وإن ثــور الركــب العجــال وأوجفــوا[٢]

وهـذه الأبيـات وصـف سـابغ للمـرور بمنـازل الأحبـاب ، ولكـن فيهـا تصـويرًا لانتهـاب الحسن عند الوداع ، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان ، وليست هـذه المتعة بالشئ القليل !

---

(١) لم نفن: لم نقم. والأزلم المتغطرف هو الدهر.

(٢) أوجفوا: أسرعوا

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع ، واليوم نذكر من شعرهم في الدمع بعد الفراق. فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري ايلقاهم وهو حي ، أم ينتظرهم في عالم البقاء:

ألم يأن للسفر الذين تحملوا ... إلى وطن قبل الممات رجوع

فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... نطقن بما ضمت عليه ضلوع

تبين فكم دار تفرق شملها ... وشمل شتيت عاد وهو جميع

طوال الليالي صرفهن كما ترى ... لكل إناس جدبة وربيع

ويذكر صاحب «مواسم الأدب» أن المأمون كان يعجب بهذه الأبيات ، وكذلك كان المؤلفون «يسجلون» إعجاب الملوك بما يقول الشعراء ، كأن الشعر «نقود» لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك !! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال المأمون على الشعر الجيد ، وتشجيعه للشعراءِ المجيدين ، كان مما رفع الأدب ونهض بالأدباء. وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية: هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاءِ ، وإن اسبغت عليها نعمة العلم والجاه !! ولنا أن نقول: أن في عجز العلم والملك عن قتلا لحب في صدور الملك والعلماءِ لدليلاً على أن نعم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة ، القاهرة: نعمة الجمال !! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء ، يقول الطغرائي:

إني لأذكركم وقد بلغ الظما ... مني فأشرق بالزلال البارد

وأقول ليت أحبتي عاينتهم ... قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك حزين كقوله:

الدمع مذ بعد الخليط قريب ... والشوق يدعو والزفير يجيب

لن لم تكن كبدي غداة وداعكم ... ذابت فاعلم أنها ستذوب

داء طلبت له الأساة فلم يكن — إلا التعلل بالدموع طبيب
أما اقمت فإن دمعي غالب — لعواذلي وتجلدي مغلوب

ومن الشعراءِ من ينفد دمعه ، فيوصي بالبكاءِ عنه ، كما قال الشريف:

أيها الرائح المغذ تحمل — حاجة للمتيم المشتاق
إقر عني السلام أهل المصلى — فبلاغ السلام بعض التلاقي
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد — إن قلبي إليه بالأشواق
وإذا ما سئلت عني فقل نضـ — ـو هوى ما أظنه اليوم باق
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع — ومني عند بعض تلك الحداق
وابك عني فطالما كنت من قبـ — ـل أعير الدموع للعشاق

وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل:

أيها الراكب الميمم ارضي — إقر من بعض السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض — وفؤادي ومالكيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا — وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بيننا بافتراق — فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن الشعراءِ من يبكي في القرب والبعد ، كما قال بعض الظرفاء:

وما في الأرض أشقى من محب — وإن وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيًا في كل حال — مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكي أن نأوا شوقًا إليهم — ويبكي إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند التنائي — وتسخن عينه عند التلاقي

وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر: وأولها مر ، وآخرها سكر ؟ فقال صدقت يا أمير المؤمنين ! ولكن بين السكرو المرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض !

وبين دموع التلاق ، ودموع الفراق ، لحظة دونها حياة الإبرار في جنات النعيم !!

ومن الشعراءِ من يتوجع على عهده قبل الفراق. كقول الشريف:

هــل عهــدنا بعــد التفــرق راجــع أو غصـــننا بعـــد التســـلب مـــورق

شــوق أقــام وأنــت غيــر مقيمــة والشـــوق بـــالكلف المعنـــى أعلـــق

ما كنت أحظى في الدنو فكيف بي واليـــوم نحـــن مغـــرب ومشـــرق

وفي البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب.

وقد أجاد الأرجاني في وصف اليأس بعد الفراق ، حين قال:

رحلـوا: أمـام الركـب نشـر عبيـرهم ووراءهــم نفــس المشــوق الصــادي

فكـــأن هـــذا مـــن وراء ركـــابهم حـــاد لهـــا وكـــأن ذلـــك هـــادي

لله موقـــف ســـاعة يـــوم النـــوى بمنـــى وأقمـــار الحـــدوج بـــواد

لمـــا تبعـــت وللمشـــيع غايـــة اظعـــانهم وقـــد امـــتلكن قيـــادي

اتبعـــتهم عينـــي وقلبـــي واقفًـــا فـــوق الثنيـــة والمطـــي غـــواد

كيـف السـبيل إلـى التلاقـي بعـدما ضـــرب الغيـــور عليـــه بالأســـداد

والحـي قـد ركـزوا الرمـاح بمنـزل فيـــه الظبـــاءُ ربائـــب الآســـاد

وعـد المنـى بهـم فقلـت لصـاحبي كـم دون ذلـك مـن عـدى وعـواد

عهـدي بهـم وهـم بـوجرة جيـرة ســقيت عهــودهم بصــوب عهــاد

فـاليوم مـن نفـس النسـيم إذا سرى نبغـــي شـــفاء علائـــل الأكبـــاد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها أيدي الفراق حين نفرت عنها الظباء ، كسبط ابن اسهايذي حين يقول:

يـا موقفًـا بالبـان لـم تثمـر لنـا غيـــر الصـــبابة والأســـى شـــجراته

هـــل نفـــرت لا نفـــرت غزلانـــه أو صـــوحت لا صـــوحت باناتـــه

عهـدي بـه يلـوي الـديون قضـاته وتصـــيد ألبـــاب الرجـــال مهاتـــه

فـــاليوم لا جيرانـــه جيرانـــه قـــدمًا ولا فتياتـــه فتياتـــه

يـا حـادي الأظعـان فـي آثـاركم قلـــب تقطعـــه جـــوى حســـراته

ولقـد يـرى ثبـت الحصـاة فمالـه اسمت تـذوب على البعاد حصـاته[1]



(1) الحصاة: القلب.

شكوى الصبابة

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فإذا هم مختلفون: فمنهم من يشكو إلى من يعلم السر والنجوى ، ومن يقدر على تصريف الخواطر ، وتقليب القلوب.

ألان لـــداود الحديـــد بقـــدرة　　　مليــك علــى تيســير قلبــك قــادر

وهؤلاءِ أصدق الناس حبًا وأحسنهم إيمانًا. وسيدهم أبو صخر الهزلي حين يقول:

بيــد الــذي شــغف الفــؤاد بكــم　　　تفــريج مــا ألقــى مــن الهــم

فإنه جعل الهوى قدرصا ، وجعل الأمر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب ، وأودع الذل فيه. ولم أجد في هذا المعنى أوجع من قول قيس ابن زريح:

إلى الله أشكو فقد لبنى كما شكا　　　إلــى الله بعــد الوالــدين يتــيم

يــتم جفــاه الأقربــون فدمعــه　　　غزيــر وعهــد الوالــدين قــديم

وإذا كان محالا إن يجد المرء بعد أبويه من يعوله ، ويحدب عليه ، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديرًا أن يفوز به لو عاش أبواه ، فكذلك لا يجد قيس من بين النساءِ مِن مَن تبره بر لبني. وهذا وجه الحسن في هذين البيتين ، اللذين يفيضان نارًا وحرقة. وقال ابن المعتز:

إلى الله أشكو الشوق لا أن لقيتها　　　يقــل ولا إن بنــت يخلقــه الــدهر

مقيم على الأحشاءِ قد قطعت به　　　فســاعته يــوم وليلتــه دهــر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه ، وخلود وجده. وإنما يشكو المحب قسوة الهجر ، ومرارة الصدود: وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه:

أكشو إلى الله من نارين واحدة　　　في وجنتيه وأخرى منه في كبدي

ومن سقامين سقم قد أحل دمي　　　من الجفون وسقم حل في جسدي

وهذا شعر منتقد. فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده ، أملاً في الراحة من بلاءِ الحب ، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه والنار في خديه ؟ وقد أجاد أو قارب في قوله:

ومن نمو مين دمعي حين أذكره ... يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني ... ووده ويراه الناس طوع يدي

فإنه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف !

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم. وهو نوع من الوله ، وصنف من الصبابة. تقربه عين المحب. وتطيب به نفس المشوق. كقول ابن المعتز:

أياسدرة الوادي على المشرع العذب ... سقاك حيًا حي الثرى ميت الجدب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى ... إليك وإن طال الطريق على صحي
أصانع أطراف الدموع ومقلتي ... موقرة بالدمع غربًا على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا ... ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيبًا بالشباب فإن تطر ... شياطين لذاتي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق. وهو أصل هذا الباب. ومنه هذا البيت السائر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير:

أين من يرحمني أشكو له ... يوا إنما الشكوى إلى من يرحم
أنا من قلبي ومنها آيس ... لم يكن من مقلتيها يسلم
أيها السائل عن وجدي بها ... إنه أعظم مما تزعم
ولقد حدثت عن شرح الهوى ... أنت يا رب بحالي أعلم
طال ما ألقاه من نار الجوى ... وحديثي لك يا من يفهم
عشق الناس ومثلي لم يكن ... فاعلموا أنني فيهم علم

سطرت قبلي أحاديث الهوى وبمسك من حديثي تختم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق ، وخفة الروح. ولعلك لا تجد أظرف من قوله:

أين من يرحمني أشكو له إنما الشكوى إلى من يرحم

فإنه خير ما قيل في معناه... ومن المغرمين من يشكو إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته ، وأدعى إلى إنصافه. ومنه قول الطغرائي:

لعمرك ما يرجى شفائي والهوى له بين جسمي والعظام دبيب
أجلك أن أشكو إليك وأنطوي على كمدي أن الهوى لعجيب
وآمل براءًا من هوى خامر الحشا وكيف بداءٍ لا يراه طبيب
نصيبك من قلبي كما قد عهدته وما لي بحمد الله منك نصيب
وما ادعي إلا اكتفاءً بنظرة إليك ودعوى العاشقين ضروب
وما بحت بالسر الذي كان بيننا ولكنما لحظ المحب مريب

وقوله «نصيبك من قلبي كما قد عهدته» مأخوذ من قول ابن الأحنف:

إليك أشكو رب ما حل بي من صد هذا التائه المعجب
صب بعصياني ولو قال لي لا تشرب البارد لم أشرب
إن قال لم يفعل وإن سيل لم يبذل وأن عوتب لم يعتب

وقوله «وما ادعى إلا اكتفاءً بنظرة» مأخوذ من قول الشريف:

عشقت وما بي يعلم الله حاجة سوى نظري والعاشقون ضروب

ومما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه – في الشكوى إلى المحبوب – قول بعض الأعراب:

شكوت فقالت كل هذا تبرمًا بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشد ما صبرت وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالبًا رضاها فتعتد التباعد من ذنبي

فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

وهذا شعر الطبع والسليقة ، والموفقون إلى مثله قليل.

وقد أجاد في هذا المعنى من شعراءِ العصر حافظ بك إبراهيم حين قال:

كم تحت أذياء الظلام متيم دامي الفؤاد وليله لا يعلم
ما أنت في دنياك أول عاشق راميه لا يحنو ولا يترحم
أهرمتني ياليل في شرخ الصبا كم فيك ساعات تشيب وتهرم
لا أنت تقصر لي ولا أنا مقصر أتبعتني وتعبت ، هل من يحكم
لله موقفنا وقد ناجيتها بعظيم ما يخفي الفؤاد ويكتم
قالت من الشاكي تسائل سربها عني ومن هذا الذي يتظلم
فأجبنها وعجبن كيف تجاهلت هو ذلك المتوجع المتألم
أنا من عرفت ومن جهلت ومن له لولا عيونك حجة لا تفحم
أسلمت نفسي للهوى وأظنها مما يجشمها الهوى لا تسلم
وأتيت يحدوني الرجاء ومن أتى متحرمًا بفنائكم لا يحرم
أشكو لذات الخال ما صنعت بنا تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى يبقي عليه ولا الصبابة ترحم
ولو تنظرين إليه في جوف الدجي متململاً من هول ما يتجشم
يمشي إلى كنف الفراش محاذرًا وجلاً يؤخر رجله ويقدم
يرمي الفراش بناظريه وينثني جزعًا ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينسف نفسه للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به في كل جنب مدية وانساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه في هوله وسعيره واد قد اطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته من ناظريك وما كتمتك أعظم
قالت أهذا أنت ويحك فاتئد حتى م تنجد في الغرام وتتهم

إنـا سـمعنا عنـك مـا قـد رابنـا   وأطـال فيـك وفـي هـواك اللـوم

اصغت إلى قول الوشاة فأسرفت   فـي هجوهـا وجنـت علـي وأجرمـوا

حتـى إذا يـئس الطبيـب وجاءهـا   أنـي تلفـت تنـدمت وتنـدموا

وأنـت تعـود مريضـها لا بـل أتـت   منـي تشـيع راحـلاً لـو تعلـم

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة ، تمثل العاشق ، وقد طال عليه الليل ، وهجر جفنيه المنام. وهي غاية في حسن القصص ، وسحر البيان.

ولنذكر الشكوى إلى ساقي الراح في قول ابن المعتز:

عشق أيها الساقي إليك المشتكي   س قـد دعونـاك وإن لـم تسـمع

ونـديم همـت فـي غرتـه   وبشـرب الـراح مـن راحتـه

كلمـا اسـتيقظ مـن سـكرته   جـذب الـزق إليـه واتكـا

وسقاني أربعًا في أربع

غصـن بـان مـال مـن حيـث التـوى   مـات مـن يهـواه مـن فـرط الجـوى

خفـق الأحشـاءِ موهـون القـوى   كلمـا فكـر فـي البـين بكـى

ويحه يبكي لما لم يقع !

لـيس لـي صـبر ولا لـي جلـد   يـا لقـومي عـذلوا واجتهـدوا

أنكـروا شـكواي ممـا أجـد   مثـل حـالي حقـه إن يشـتكا

كمد اليأس وذا الطمع

كبـد حـرى ودمـع يكـف   اصـرف الـدمع فـلا ينصـرف

أيهـا المعـرض عمـا أصـف   قـد نمـا حبـي بقلبـي وزكـا

لا تقل في الحب أني مدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة. تهم بمثلها النفس الشجية ، من حين إلى حين ؟

وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله:

ظبـي يصـيد ولا يصـاد محـاذر   نبـل الهـوى وحبائـل الايـنـاس

غـــر شـــموس إن أحـــس بريبـــة	**أعجـــب يجـــامع غـــرة وشـــماس**
يســبي القلــوب بمقلــة مكحولــة	**بفتـــور غـــنخ لا فتـــور نعـــاس**
يـــا للرجـــال ألا معـــين لأيـــد	**صـب الفـؤاد علـى ضـعيف قـاس[1]**
أيضـيمني خنـث الشـمائل لـو نضـا	**عنـــه غلالتـــه حســـاه الحاســـي ؟**
ومـــن العجائـــب أن تحـــل ظلامـــة	**بفتـــى إنـــاس مـــن فتـــاة إنـــاس**

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وإخوانه إلى صديق اقصته في بره الليالي. ومـن شـعراءِ العصـر مـن قـارب الإجـادة فـي هـذا المعنـى ، كصـاحب البـدائع حـين يقول[2]:

عشـــق أنـــت الـــذي علمتنـــي	**يـــــا ســـــيدي بـــــر الصـــــديق**
وتركتنـــــــي فـــــــي فتيـــــــة	**مـــــا فـــــيهم بـــــر رفيـــــق**
لـــــم ألـــــق بعـــــدك مـــــنهم	**ألا الجفـــــــاء أو العقـــــــوق**
حتـــــى كـــــأني لـــــم أبـــــت	**مـــــنهم علـــــى عهـــــد وثيـــــق**
وكـــــأنهم لـــــم يبصـــــروا	**فـــي خلتـــي الحـــر الصـــدوق**
فنســـوا هـــواي ولـــم يفـــق	**مـــن ودهـــم قلبـــي المشـــوق**
ونســـــوا طريـــــف حـــــديثنا	**عنـــــد الصـــــبوح أو الغبـــــوق**
ليـــت الهـــوى مـــا قـــادني	**يومًـــــا إلـــــى ذاك الطريـــــق**
أوليتنـــــــي لـــــــم أنخـــــــدع	**جهـــــلاً بهاتيـــــك البـــــروق**
بـــــل ليتنـــــي بعـــــد الـــــذي	**عانيـــت مـــن صـــبحي أفيـــق**
مـــــولاي لـــــو أبصـــــرتني	**لفزعـــت مـــن دمعـــي الطليـــق**
وشـــــجاك جســـــمي نـــــاحلاً	**وكأنـــــه الطيـــــف الطـــــروق**
أشـــــكوا إليـــــك وإنمـــــا	**يشـــكو المضـــيم إلـــى الشـــفيق**
فـــــارحم فـــــديتك مهجـــــة	**أودى بهـــــا الحـــــزن العميـــــق**

---

[1] ايد: قوى. من الأتد بسكون الياء وهو القوة.

[2] أرسل هذه القصيدة الصديق العزيز محمد محمود حسين.

حــــزن يتطـــع فـــي الحشـــا   فكأنـــــــه غـــــدر الصـــــديق
يـــا ويـــح قلبـــي لـــم يـــزل   يهفـــو بـــه الـــروح الخفـــوق
وتقـــــوده الـــــذكرى إلـــــى   عهـــد الهـــوى الغـــض الرقيـــق
أيـــام نمـــــرح فـــي الصـــبا   فـــي ذلـــك العـــيش الأنيـــق
أيـــام نســـقي فـــي الهـــوى   والـــود كأسًـــا مـــن رحيـــق
تلـــك الليـــالي لـــم تـــدع   مـــن بعـــدها حســـنًا يـــروق
كـــــلا ولا خلـــــت لنـــــا   إلا الزفيـــــــر أو الشـــــــهيق

عند منازل الأحباب

كان أبو نواس يكره الشعر في بكاءِ الرسوم والأطلال ، وأدباء هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعًا للقديم ، وترحيبًا بالجديد ، وهذا حق أدا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدأون قصائدهم ببكاءِ الديار ، وإن لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين ! ولكن من العبث في تحليل العواطف أن نجهل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين، ومن الغبن للآداب العربية أن نغفل ما قيل في منازل الأحباب من الشعر الباكي الحزين ؟ وها نحن أولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الأليمة .

وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الغرئر ، وعفت سررها من النساءِ الحرائر ، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل ، وأمنية المتمني !! فمن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء – وكان ملعب شبابه ، ومنتدى هواه ، وصورة أيامه الخوالي:

ومستنجد (بالحزن) دمعًا كأنه ... على الخد مما ليس يرقأ حائر
إذا ديمة منه استقلت تهللت ... أوائل أخرى ما لهن أواخر
ملا مقلتيه الدمع حتى كأنه ... لما انهل من عينيه في الماءِ ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة ... دمى الشوق في انسانها فهو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح:

نظرت كأني من وراءِ زجاجة ... إلى الدار من ماءِ الصبابة انظر
فعيناي طورًا تغرقان من البكا ... فأعشى وطورًا يحسران فأبصر

ومما يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، قول البحتري:

وقفنا فحيينا لأهلك باللوى ... ربوع ديار دارسات المعالم

ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت عزاهـا مشـوقات القلـوب الهـوائم
خلعنـا بهـا عـذر الـدموع فأقبلـت تلـوم وتحلـى كـل لاح ولائـم
لقـد حكـم البـين المشـتت بـالبلى عليـك وصـرف الـدهر أجـور حـاكم
لعـل الليـالي يكتسـين بشاشـة فـيجمعن مـن شـمل الهـوى المتقـادم

ونود لو تأمل القارئ ما في هذه الأبيات من الترتيب والتنسيق: فقد وقف الشاعر بالديار ، ثم حياها وهو يتنقل برحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضي ، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالاً ، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء ، فاندفع يبكي وينتحب ، ثم أغرب في البكاءِ والنحيب ، حتى خشع عاذلوه ، وخضع لائموه !! ثم توجع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي !! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس، فاجتمع الشمل بعد الفراق !! وقال أبو فراس:

علـى لربـع العامريـة وقفـة إلى ليملي علي الشوق والدمع كاتب
فـلا وابـي العشـاق مـا أنـا عاشـق ادا هـي لـم تلعـب بصـبري الملاعـب
ومـن مـذهبي حـب الـديار وأهلهـا وللنـاس فيمـا يعشـقون مـذاهب

ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهبًا لأبي فراس ، مع أن أبياته هذه ليست شيئًا في جانب ما قيل في منازل الأحباب ، وكيفي أن نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمي:

سأسري إلى الماءِ الذي شربت منه سـليمي وأن مـل السـري كـل واحـد
وألصـق أحشـائي ببـرد ترابـه وإن كـان مخلوطًـا بسـم الأسـاود

ويذكرني هذا بقول بعض الأعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنده وجوه الكواعب:

اقـرأ علـى الوشـل السـلام وقـل لـه كـل المشـارب مـذ هجـرت دمـيم
سـقيًا لظلـك بالعشـي وبالضـحى ولبـرد مائـك والميـاه حمـيم

لو كنت أملك منع مائك لم يذق ما في قلاتك ما حييت لئيم[1]

وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع ، فمن ذلك قوله:

تزافر صحبي يوم ذي الأثل زفرة تذوب قلوب من لظاها واضلع
منازل لم تسلم عليهن مقلة ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشتة ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية:

وقفت على تلك الديار ووحشها دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف قليلاً ولجا بعد في الهملان

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار ، فحسب أطلالها من البلى ، ورسومها من العفاء، أن تنكرها العينان ، ولا يعرفها القلب إلا قليلاً !! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيمًا ، ويعجبون بقول طريح ابن إسماعيل الثقفي:

تستخبر الدمن القفار ولم تكن لترد أخبارًا على مستخبر
فظللت تحكم بين قلب عارف مغنى أحبته وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية ، وكأنها بأهلها مأهولة ، كأبي نواس حين يقول:

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم
تجافي البلى عنهن حتى كأنما لبسن على الأقواءِ ثوب نعيم

وكقول الأخطل:

لأسماء محتل بناظرة البشر قديم ولما يعفه سالف الدهر
يكاد من العرفان يضحك رسمه وكم من ليال للديار وكم شهر

وكقول ابن أحمر العقيلي:

---

[1] القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخره.

تراهـا علـى طـول القـراء جديـدة وعهـد المغـاني بـالحلول قـديم

والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون ، كقول محمد بن وهب:

طلـلان طـال عليهمـا الأمـد درسًـا فـلا علـم ولا قصـد
لبسـا البلـى فكأنمـا وجـدا بعـد الأحبـة مثـل مـا أجـد

وكقول مالك ابن أسماء الفزاري:

بينـاهم سـكن لجـارهم ذكـروا الفـراق فأصـبحوا سـفرا
فظللـت ذا ولـه يعـاتبني مـن لا يـرى مثلـي لـه أمـرا
بكـت الـديار لفقـد سـاكنها أفعنـد قلبـي أبتغـي الصـبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي:

ولمـا وقفنـا بالـديار وعنـدنا مـدامع نسـديها لكـم ونثيرهـا
شكوانا إليها ما لقينا من الضنى فعرفنـا كيـف السـقام دثورهـا
وقـد درسـت إلا أمـارة ذاكـر تلـوح لـه بعـد التمـادي سـطورها
خليلـي قـد عـم الأسـى وتقاسـمت فنـون البلـى عشـاق ليلـى ودورهـا
فـلا دار إلا دمسـنة ورسـومها ولا نفـس إلا لوعـة وزفيرهـا
لعمـر الليـالي مـا حمـدت قـديمها فيوحشـني ذهابهـا ومرورهـا
وقـالوا عطـاء الـدهر يبلـى جديـده ومـن لـي بـدنيا لا يـزول سـروره

ونود لو نأمل القارئ إبداع ابن سنان في هذين البيتين:

خليلـي قـد عـم الأسـى وتقاسـمت فنـون البلـى عشـاق ليلـى ودورهـا
فـلا دار إلا دمنـة ورسـومها ولا نفـس إلا لوعـة وزفيرهـا

وحسب العاشق من موجب الأسى ، وداعي الحزن ، أن يرى منازل أحبابه هامدات، باليات !

تعفـو المنـازل أن نـأوا عنهـا وتغبـر الـبلاد

والحـــــي أولـــــى بـــــالبلى   شـــــوقًا إذا بلـــــى الجمـــــاد

وهل تأملت كيف شكا إلى الديار ما لقي من الضنى ، وكيف عرف ما به من السقم لما تبين دثورها ، وتعرف عفاءها ! ويا ليت شعري هل شكت إليه ما تجد إليه من بعد سكانها ، وبين ملاكها ؟ أما والهوى إنها لتشكو في صمتها الرهيب: إذ كانت تحزن بغير قلب ، وتبكي بغير دمع !!

كفى حزنًا للهائم الصب أن يرى   منـــازل مـــن يهـــوى معطلـــة قفـــرا

ومما يقرب من فلسفة الشعر ، وفقه الأدب ، في بكاء الرسوم الهوامد ، والأطلال الدوارس ، مع الإفصاح عن الأسى والبث ، والشجى والحزن ، قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها ما لقي المحب بعدهم من الضنى والنحول:

وقفت أداري الوجد خوف مدامع   تبـيح مـن السـر الممنـع مـا أحمـي

أغالـــب بالشـــك اليقـــين صـــبابة   وأدفـــع مـــن صـــدر الحقيقـــة بـــالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس ، ومغالبة الوجد: فقد عرف الديار بقلبه ، لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين ، وأنكرها بطرفه ، لما لقيت من الدثور والعفاء، فهو يريد أن يعتصم بالشك ، لينجو من قسوة اليقين ، ولكنه غلب على أمره فقال:

فلمـا أبـى إلا البكـاء لـي الأسـى   بكيـت فمـا أبقيـت للرسـم مـن رسـم

كـــأني بـــأجزاع النقيبـــة مســـلم   إلـى ثـائر لا يعـرف الصـفح عـن جـرم

يرحمه الله ! فهل رأى ثائرًا أظلم من الوجد ، وحاكمًا أجور من الصبابة ! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار ، فقال:

لقـد وجـدت وجـدي الـديار بأهلهـا   ولو لم تجدو جدي لما سقمت سقمي

علـــيهن وســـم للفـــراق وإنمـــا   علـي لـه مـا لـيس للنـار مـن وسـم

وهذا من الإبداع في وصف الديار الخالية ، وهل تجد المنزل بعد أهله إلا باكيًا حزينًا؟ أوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي ، عساه

يعرف شيئًا عن سكانه الراحلين ، وملاكه الغائبين ؟ إن السكان للمنازل كالأرواح للأجسام ، فإذا ارتحلوا آن حمامها ، وحان دثورها ، وحل دمارها ! وقد رآى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر في قسمة الضنى بينه وبين المنزل الخالي ، فقال:

وكم قسم البين الضنى بين منزل ... وبيني ولكن الهوى جائر القسم

منازل أدارس شجاني نحوها ... فهلا شجاها ناحل القلب والجسم

وهذه استغاثة بالطلل البالي ، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين !

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعًا عند مغاني الأحباب ، فمن ذلك قوله:

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة ... أثار شوقك فيها محو آثار

أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به ... وما اعترافك إلا دمعك الجاري

لو كنت ناسي عهد من تقادمه ... نسيت فيها لباناتي وأوطاري

أيام يفتك فيها غير مرتقب ... ظبي الكناس بليث الغاية الضاري

لا أرسل اللحظ إلا كان موقعه ... على شموس منيرات وأقمار

ما أطيب العيش لو أني وفدت به ... على زمان ودهر غير غدار

وهذا شعر يخالط النفس ، ويلابس الفؤاد ، ومثله في اللوعة قوله من كلمة ثانية:

أجدك ما تنفك بالغور ناشدًا ... فؤادًا بنجد ؟ يا لقلبك من نجد !

وإني لتصميني سهام أدكاركم ... وإن كان رامي الشوق مني على بعد

تمادي غرام ليس بحري إلى مدى ... وفرط سقام لا يقيم على حد

وما أنس لا أنس الحمى وأهلة ... تضل ومن حق الأهلة أن تهدي

زمانًا إخال الجهل فيه من النهى ... وحبًا أعد الغي فيه من الرشد

غنين وما نولن نيلاً سوى الجوى ... وبن وما زودن زادًا سوى الوجد

خليلي ما أحلي الحياة لو أنها ... لطاعمها لم تخلط الصاب بالشهد

لقد حالت الأيام عن حال عهدها ... ومن لي بأيام تدوم على العهد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة:

وبالجزع حي كلما عن ذكرهم ... أمات الهوى مني فؤادي وأحياه

تمنيـــتهم بـــالرقمتين ودارهـــم بـــوادي الغضـــايا بعــد مــا أتمنـــاه

سـقى الوابـل الربعي حائـل ربعهـم ورواحـــه مـــا شـــاء روح وغـــاداه

وجــر عليــه ذيلــه كــل خــاطر إذا مشــى فــي عاطـل التـرب حـلاه

ومـا كنـت لـولا أن دمعـي مـن دم لأحمـــل منًــا للســحاب بســقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الأرجاني:

وقفــت بــأطلال الــديار مســلمًا وعهــدي ومــلء الــواديين قبـــاب

فــأبرق عــذالي ملامًــا وأردعــوا وأمرطــت أجفــاني فــتم ســحاب

به غنيت أرض الحمى عن مصبح يقــول ســقى دار الربـــاب ربـــاب

وهو خيال يبدو كأنه طريف ، ولكنه من الأخيلة الجوفاء ! وفي هذا المعنى يقول ابن التعاويذي:

ســقى دار الحبيــب وإن تنــاءَت ملـــث مثـــل أجفـــاني هطـــول

ولا برحـــت تســـحب للغـــوادي وطـــورًا للصـــبا فيهـــا ذيـــول

فجفنـــي والغمـــام لهـــا غـــدير وقلبـــي والنســـيم بهـــا عليـــل

وعنفنــي علــى العبــرات صــحبي عشـــية قـــوض الحـــي الحلـــول

وقـــالوا اســـتبق للأحبـــاب دمعًـــا فقـــد شـــرقت بأدمعـــك الطلـــول

معـــاذ الحـــب أن ألفـــي حمـــولا وقــد ســارت بمــن أهــوى الجمــود

وعـــــار أن تـــــزم ليـــــوم بـــــين جمـــالهم ولـــي صـــبر جميـــل

ومن الشعراءِ من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب التي قضاها بمرأى من كواكبه السواطع ، ونجومه اللوامع. وقد نوه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومي جاءَ إلى علي بن عبد الكريم النصيبي وأنشده هذه القطعة البديعة:

ولـــي وطـــن آليـــت أن لا أبيعـــه وأن لا أرى غيــري لــه الــدهر مالكــا

عمـرت بـه شـرخ الشـباب منعمـا بصـحبة قـوم أصـبحوا فـي ظلالكـا

وحبـــب أوطـــان الرجـــال إلـــيهم مـــآرب قضـــاها الضـــباب هنالكـــا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد إن بان غودر هالكا

ثم قال: انصفني وقل الحق. أيهما أحسن ؟ قولي في الوطن أم قول الاعرابي

أحب بلاد الله ما بين منعج إلى وسلمى لا يصوب سحابها
بلادها بها نيطت على تمائمي وأول أرض مس من جسمي ترابها

فقال له: بل قولك أحسن ، لأنه ذكر الوطن ومحبته. وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك !! وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب في قول ابن الرومي:

عمرت به شرخ الشباب منعما بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا

وخلاصة الحديث أن القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها ، فمما فيها من التحريض قوله:

وإني وإن أضحي مدلا بماله لآسل أن أضحي مدلا بمالكا
فإن لم تصبني من يمينك نعمة فلا تخطئنه لقمة من شمالكا
فكم لقي العافون بدءًا وعودة نوالك والعادون غمر نكالكا

وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد:

بلد صبحت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العيش وهو جديد
فإذا تمثل في الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن ، ولا بكاء على اللهو ، ولكنه بكاء على الشباب ، ويذكرون قول ابن الرومي من كلمة ثانية:

لا تلح من يبكي شبيبته إلا إذا لم يبكها بدم
عيب الشبيبة غول سكرتها ومدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها غلا أوان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها حتى تغشى الأرض بالظلم

ولــــرب شــــيء لا يســـــر بــــه وجدانـــــــه إلا مـــــع العـــــــدم

والذين يؤولون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع في وصف الوطن بشار بن برد حين يقول:

متى تعرف الدار التي بان أهلها بسعدي فإن العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع لديها فمغناها إليك حبيب

ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاءً لما انقطع بعده من دواعي الطيش ، وموجبات الجنون ، فبعض العقل رزء ، وبعض الوقار بلاء ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هرون الرشيد إلى خراسان واستدعاه ليلة لينشده شيئًا من الشعر ، فأنشده هذه الأبيات:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له: لقد اشتقت يا عباس ! فأجابه ، نعم يا أمير المؤمنين ! فإذن له بالرجوع...

وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بحرة ليلى حيث ربنني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائمي وقطعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي فاقتر علي الرزق واجمع بها شملي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان ! وما أدري أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقًا بالأهل والعشيرة ، أم كان برًا بمن فيها من فاتنات الخدود ، وساحرات العيون ، وقاسيات القلوب ؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول:

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل:

سقى الله اليمامة من بلاد نوافجها كأرواح الغواني[1]
وجو أزاهر للريح فيه نسيم لا يروع الترب واني
به سقت الشباب إلى مشيب يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الأعراب في توديع نجد ، وما لقي بها من نضارة العيش ، وطيب الحياة:

أقول لصاحبي والعيس تهوى بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحي نجدًا وأنت على زمانك غير زار[2]
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سِرار

وهذا حنين يذل له عصي الدمع. ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت ملعب صباه:

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ يا دار جادك وابل وسقاك
بؤسًا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحلُ للعينين بعدك منظر ذم المنازل كلهن سواك
أي المعاهد منك أندب طيبه ممساك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذي الغصون ودي الجنى أم أرضك الميثاء أم رياك
وكأنما سطعت مجامر عنبر أوفت فار المسك فوق ثراك
وكأنما حصباء أرضك جوهر وكأن ماء الورد دمع نداك
وكأنما أيدي الربيع ضحية نشرت ثياب الوشى فوق رباك
وكأن درعًا مفرغًا من فضة ماء الغدير جرت عليه صباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف. وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطنًا لعبث الصبا ولعب الشباب ، ولكثير منهم حنين موجع إلى سكانها من

---

[1] النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.

[2] غير زار: غير عاتب.

ظرفاء الرهبان ، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التغني بمنازل الشراب. فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير القصير ، وقد كان ملعبًا للشعراء المصريين.

إن دير القصير هاج أذكاري لهو أيامنا الحسان القصار
وزمانًا مضى حميدًا سريعًا وشبابًا مثل الرداء المعار
ولو أن الديار تشكو اشتياقًا لشكت جفوتي وبعد مزاري
ولكادت تسير نحوي لما قد كنت فيها سيرت من أشعاري
وكأني إذا زرته بعد هجر لم يكن من منازلي ودياري
إذ صعودي على الجياد إليه وانحداري في المعتقات الجواري
بصقور إلى الدماءِ صواد وكلاب على الوحوش ضواري
منزلاً لست على التصاوير فيه بصغار محثوثة وكبار
صورة في مصور فيه ظلت فتنة للقلوب والأبصار
أطربتنا بغير شدو فأغنت عن سماع العيدان والمزمار
لا وحسن العينين والشفة اللمـ ـياء منها وحدها الجلنار
لا تخلفت عن مرادي دهرًا هي منه ولو نأى بي مزاري

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم:

سلام على دير القصير وسفحه فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مآرب وكن مواخيري ومنتزهاتي
إذا جئتها كان الجياد مراكبي ومنصرفي في السفن منحدرات

ومن الأديار التي خلدها الشعراء «دير قُنّا» بالقرب من بغداد ، وقد أبدع في وصفه المؤرخون ، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب ، ولم يبق غير ذكراه في قول ابن جمهور:

يا منزل اللهو بدير قُنا قلبي إلى تلك الربى قد حنا

سـقيًا لأيامـك لمـا كنـا نمتـاز منـك لـذة وحسـنا
أيـام لا أنعـم عيشًـا منـا إذا انتشـينا وصـحونا عـدنا
إذا فنـى دن بزلنـا دنًـا حتـى يظـن أننـا جننـا
ومسـعد فـي كـل مـا أردنـا يحكـي لنـا الغصـن الرطيـب اللـدنا
أحسـن خلـق الله إذ تحنـا وجـس زيـر عـوده وغنـا
بـالله يـا قسـيس يـا باقنـا[1] متـى رأيـت الرشـأ الاغنـا
متـى رأيـت فتنتـي تجنـي آه إذا مـا مـاس أو تثنـى

أسأت إذا أحسنت فينا الظنا !

ومن الشعراء من تهج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه ، كما قال السري الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق:

لحـا الله العـراق وسـاكنيه فمـا للحـر بيـنهم قـرار
وجـاد الموصـل المبـيض غيـث يجـود وللبـروق بـه انفسـار
كمـا انهلـت مـدامع مسـتهام تلهـب منـه فـي الأحشـاء نـار
ففـي أيامـه حسـن التصـابي وفـي أفيائـه خلـع العـذار
ليـالي كـان لـي فـي كـل يـوم إلا الحانـات حـج واعتمـار
فمـن ذكـر القيامـة بـي صـدود وعـن سـاح المسـاجد بـي نفـار
ولـي خـدنان همهمـا المعـالي وشـأنهما السـكينة والوقـار
وصـاق تضـحك الـدنيا إليـه إذا ضـحكت بكفيـه العقـار
يطـوف بهـا وقـد حملـت حبابًـا كمـا حمـل السـقيط الجلنـار[2]
كـأن الشـرب ينتبهـون نـارًا لهـا لهـب ولـيس لهـا شـرار
رأى الـدهر اجتمـاع الشـمل منـا فبـدده وللـدهر الخيـار

---

[1] قد يكون أصل الكلمة يا ابا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفًا والمراد به ساكن دير قنا.

[2] الجلنار: زهر الرمان.

إلى هنا وقف القارئ على نماذج في بكاءِ الديار الخالية ، والحنين إلى الوطن النائي ، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب ، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول ، حين يصبح أهله كالكواكب قريبة الضوء ، بعيدة المنال ! وحين يصبح تمنع الحبيب أقسى من النوى ، وأمر من الفراق. وأبدع الشعر في ذلك قول راشد بن إسحق الكوفي:

ومتسوحش لم يمس في دار غربة ... ولكنه ممن يحب غريب
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره ... فشطت نواه والمزار قريب
سلام على الدار التي لا أزورها ... وإن حلها شخص إلى حبيب
وإن حجبت عن ناظري ستورها ... هوى تحسن الدنيا به وتطيب
هوى تضحك اللذات عند حضوره ... ويسخن طرف اللهو حين يغيب
تثنى به الأعطاف حتى كأنه ... إذا اهتز من تحت الثياب قضيب
ألم تر صمتي يجري حديثه ... وقد كنت أدعي باسمه فأجيب
رضيت بسعي الدهر بيني وبينه ... وإن لم يكن للعين فيه نصيب
أحاذر إن واصلته أن ينالني ... وإياه سهم للفراق مصيب
أرى دون من أهوى عيونًا تريبني ... ولا شك أني عندهن مريب
أداري جليسي بالتجلد في الهوى ... ولي حين أخلو زفرة ونحيب
وأخبر عنه بالذي لا أحبه ... فيضحك سني والفؤاد كئيب
مخافة أن تغري بنا ألسن العدا ... فيطمع فينا كاشح فيعيب
كأن مجال الطرف في كل ناظر ... على حركات العاشقين رقيب
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى ... وصيبين عثقل المرء وهو لبيب
وكم قد أذل الحب من متمنع ... فأضحى وثوب العز منه سليب
وإن خضوع النفس في طلب الهوى ... لأمر إذا فكرت فيه عجيب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراعة القيسي أنه كان في مجلس العتبي مع عبد الصمد بن المعذل ، وأنهم تذاكروا ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس ؟ فقال أبو شراعة أشعر منك الذي يقول:

ومتسوحش لم يمس في دار غربة ولكنه ممن يحب غريب

إلى آخر القصيدة. وإن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف ! وعندي أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفًا منظما يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل: ألا تراه يذكر في أول القصيدة أنه قريب ، ولكنه في قربه غريب ، لأن إنسانًا غيره يتمتع بذلك الحبيب ؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائعًا لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق ؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة ، لأن الذي يتصور أن محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته اتقاءً لعيون الوشاة!

ينقص هذه القصيده إذن ما أسميه «الصورة الشعرية» ولا يمنع هذا أن تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الأبيات المختارة. ولئن صح أن العتبي صادق على أن صاحبها أشعر الناس فإنا نشك في أذواق الأدباء الأقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية. وأحب أن يفهم بعض الناس معنى «الحاسة الفنية» فإن كثيرًا من أدعاء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون ، فضلاً عن أن يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول !

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق ! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك ، إذ لم يرزقوا الأدراك ! ومحال أن يجدوا طمعصا لقول الشاعر:

أسمع في قلبي دبيب المنى وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر. وأين تكون القلوب ! من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء ، وأن لا يعتمد في

اختياره على الأذواق العامة لعلماء البيان ، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شئ ، وأن الأدب لحياتهم مدين !!

وقد يمر العاشق ببيت من يهوى ثم لا يملك التحية ، لأن الوشاة له بالمرصاد. فمن ذلك قول السري الرفاء:

مررنـــا بـــالعقيق فكـــم عقيـــق ترقـــرق فـــي محاجرنـــا فـــذابا
ومـــن مغنـــى جعلنـــا الشـــوق فيـــه ســـؤالا والـــدموع لـــه جوابـــا
وفـي الكلـل التـي غابـت شـموس إذا شـــهدت ظـــلام الليـــل غابـــا
حملـــت لهـــن أعبـــاءَ التصـــابي ولـــم أحمـــل مـــن الســـوان عابـــا
ولـو بعـدت قبابـك قـاب قـوس مـــن الواشـــين حييـــت القبابـــا

إلى هنا عرف القاريء ألوان العواطف عند منازل الأحباب ، فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية ، وشهد بكاءهم على الوطن النائي ، وحنينهم إلى مواطن اللهو والشراب ، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو وهو بعيد ، لنفور ما فيه من الظباء !

ويجمع شتيت هذه المعاني قول بعض الأعراب:

بكـل تـداوينا فلـم يشـف مـا بنـا على أن قـرب الـدار خيـر مـن البعـد
علـى أن قـرب الـدار لـيس بنـافع إذا كـان مـن تهـواه لـيس بـذي عهـد

وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية ، حين نتحدث عن آراء الشعراء في أفنان الجمال.



وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان: فهو يخشى أن تفضحه الدموع ! وأشهر الشعراء في الخفاء الحب العباس بن الأحنف ، وسنبسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان. ونكتفي الآن بشعره عن قهوه بالدموع: وقد رأيته يتوجع حينًا من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع ، فيقول:

هـــوني أغـــض إذا مـــا بـــدت ... وأملـــــك طرفــــي فـــــلا أنظــــر
فكيــف أســتتاري إذا مــا الــدمو ... ع نطقـــن فـــبحن بمـــا أضـــمر
أمنــي تخــاف انتشــار الحــديث ... وحظـــي فـــي صـــونه أوفـــر
ولــو لــم يكــن فــي بقيــا عليــك ... نظـــرت لنفســـي كمـــا تنظـــر

ويغضب حينًا على دمع عينيه فيقول:

لا جـــزى الله دمــع عينــي خيــرًا ... وجـــزى الله كـــل خيـــر لســـاني
نــم دمعــي فلــيس يكــتم شــيئًا ... ورأيـــت اللســـان ذا كتمـــان
كنــت مثــل الكتــاب اخفــاه طــي ... فاســـتدلوا عليـــه بـــالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة ، فيقول:

قلبـــي إلـــى مـــا ضـــرني داعـــي ... يكثـــر اســـقامي وأوجـــاعي
كيــف احتراســي مــن عــدوي إذا ... كـــان عـــدوي بـــين أضـــلاعي

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع ، كما يقول البحتري:

علاقــة حــب كنــت أكــتم بثهــا ... إلــى أن أذاعتهــا الــدموع الهوامــع
إذا العين راحت وهي عين على الجوى ... فلــيس بســر مــا تســر الأضــالع

وقد أفصح الأرجاني عن غاية ذلك: وهي نصر الوشاة ، بقوله:

ولــي نفــس إذ مــا امتــد شــوقًا ... أطــار القلــب مــن حــرق شــظايا

ودمع ينصر الواشين ظلمًا ويظهـــر مـــن ســـرائري الخبايـــا

وأكرم من هؤلاءِ جميعًا الشريف الرضي حين يقول:

أيســمح جفنــي بالــدموع وأغتــدي ضـــنينًا بهـــا أنـــي إذن للئـــيم
ولــو بخلــت عينــي إذن لعتبتهــا فكيـــف ودمـــع النـــاظرين كـــريم

وقد نظر أبو نواس إلى قول بشًا بن بُرد:

يروعـــه الســـرار بكـــل شـــيءٍ مخافـــة أن يكـــون بـــه الســـرار

ثم حاكاه بهذه الأبيات في نميمة الدمع:

قــد تســترت بالســكون وبالاطــ ـــراق جهـــدي فنمـــت العينـــان
تركتنــي الــدموع نصــب المشيريــ ـــن وأُحدوثـــة بكـــل مكـــان
مـــا آرى خـــاليين للســـر إلا قلـــت مـــا يخلـــوان إلا بشـــاني

وهي صورة شعرية ، تمثل العاشق المروع أصدق تمثيل.

ومن المحبين من تنم عليه دموعه الغزار ، وأنفاسه الحرار ، كالبحتري حين يقول:

إن الخطــوب طــوينني ونشــرنني عبـــث الوليـــد بجانـــب القرطـــاس
مـا شبت مـن طـول السـنين وإنمـا طـول الملامــة فيــك شــبب رأســي
نمت على ما في ضـميري أدمعي وتتـــابع الصـــعداء مـــن أنفاســـي

ومن روائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار:

طرحــت بجمــع نظــرة ســاءَ ركبهــا وتبعـــث شـــرًا للعيـــون المطـــارح
فإن سترت تلك الثلاث على منى هــواي فيــوم النفــر لا شــك فاضــح
بكيــت ولام العــاذلات فلــم تغــض علــى رقيــة العــذل الــدموع الســوافح

كيف يسوءُ كسب العيون ، حين تجني على القلوب !

سلطان الحب

سالنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب: اختياري هو أم اضطراري وهل المحب مضطر أم مختار ؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة ، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب «ديوان الصبابة» وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري ، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون. قال ابن أبي حجلة في سذاجة غريبة ما نصه:

«هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره. وأسفر كالصباح أمره. إذ للناس فيه كلام من الطرفين ، وتبختر من الصفين. فقائل بأنه اضطراري. وقائل بأنه اختياري. ولكل من القولين وجه مليح. وقد رجيح. ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع. ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف: العشاق معذورون على كل حال. مغفور لهم في جميع الأقوال والأفعال. إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار. بل اعتراهم على جبر واضطرار. والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور. لا في المقضي عليه والمقدور. وقد جاءَ في الحديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أن الحامل كانت ترى يوسف – عليه السلام – فتضع حملها. فكيف تراها وضعته ؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار ؟ لا. بل باضطرار ، وفقد اقتدار. وهذا مما لا يشك فيه ذولبٍ. ولا يختلج خلافه في قلب».

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية. ونقل عن أبي محمد بن حزم أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذلك مما لا

يملك. قال «وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقًا في هوى امرأة يألفها ؟ إنما ذلك ضعف نفس ، ورقة ، وخور ، تجدونه فيكم يا بني عذرة. فقال: أما والله لو رأيتم الحواجب الزج ، فوق النواظر الدعج ، تحتها المباسم الفلج ، لا تخذتموها اللات والعزى !».

ثم قال بعد كلام طويل «إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية ، وغلظ الكبد ، وقساوة القلب ، ونفور الطباع ، وغير ذلك. فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته ، ولم يعرف نعله من عمامته» — العاقبة عندكم يا شيخ محمد ! — ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطراري ، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس».

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار ، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويجًا للنفس. أما الشعر في سلطان الحب فكثير. فمن الشعراءِ من يجعله سحرًا كالطفرائي حين يقول:

إن لم يكن سحرًا هواك فإنه ... والسحر قدًا من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب ... حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرفه ... لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به ... حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار:

وعنفني سعد على فرط ما أرى ... فقلت أتعنيف ولم تك مسعدي
وما ذاك إلا أن عجلت بنظرة ... قتلت بها نفسي ولم أتعمد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول المتنبي:

أيدري الربع أي دم أراقا ... وأي قلوب هذا الركب شاقا
لنا ولأهله أبدًا قلوب ... تلاقى في جسوم ما تلاقى
فليت هوى الأحبة كان عدلاً ... فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله. كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي:

تضيق جفون العين عن عبراتها   فتسفحها بعد التجلد والصبر
وغصة صدر أظهرتها فرفهت   حزازة حرّ في الجوانح والصدر
ألا ليقل من شاءَ من شاءَ إنما   يلام الفتى فيما استطاع من الأمر
قضى الله حب المالكية فاصطبر   عليه فقد تجري الأمور على قدر

ويدخل في هذا الباب خلود الحب. فمن الشعراءِ من يجعل سببه خلود المحاسن في الحبيب ، كقول ابن الرومي:

هل الملالة إلا منقضي وطر   من متعة يطبي من غيرها وطر
وفيك أحسن ما تسمو النفوس له   فأين يرغب عنك السمع والبصر

وكما قال ابن عنين:

خبروها بأنه ما تصدى   لسلو عنها ولو مات صدا
واسألوها في زورة من خيال   إن تكن لم تجد من الهجر بدا
ظبية تخجل الغزالة وجهًا   وبهاءً وتفضح الغصن قدا

وكما قال أبو الأسود الدؤلي:

أبي القلب إلا أم عمرو وحبها   عجوزًا ومن يحبب عجوزًا يفند
كبرد اليماني قد تقادم عهده   ورقعهته ما شئت في العين واليد

وهو رأي منتقد: فكل زهر إلى ذبول ، وكل جمر إلى خمود ، وكل حسن إلى فناء ، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل.

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه ، كقول صردر:

ولقد عرضت على السلو جوانحي الـ   ـحرى فلم يرهن دار مقام
كيف السلو وليس يسلك مسمعي   إلا حنين أو بكاء حمام

وكما قال ابن الزيات:

لم يزدني العذل إلا ولعا   ضرني أكثر مما نفعا

ذهبــت بالقلــب عــين نظــرت ليتهـــا كانـــت وإيـــاه معـــا
كـــل يـــوم لـــي منهـــا آفـــة تركتنـــــي للهـــــوى متبعـــــا

وكما قال ابن التعاويذي:

يلــوم عليــك خــال مــن غرامــي رويـــدك أيـــن ســـمعي والمـــلام
ســـلو مثـــل عطفـــك لا يرجـــى وصـــبر مثـــل وصـــلك لا يـــرام
فكيــف أطيــع عــذالي وعنــدي همــوم قــد ســهرت لهــا ونــاموا

وهذا أيضًا منتقد ، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت دواعيه !
ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الأحشاء. كما قال الأبيوردي:

أرى كـل حـب غيـر حبـك زائـلا وكـــل فـــؤاد غيـــر قلبـــي ســـاليا
إذا اســتخبر الواشــون عمــا أســره حمـدت سـلوى أو ذممـت التصـابيا
أيـذهل قلـب أنـت سـر ضـميره فـلا كـان يومًـا عنـك يـا علـو سـاليا

وكما قال الغزي:

يــا خليلــي لــو ملكــت فــؤادي جـــاز أن يملـــك الصـــواب عنـــاني
ظــالمي مــن أراد إنصــاف نفســي مـــن هواهـــا وآمـــري مـــن نهـــاني
قــد تورطــت فــي تعســف شــوقي حيـــث لا يعـــرف الســـلو مكـــاني

وكما قال الطغرائي:

خليلـي هـل مـن مسـعد أو معـالج فــؤادًا بــه داء مــن الحــب نــاكس
وهـــل ترجـــو أن البـــرءَ ممـــا أكنـــه فـــإني وبيـــت الله منـــه لآيـــس
هوى لا يديل القرب منه ولا النوى ولا هـــو مـــن طـــول التقـــادم دارس
سرى حيث لا يدري الضمير مكانه ولا تتهتـــدي يومًـــا إليـــه الهـــواجس
إذا قلـت هـذا يـوم أسـلو تراجعـت عقابيـــل مـــن أســـقامه ووســـاوس

وأرجو أن لا يغفل القاريْ عما في هذا الشعر من فنون الجمال.

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاة للطبع ، ونزولاً عقد حكم الخليقة ، وهو أجمل المذاهب. ومنه قول التعاويذي:

مـــن بـــات ذا قلـــب ســـ   ـــلميم مـــن جـــوى فأنـــا الســـليم[١]

مـــالي إذا رمـــت الســـلو   تلـــوم القلـــب الملـــيم[٢]

وإذا كتمـــت الحـــب بـــا   ح بســـره دمـــع نمـــوم

عينـــي وقلبـــي فـــي الهـــوى   عـــون علـــى فمـــن ألـــوم

وأظهر منه قول المتنبي:

إلام طماعيـــة العـــاذل   ولا رأي فـــي الحـــب للعاقـــل

يـــراد مـــن القلـــب نســـيانكم   وتـــأبى الطبـــاع علـــى الناقـــل

وهبـــت الســـلو لمـــن لامنـــي   وبـــت مـــن الشـــوق فـــي شـــاغل

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت إليه في هذا الحديث.

ولكني أرى الحب الصادق حليف الخلود. وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» فليرجع إليه من شاء.



---

[١] السليم هو الملدوغ.

[٢] المليم: الجاني.

غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شهيب عبد الناصر بديروط «عما قالته الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شئ من ذلك» بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المزكلين بالمسز ريب ، وما جنت بداهما في سبيل هذا الحب الغريب !!

وآسف كثيرًا أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة: فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار ! ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة «هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال !» وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع !! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن «السحاق» كما جاءَ في القرآن النهي عن الزنا ! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول ! والمطلع على آداب الفرنسويين يجد في اعترافات النساء عجايب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين ! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب. والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل ، فلا تصدق ما تسمع من أن الإسراف في المجانة بدعة ابتدعها نساء برلين ! وعندي أن آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية ، وإغفالهم الركن الأساسي للإصلاح ، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء ، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يأتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه ، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين !

ألم نصف الآداب الغربية بالإسراف في وصف النساء ؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ، ولكنها في رأيي من الحسنات ، إذ كان الواجب على كل مصلح أن يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية ، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة ، وحب الرجال للغلمان !

اقرءوا هذا وتأملوا قبل أن تصدعوا رءوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث لا تعلمون!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء «مدامع العشاق» إلى أن شعر النساء في الحب قليل: فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة ، وكان الرجل منهم يذوب خجلاً إذا قالت إحدى قريباته بيتًا واحدًا في غلام جميل ، وقد ثأر طويس المغني لنفسه عن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحرث المخزومي:

يـــا خليلـــي نـــابني ســـهدي   لـــم تـــنم عينـــي ولـــم تكـــد
فشـــرابي مـــا أســـيغ ومـــا   أشـــتكي مـــا بـــي إلـــى أحـــد
كيـــف تلحـــوني علـــى رجـــل   آنـــــس تلتـــــذه كبـــــدي
مثـــل ضـــوء البـــدر طلعتـــه   لـــــيس بالزميلـــــة النكـــــد
نظـــرت عينـــي فـــلا نظـــرت   بعـــده عينـــي إلـــى أحـــد

وحديث علية بنت المهدي معروف ، فقد حرم عليها أخوها هارون الرشيد أن تشبب بغلامها طل ، فكان من نتيجة ذلك أن تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها:

ود الفـــــــؤاد بزينبـــــــا   وجـــــدًا شـــــديدًا متعبـــــا

وهو شعر سخيف ، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس في ذلك العهد. وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب هنا كناية عن طل ، ولكن معناه أن تشبيب عليه بزينب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح ، ولم نر في الكتب الأدبية من أنكر على علية هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساءِ الألمان ! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في «قبيحة» جارية المتوكل !

ســـــلافة كـــــالقمر البـــــاهر   فـــي قـــدح كالكوكـــب الزاهـــر
يـــديرها خشـــف كبـــدر الـــدجي   فـــوق قضـــيب أهيـــف ناضـــر[1]

ولا مرية في أن العرب قتلوا عواطف المرأة ، وحرموها من التشبيب ، ولهم في ذلك عذر مقبول ، فإن الغيرة لم توجد ، ولن توجد ، في مثل النفوس العربية ، والعرب

---

[1] الخشف بتثليث الخاء ولد الظبي.

بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك ، أو شبه الشريك. ويأبون أن يسمعوا حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه ، حتى ليقول شاعرهم:

ألم ألق ذا شجن يبوح بحبه   إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذرًات عليك وأنني بك واثق   إن لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة أن تقول شعرًا في الرجل ، فإنه يعز عليها من باب أولى أن تقول شعرًا في اختها المرأة ، فضلاً عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية ، فإن «هذه الشهوة» تعتبر فضولاً في باب الشهوات !

والحق أننا حرمنا خيرًا كثيرًا حين حرمنا شعر النساء ، انظر إلى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد:

إن من يملك رقي   مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العا   لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية:

كن لي شفيعًا اليكا   إن خف ذاك عليكا
واعفني من سؤالي   سواك ما في يديكا
يا من أعز وأهوى   ما لي أهون لديكا

إننا نشتهي أن تتكلم المرأة ! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب الجميل ! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق ، وإن حديثها فجور ، فيا ليت شعري متى يفقهون !



طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف ، كالذي يقول:

وزارني طيف من أهوى على حذر   من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحًا   وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تكذبني   نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف ، والسبب في زيارة الخيال ، كقول أبي تمام:

زار الخيال لها لا بل ازاركه   فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنصته لما نصبت له   في آخر الليل أشراكًا من الحُلمِ

وقوله من كلمة ثانية:

استزارته فكرتي في المنام   فأتانا في خِفية واكتتام
يا لها ليلة تنزهت الأر   واح فيها سرًا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب   غير أنا في دعوة الأحلامِ

وكقول عبد الصمد بن المعذل:

وصلَ النوم بيننا بعد هجر   فاجتمعنا ونحن مفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيبًا   فطوت سرها عن الأبدان
منظرٌ كان لذة القلب إلا   إنه منظر بغير عيان

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيار فكره ، ونصبه أشراكًا من الحلم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم ، مع إبداعه في طي الأرواح سرها عن الأبدان ، خوفًا من الرقباء !

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف: وهي أن الحبيب سطع نوره وعم، حتى شمل النائمين ، وتجلى لأعينهم ، على بعدهم منه ، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان:

يا حبذا طيفك من قادم ... يا أحسن العالم في العالمِ

طيف تجلى نوره ساطعًا ... حتى رأته مقلة النائم

يا غائبًا يحكم في مهجتي ... على طالت غيبة الحاكم

عار على حسنك أن يشتكي ... حظي منه إنه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال ، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه ، والعلة في طروقه ، وإنما يجيد في وصف العطافه ، وانصرافه، كقوله:

سقى الغيث أجراعًا عهدت بجوها ... غزالا تراعيه الجآذو أغيدا

إذا ما الكرى اهدى إلى خياله ... شفى قربه التبريح أو نقع الصدى

إذا انتزعته من يدي انتباهة ... عددت حبيبًا راح مني إو غدا

فلم أر مثلينا ولا مثل شأننا ... نعذب ايقاظًا وننعم هجدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله:

ألمت بنا بعد الهدوءِ فسامحت ... بوصل متى نطلبه في الجد تمنع

وولدت كأن البين يخلج شخصها ... أو أن تولت من حشاي وأضلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللهفة ، والإفصاح عن الحسرة !

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح ، كقول بشار:

ولقد تعرض لي خيالكم ... في القُرط والخلخال واللب

فشربت غير مباشر حرجًا ... برضاب اشنب بارد عذبِ

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى:

بتنا يناولنا المدام بكفه ... من ليس يخطر أن نراه بباله

تجني الكواكب من قلائد جيده ... وتنال عين الشمس من خلخاله

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله:

وما نلتقي إلا على حُلم هاجد ... يحل لنا جدواك وهي حرام

إذا ما تبادلنا النفائس خلتنا ... من الجد إيقاظًا ونحن نيام

وآلم به في قوله:

بنفسي خيالاً من أثيلة كلما ... تأوهتُ من وجدي تعرض يُطمع

ترى مقلتي مالا ترى من لقائه ... وتسمع أذني رجع ما ليس تسمع



خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال. وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع إلى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول: فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب ، والقرب وقد شطت ديار الحبائب ، حتى ليبعث الهوى من جديد ، كقوله:

وقفنا فلا الأطلال ردت إجابة   ولا العذل أجدى في المشوق
تمادت عقابيل الهوى وتطاولت   المخاطب
إذا قلت قضيت الصبابة ردها   لجاجة معتوبٍ عليه وعاتب
يجود وقد ضن الألي شغفي بهم   خيال ملم من حبيب مجانب
ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر أن الطيف ألم به في الظلام فلم يجد مكانًا يأوى إليه ، لأن الكرى طردته الدموع ، كقوله:

تلك البخيلة ما وصلي بمنصرف   عنها ولا صدها عني بمصدود
ألم بي طيفها وهنًا فأعوزه   عندي وجود كرىً بالدموع مطرود

وأحب لو تأمل القاريء وصفه لحبيبته بالبخل ، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء.

ومما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال. وقد أكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم ، ولغلامه هذا قصة عجيبة: فقد ذكروا أنه كان يبيعه ، ثم تطير نفسه إليه فيشتريه ، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال ! وقد أوضح شكواه هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان:

أنسيم هل للدهر وعد صادق   فيما يؤلمه المحب الوامق

ما لي فقدتك في المنام ولم يزل	عـون المشـوق إذا جفـاه الشـائق
أمنعـت أنـت مـن الزيـارة رقبـة	مـنهم فهـل منـع الخيـال الطـارق
اليـوم جـاز بـي الهـوى مقـداره	فـي أهلـه وعلمـت أنـي عاشـق

ثم ردد هذا المعنى فلي داليته الجميلة ، التي يقول فيها:

دعا عبرتي تجري على الجوار والقصد	أظـن نسـيما قـارف الهجـر مـن بعـدي
خلا نـاظري مـن طيفـه بعـد شخصـه	فيـا عجبًـا للـدهر فقـدًا علـى فقـد
بنفسـي حبيـب نقلـوه عـن اسـمه	فبـات غريبًـا فـي رجـاء وفـي سـعد
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تحل	وإن جهـد الأعـداء عـن ذلـك العهـد
أبا الفضل في تسع وتسعين نعجة	غنـى لـك عـن ظبـي بسـاحتنا فـرد
أتأخـذه منـي وقـد أخـذ الجـوى	مآخـذه ممـا أسـر ومـا أبـدى
وتخطـو إليـه صـوتي وصـبابتي	ولـم يخطبـه بشـى ولـم يعـده وجـدي

ونحنـب أن لا يتعقنـا حضـرة (البـدوي الملـثم) فيطالبنـا بتحقيـق بيـع البحتري لغلامـه نسيم ، ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان طمعًا في المال ، فقد تردد في ذلك المؤرخون ! أليس هو الذي لمح إلينا حين ذكرنا أن علية بنت المهدي كنت عن طل بزينب ، ولفت نظرنا إلى أنها إنما كنت بزينب عن رشأ ؟ رويدك أيها الصديق ، فليس في هذه المجاهل يقين ، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من أسرار القصور ، وناهيك بقصر الرشيد !

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث «شربوا نخب مصر ! وشربوا نخب فرنسا» كان له عند العرب بديل جميل ، انظر قول علية في غلامها رشأ:

أشـــرب علـــى وجـــه الغـــزال	الاهيـــــفِ الحلـــــو الـــــدلال
أشـــرب عليـــه وقـــل لـــه	يـــا غـــل ألبـــاب الرجـــال

وانظر قول اسحق في غلامه زياد:

ادِرهـا علـى بعـد الحبيـب فربمـا	شـربنا علـى بُعـد الأحبـة والفجـع
فمـا بلغتنـي الكـأس إلا شـربتها	وألا سـقيت الأرض كأسًـا مـن الـدمع

وقال ابن الفارض:

شـربنا علـى ذكـر الحبيـب مدامـة   سـكرنا بهـا مـن قبـل أن يخلـق الكـرم

فاي التعبيرين أجمل ؟ أقول العرب: شربت على وجهه ، وعلى بعده ، وعلى ذكره ؟ أم قولنا شربت نخبه ؟ أجيبوا أيها المتكلفون !

ونعود فنذكر تشبث البحتري بالطيف عند الصباح في قوله:

وليلة هـو منـا على العيس أرسلت   بطيــف خيــال يشــبه الحــق باطلــه

فلـولا بيـاض الصـبح طـال تشـبثي   بعطفــي غــزال بــت وهنًــا أغازلــه

وكـم مـن يـدل لليـل عنـدي حميـدةٍ   وللصــبح مــن خطــب تُــذم غوائلــه

أتذكر أيها القاريء أن لسانك انعقد ، وقد رأيت دمية من دمي الجمال ، فلم تزد علي إن قلت: هذه فتاة حسناء ؟ الأمر هنا كذلك ، فاعذرني إن لم أزد على أن أقول: هذا شعر جميل !

ويظرف البحتري كثيرًا حين يجعل هجر الطيف نوعًا من العتاب. انظر قوله:

تنـــاءت دار علـــوة بعـــد قـــربٍ   فهـــل ركـــبٌ يبلغهـــا الســـلاما

وجـــدد طيفهـــا عتبًـــا علينـــا   فمـــــا يعتادنـــــا إلا لِمامـــــا

وربـــت ليلـــةٍ قـــد بـــت أســـقي   بعينيهـــــا وكفيهـــــا المـــــداما

قطعنـــا الليـــل لثمـــا واعتناقًـــا   وأفنينــــــاه ضـــــما والتزامـــــا

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق: انظر قوله:

وزورٍ أنـــاني طارقًـــا فحســـبته   خيـالاً أتـى مـن آخـر الليـل يطـرق

أقســم فيــه الظــن طــورًا مكــذبًا   بـــه أنـــه حـــق وطـــورًا أصـــدق

أخـاف وأرجـو بطـل ظنـي وصـدقه   فللـــه ظنـــي حـــين أرجـــو وأفـــرق

وقـد ضـمنا وشـك التلاقـي ولفنـا   عنـــاقُ علـــى أعناقنـــا ثـــم ضـــيق

فلـم نـر إلا مخبـرًا عـن صـبابةٍ   بشـــكوى وإلا عبـــرة تترقـــرق

فأحسـن بنـا والـدمع بالـدمع واشـج   تمازجُـــه والخـــد بالخـــد ملصـــق

ومـن قبـل قبـل التشـاكي وبعـده نكـاد بهـا مـن شـدة الوجـد نشـرق
فلـو فهـم النـاس التلاقـي وحسـنه لحبيـب مـن أجـل التلاقـي التفـرق

وقد يأسى البحتري ويشجعي حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال ، تأمل لقوله:

حبيـب نـأى ألا تعـرض ذِكـرةٍ لـه أو علـم طـائف مـن خيالـه
أمنـع فـي هجرانـه مـن صـبابة وقـد كنـت صـبًا مغرمًـا فـي وصـاله
ويـأمرني بالصـبر مـن لـيس وجـده كوجـدي ولا اعـلان حـالي كحالـه
فإن افقد العيش الذي فات باللوى فقـدمًا فقـدت الظـل عنـد انتقالـه

ولقد اذكر أني قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهي بدعة في الآداب الفرنسوية. فأقسمت لأزورن إن استطعت قبر (لامارتين) واليوم أقسم إن استطعت لأزورن قبر البحتري !

أليس هو القائل في طيف الخيال:

أتـرى حبـي لسـعدي قـاتلي وإذا مـا أفـرط الحـب قتـل
خطـرت فـي النـوم منهـا خطـرةٌ خطـرة البـدر بـداثم اضـمحل
أي زور لـك لـو قصـدًا سـرى وملـم منـك لـو حقًّـا فعـل
يتـراءى والكـرى فـي مقلتـي فـإذا فارقهـا النـوم بطـل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها ببيتين في الخيال ، وقد زاره فما حققه لفرط سروره به ، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه ، ولا عرف كيف يلحقه. قال:

أنعـم بوصـلك لـي فهـذا وقتـه يكفـي مـن الهجـران مـا قـد ذقتـه
أنفقـت عمـري فـي هـواك وليتنـي أعطـي وصـولاً بالـذي أنفقتـه
يـا مـن شُـغلتُ بحبـه مـن غيـره وسـلوت كـل النـاس حـين عشـقته
كـم جـال فـي ميـدان حبـك فـارس بالصـدق فيـك إلـى رضـاك سـبقته
أنـت الـذي جمـع المحاسـن وجهـه لكـن عليـه تصـبري فرقتـه
قـال الوشـاة قـد ادعـى بـك نسـبة فسـررت لمـا قلـت قـد صـدقته

بـالله إن سـألوك عنـي قـل لهـم عبـدي وملـك يـدي ومـا اعتقتـه
أو قيـل مشـتاقٌ إليـك فقـل لهـم أدري بـذا وأنـا الـذي شـوقته
يـا حسـن طيـف مـن خيالـك زارنـي مـن فرحتـي بلقـاك مـا حققتـهُ
فمضـى وفـي قلبـي عليـه حسـرةٌ لـو كـان يمكننـي الرقـاد لحقتـه

والشعراء يشكون غالبًا ألا يمكث الطيف طويلاً. وقد شذ الطغرائي فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده ، وطول مكثه لديه. وذلك قوله:

بعثـت إلـي تلـومني فـي هجعـةٍ اهـدت إلـى خيالهـا المـذعورا
وتقـول مـا للطيـف أبطـأ بعـدما كنـا اشـترطنا لائـم معـذورا
فأجبتهـا بالعـذر وهـو مبـين لـو كـان يُنصـف لائـم معـذورا
أطبقـت أجفـاني عليـه وسـمته خـوض الـدموع فمـا اسـتطاع عبـورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد. فإن الطيف لا يدخل العين ، حتى يضطر إلى عبور الدمع ، وهدى الله قومًا يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال !

قالوا: وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله:

فقـل لخيـال العامريـة ينقلـب إليهـا فـإني واصـل حبـل مـن وصـل

وتبعه جرير فقال:

طرفتـك صـائدة القلـوب ولـيس ذا وقـت الزيـارة فـارجمي بسـلام

وهذا حرس ةخمين ، فإنه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل.

ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانيء الأندلسي:

ألا طرقتنـا والنجـوم ركـود وفـي الحـي أيقـاظٌ ونحـن هُجـود
وقـد أعجـل الفجـر الملمـع خطوهـا وفـي أخريـات الليـل منـه عمـود
سرت عاطلاً غضبى من الدر وحده فلـم يـدر نحـر مـا دهـاه وجيـد
فمـا برحـت ألا ومـن سـلك ادمعـي فلائـد فـي لباتهـا وعقـود
ألـم يأتهـا أنـا كبرتـا عـن الصـبا وأنـا بلينـا والزمـان جديـد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال.

انظر قول علي الأيادي:

أمـا أنـه لـولا الخيـال المراجـع وعـاصٍ يُـرى فـي النـوم وهـو مطـاوع
لأشـفق واسـتحيا مـن النـوم والـه يُرى بعـد روعـات النوى وهـو هـاجع

وأود لو تأمل القاريء قوله (وعاص يرى في النوم وهو مطاوع) فطالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون !

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله:

وإنـي لأستغشـي ومـا بـي نعسـة لعـل خيـالاً منـك يلقـي خياليـا
وأخـرج مـن بـين الجلـوس لعلنـي أحـدث عنـك النفس في السر خاليًا
تُقطـع أنفاسـي بـذكرك أنفسًـا يـردن فمـا يـرجعن إلـى صـواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح:

وأني لأهوى النوم في غير نسعةٍ لعـل لقـاءً فـي المنـام يكـونُ
تخبرنـي الأحـلام أنـي أراكـم فيـا ليـت أحـلام النيـام يقـين

والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوى بين العشاق جميعًا. فهي عند بعضهم لوعة وغليل ! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين يقول:

ومـاذا يفيـدك الخيـال والهجـر حظـك ممـن تحـب
غنـاءٌ قليـل ولكننـي تمنيتـه بقنـوع المحـب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال ، كأن يزوره الطيف وهو سجين ، كقول جعفر بن عُلبة:

عجبـت لمسـراها وأنـى تخلصـت غلـى وبـاب السـجن دونـي مغلـق
ألمـت فحيـت ثـم قامـت فودعـت فلمـا تولـت كـادت الـنفس تزهـق

فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم لشيءٍ ولا أني من الموت أفرق
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدهم ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صبابة كما كنت ألقي منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمل فعجب كيف زاره طييف حبيبته مع أنها ضعيفة المشي مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة:

زارت رويقة شعثًا بعدما هجعوا لدي نواحل فقي أرساغها الخدم
وقمت للزور مرتاعًا فأرقني فقلت أهي سرت أم عادني حلم
وكان عهدي بها والمشي يبهظها من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم
سود ذوائبها ببعض ترائبها دُرم مرافقها في خلقها عمم
رويق إني وما حج الحجيج لهُ وما أهل يجنبي نخلة الحرم
لم ينسني ذكركم مُذ لم ألاقكم عيش سلوت به عنكم ولا قدم
ولم تشاركك عندي بعد غانية لا والذي أصبحت عندي له ذمم

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن عنين.

سامحت كتبك في القطيعة عالمًا إن الصحيفة أعوزت من حامل
وعذرت طيفك في الجفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل

وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف:

لقد بخلت حتى بطيف خيالها علي وقالت رحمة لنحيبي
أخاف على طيفي إذا جاء طارقًا وسادك أن يلقاه طيف رقيبي

طرف أدبية

وقد يكون من المستملح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف الخيال. فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل:

رأيت في النوم إني راكب فرسًا	ولي وصيف وفي كفي دنانير
فقال قوم لهم فهم ومعرفة	رأيت خيرًا وللأحلام تعبير
رؤياك فسر غدًا عند الأمير نجد	في الحلم دارًا وفي النوم التباشير

فوقع في أسفل الكتاب «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين» !! ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده:

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ	في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتني بوليدة	رعبوبة حسن علي قيامها
وببدرةٍ حُملت إلي وبغلةٍ	دهماء مشرقة يصل لجامها
فدعوت ربي أن يثيبك جنة	عوضًا يصيبك بردُها وسلامها

فقال له: أبشر في كل شيء إلا البغلة فإني لا أملك إلا شهباء ! فقال: امرأتي طالب إن كنت رأيتها إلا شهباء غير أني غلطت !

ونقل عن أبي العبر أنه كان عنده حمار فمات فرآه في النوم ينشد شعرًا يقول فيه أنه مات عاشقًا ، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه ؟ فقال: كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة ، ليس له هفوة ولا زلة ! فاعتل على حين غفلة ، فمات ، فرأيته في النوم فقلت له. ألم أنق لك الشعير وأبرد لك الماء ، فما سبب موتك ؟ فقال أتذكر إذ وقفلت على باب الصيداني ؟ قلت نعم ، قال مرت إذ ذاك أتان فافتتنت بها ومت ؟ فقلت وهل قلت شيئًا في ذلك ؟ فقال نعم وأنشد:

هام قلبي بأتان	عند باب الصيدلاني
تيمتني يوم رُحنا	بثناياها الحسان

وبخـــــــــــــدٍ ذي دلال　　مثـــــل خـــــد الشـــــيقران
فبهـــا مـــت ولـــو عشـــ　　ـــــت إذًا طـــال هـــــواني

فقال له يا أبا معاذ. وما الشيقران ؟ فقال أنا مشغول بما أنا فيه ! وهذا كلام تعرفه الحمير ! فإذا رأيتم حمارًا ، أو من كان أولاً حمارًا ، فاسألوه ! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، جزاء بما أبدع في هذا الخيال.

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء ، وليس فيهم من لم يرزأ باليأس والقنوط.

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس ، فرأيت منهم من يترك لأجله العتاب كقول ابن الأحنف:

سكوتي بلاء لا أطيق احتماله ... وقلبي ألوف للهوى غيرُ نازعِ
وأقسم ما تركي عتابك عن قلي ... ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعًا ... فلابد منه مكرهًا غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعة ... فلا خير في ودٍ يكون بشافع

وقد عزى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله:

لعمري لقد جلبت نظرتي ... إليك علي بلاءً طويلا
فيا ويح من كلفت نفسهُ ... بمن لا يطيق إليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء ... فعز الفؤاد عزاءً جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

وإني لأتمنى أن يرحمني الله من عذابي ، بترديد هذا البيت الجميل:

فيا ويح من كلفت نفسه ... بمن لا يطيق إليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر:

لا أمدح اليأس ولكنه ... أروح للنفس من المطمع
ياليت إني قبل وقد الهوى ... أذنت للعذلِ على مسمعي
أين بدور من بني دارمٍ ... تبخل أن تسفر في مطلعِ
لا في سرار الشهر تبدولنا ... ولا ليالي العشر والأربع
أودعتم قلبي وما خلتهم ... يستحسنون الغدر بالمودع

لــو زارنـــي طـــيفهم مـــا درى مــن الضـــنى أنــي فــي مضـــجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه ، بيأسه وقنوطه. ولم أجد في هذا المعنى أبدع من قول الطغرائي:

من مبلغ الحي شطت دراهم ورضوا بالجـار جـارًا ومـا أرضـى بهـم عوضـا

قد طاب عنكم فؤاد طاب قبلكم عـن الرضـاع تقضـي والشـباب مضـي

إن الزمـان الـذي كانـت بشاشـته للقلـب والعـين ملهـي بـان فانقرضـا

فـإن نسـيت فيـأس لـم يـدع طمعًـا وإن ذكـــرت فعـــرق ســـاكن نبضـــا

حكمت في مهجتي من ليس ينصفني ولســت أبلــغ مــن تحكيمــهِ غرضـا

سيان عنـدي وأمري صـار في يـده قضـــى علـــي بجـــورٍ أم إلـــي قضـــى

وليس بعد اليأس إلى الرجاء ، وإن عجب لذلك بعض الناس. فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحًا لنفسه ، وترفيهًا لقلبه ، كالذي يقول:

أعلـــلُ بـــالمنى قلبـــي لعلـــي أروح بالأمــــاني الهـــــم عنـــــي

واعلــم أن وصـــلك لا يرجـــى ولكـــن لا أقـــل مـــن التمنـــي

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعد الحزين كما قال ياقوت:

لله أيــــام تقضــــت بكــــم مــــا كــــان أحلاهــــا وأهناهــــا

مــرت فلــم يبــق لنــا بعــدها شــــيء ســــوى أن نتمناهــــا

ويكاد الأمل يصرخ في قول مسلم بن الوليد:

دهـرًا تـولى هـل نعيمـك مقبـل وهـل راجـع مـن عيشـنا مـا نؤمـل

أدهـرًا تـولى هـل لنـا منـك دعـوة لعلـــك يُعـــدى آخـــرًا منـــك أول

واوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق:

لأصــــبرن لــــدهر لا يمتعنــــي بـــه ولا بـــي فـــي حـــال يمتعـــه

علمًـا بـأن اصـطباري معقـب فرجًـا فأضــيق الأمــر لــو فكــرت أوســعه

عـلّ الليـالي التـي أضـنت بفرقتنـا جســمي ســتجمعني يومًــا وتجمعــه

ولو سئلت عن رأيي في اليأس والرجاء ، لقدمت لسائلي هذه الدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة «يا ربي ! إنني ما جحدت نعمتك يوم رزقتني بهم ، ولا جهلت حكمتك يوم اقصيتهم عني ، وهأنذا انتظر فضلك وطولك ، في ردهم إليّ ، وعطفهم عليّ. فلولا الثقة برحمتك ، والإيمان بإحسانك ، لذهبت النفس عليهم حسرات. وقطع القلب في آثارهم قطعًا».



العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل ، بادي الخضوع ، نزولاً عند حكم الهوى ، وإيمانًا بعودة الحبيب ، كقول القائل:

يـا غايـة القصـد وأقصـى المنـى ... وخيـــر مرعـــى مقلـــة النـــاظر
إن كـان لـي ذنـب ولا ذنـب لـي ... فمـــا لـــه غيـــرك مـــن غـــافرِ
أعـــوذ بـــالود الـــذي بيننـــا ... إن يفســـــــد الأول بـــــــالآخر

وحسبك من موجب العطف ، ودواعي الرحمة ، أن يتوسل المحب بسالف حبه ، وماضي عهده ، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه.

وقال ابن التعاويذي:

يا ابنة القوم كيف ضاعت عهودي ... بيـــنكم والوفـــاء فـــي العـــرب ديـــن
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشـ ... ـــجان لـــولا أن الغـــرام جنـــون
أترينـــي علـــى النـــوى مضـــمرًا عنـ ... ـــك ســـلوًا أنـــي إذن لخئـــون
أنا من قد علمت عهدي على النأ ... ي وثيـــــق وحبـــــل ودي متـــــين

ولا يكون العتاب بابًا للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة ، كقول ابن زيدون:

يـــا قمـــرًا اطلعـــه المغـــرب ... قـــد ضـــاق فـــي حبـــك المـــذهب
ألزمتنـــي الـــذنب الـــذي جئتـــه ... إلـــي فاصـــفح أيهـــا المـــذنب

وكقول الآخر:

إذا مرضـــتم أتينـــاكم نعـــودكم ... وتـــــذنبون فنـــــأتيكم فنعتـــــذر

فأما قول البحتري:

قـد كـان منـي الوجـد غِـب تـذكرٍ ... إذ كـــان منـــك الصـــدغب تناســـي
تجري دموعي حيث دمعك جامد ... ويـــرق قلبـــي حيـــث قلبـــك قاســـي

فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب ، وخير منه قول البحتري نفسه في كلمة ثانية:

إنــي وإن لــم أبــح بوجــدي أُسِــرُّ فيــك الــذي أســرُّ
يــا ظالمًــا لــي بغيــر جــرم إليــك مــن ظلمــك المفــر
أنــت نعيمــي وأنــت بؤســي وقــد يســوء الــذي يســرُّ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعًا:

أيــا قمــر التمــام أعنــت ظلمًــا علــي تطــاول الليــل التمــام
أمــا وفتــور لحظــك يــوم أبقــى تقلبــهُ فتــورًا فــي عظــامي
لقــد كلفتنــي كلفًــا أعنــي بــه وشــغلتني عمــا أمــامي
أعيــذك أن يُــراق دم حــرامٌ بــذاك الــذل فــي شــهر حــرام

ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال ، وأتمنى لو تأمل القاريء قليلاً هذا البيت الجميل:

يــا ظالمًــا لــي بغيــر جــرم إليــك مــن ظلمــك المفــرُّ

فإنه خير من قول ابن زيدون:

ألزمتنــي الــذنب الــذي جئتــه إلــي فاصــفح أيهــا المــذنب

وهل رأي القاريء ، أروح للنفس ، وأمتع للقلب ، من هذا القسم:

أمــا وفتــور لحظــك يــوم أبقــى تقلبــه فتــورًا فــي عظــامي

وهل رأى حيرة للحب أشقى من حيرة الذي يقول:

لقــد كلفتنــي كلفًــا أعنــي بــه وشــغلتني عمــا أمــامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية ، يعلمون ما نعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يجنون على أنفسهم ، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من التطلع إلى جنة الأدب ، وقطفوها الدانية ! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت:

إنــي وإن لــم أبــح بوجــدي أســر فيــك الــذي أســرُّ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين ، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى إلى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزًا عن الكتابة باللغة التي رحبت بثمرات العقول في جميع الأمم الإسلامية ، وكانت لغة العالم زمنًا غير قليل.

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن في الأدب لا حد له ولا تعريف ، بل هناك حقائق أدبية يرتكز عليها الجمال. في الشعر البديع والنثر الجميل ، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه أن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيذانًا بالتفخيم والتهويل ، كلفضة «ما» في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على أن ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف ، ويعجز عنه التمثيل ، ومنها قول البحتري:

برح بي حبك المعني وغرني منك ما يغر

إذا كانت دواعي الحب ، وأسباب العشق ، مما يقصر عن إدراكه المحب المفتون ن والعاشق المأسور !

ومن ذلك لفظة «الذي» في هذا البيت المختار:

إني وإن لم أبح بوجدي أسر فيك الذي أسر

إيذانًا بأن ما يجنه من اللوعة ، وما يكنه من الشوق ، أجل من أن يحيط به الوصف ، أو يناله البيان !

ومن العشاق من يضيف إلى ذلة العتاب ، ذلة الإقرار بالذنب كقول الشريف:

أيا شاكيًا مني بذنب جنيته فديتك من شاكٍ إليّ حبيبِ
لئن راب مني ما يريب فإنني على عدواء الداء غير مريب
وإني لأرعى منك والود بيننا هوى قلما يرعى بظهر مغيب
فهب لي ذنبًا واحدًا كنت قلته فما زلة من حازم بعجيب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنبا أتوب وما دامت تعد ذنوبي

والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار:

ومن ذا الذي تُرضي سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعدّ معايبه

ومن بديع الشعر في وصف العتاب ، وما فيه من ذلة العاشق ، وعزة المعشوق قول الشريف:

ومقبل كفي وددت لو أنه أو ما إلى شفتي بالتقبيل
جاذبته طرف العتاب وبيننا كبر الملول وذلة المملول
ولحظت عقد نطاقه فكأنما عُقد الجمال بقرُطقٍ محلول
جذلان ينفض من فروج قميصه أعطاف غصن البانة المطلول
من لي بد والدار غير بعيدة من داره والمال غير قليل

وقوله:

ومقبل كفي وددت لو أنه أو ما إلى شفتي بالتقبيل

يذكرنا بقول الصاحب بن عباد:

أهوى لتقبيل يدي فقلت. بل شفتي !

وحيرة أمثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في أمثال هذه المواقف حيرة رهيبة، فكلا الرجلين عالم جليل ، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد ، والحصن المنيع ، وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضي بتقبيل يمناه ، فيود هذا لو قبل شفتيه ، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالمظمة ، وقضى عليه بتقديس الجمال ! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه: حين يذهب بوقار العلم ، وجلال الجاه ، وغرور المال ، ثم يسوي بين الأقدار ، ريثما ينسى العالم علمه ، والوجيه جاهه ، والغني ماله، حتى إذا أنِست تلك النفوس العاتيه إلى هذه المساواة ، عاد فميز أهل الحسن ، ورفع أرباب الجمال ، وصير المحبين أذلة ، بالرغم من أنف العلم والجاه والمال ! ويقول العرب: الهوى إله معبود ، وأنهم لصادقون. غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم ، ولكنه قهار جبار ! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان ، ولبينت للقاريء

لأي الفلاسفة في مملكة الجمال ، ولكن الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور: يودي به مر الطيف وهبوب النسيم ! والذين يختلفون في النظرة البريئة أحرام هي حلال ، لا يعقلون كيف يكوي الهوى إلهًا ، وكيف يكون له ملائكة مقربون ، من الشعور والعيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور والصدور ، وهم أن عقلوا هذه الألوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون ، بل كل محب عندهم ماجن خليع ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله:

جاذبته طرف العتاب وبيننا   كِبر الملول وذلة المملول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق ، الذي تحدثه عن هجره وصده ، فكأنما تُسمعه هجر القول ولغو الحديث ، فيتبرم ويتململ ، ويود لو أرحته من حديث الحب: إذ كان الحسن يسد إذن الجميل ، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب ، وما أبدع الغزل في قوله:

جذلان ينفض من فروج قميصه   اعطاف غصن البانه المطلول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم يذكر الشريف الرضي إلا ذكر له هذا البيت ، وله فيه تأويل عجيب ! ولعل ابرع ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال ، قوله في هذا البيت المختار:

من لي به والدار غير بعيدةٍ   من داره والمال غير قليل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه كان يشكو بعد الدار ، وقلة المال:

فدع ذكر سُعدى إن فيك تقيةً   ألا إنما يبغي ألمها من يصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس ، وعذل للقلب ، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء ، فمن ذلك قول بعض الأعراب:

أحبًا علـى حـبٍ وأنـت بخيلـةٌ   وقـد زعمـوا أن لا يُحـب بخيـل

بلـى والـذي حـج الملبـون بيتـه   ويشـفي الهـوى بالنيـل وهـو قليـل

وإن بنـا لـو تعلمـين لغلـة   إليـكِ كمـا بالحائمـات غليـل

وقد يعكس هذا المعنى ، فيحب العاشق ظلم معشوقة ، ويحب من أجل ذلك أعداءه الظالمين ، كقول أبي الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس   متـأخر عنـه ولا متقـدم

لـــي   حبًـا لـذكرك ليلمنـي اللـوم

أجـد الملامـة فـي هـواك لذيـذة   إذ كـان حظـي منـك حظـي مـنهم

أشـبهت أعـدائي فصـرت أحـبهم   مـا مـن يهـون عليـك ممـن أُكـرم

واهنتنـي فأهنـت نفسـي صـاغرًا

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلايا ، كقول ابن الدمينة:

وأنـت التـي كلفتنـي دلـج السـرى   وجـون القطـا بـالجلهتين جثـوم

وأنـت التـي قطعـت قلبـي حـزازة   وفرقـت قـرح القلـب فهـو كلـيم

وأنـت التي أحفظـت قـومي فكلهـم   بعيـد الرضـا دانـي الصـدود كظـيم

وقد أجابته محبوبته أمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة الوشاة ، وشماتة اللائمين ، حين تقول:

وأنـت الـذي أخلفتنـي مـا وعـدتني   واشـمت بـي مـن كـان فيـك يلـوم

وأبرزتنـي للنـاس ثـم تركتنـي   لهـم غرضًـا أرمـى وأنـت سـليم

فلو أن قولا يكلم الجسم قد ابدا   بجسـمي مـن قـول الوشـاة كلـوم

وقد ضعف ابن الدمينة عن مجاراتها في قسوة العتاب ، فبعث إليها الأبيات الآتية ، يسألها الصفح والغفران:

وإذا عتبتِ علي بت كأنني ... بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد أردت الصبر عنك فعاقني ... عَلَقٌ بقلبي من هواك قديمُ
يبقى على حدث الزمان وريبه ... وعلى جفائك إنه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة ، فيذكر أحبابه بأن الحياة قصيرة ، لا تتسع للصد ، ولا تحتمل الهجر ، كقول الطغرائي:

ويا رفقة مرت بجزعاء مالك ... تؤم الحمى أنضاؤها المطايا
نشدتكم بالله ألا نشدتم ... بها شعبة أضللتها من فؤاديا
وقلتم لحي نازلين بقربها ... أقاموا بها واستبدلوا بجواريا
رويدكم لا تسبقوا بقطيعتي ... صروف الليالي إن في الدهر كافيا

وأصل هذا المعنى لا يأس بن القائف إذ يقول:

إذا زرت أرضًا بعد طول اجتنابها ... فقدت صديقي والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر ما دمتا معًا ... كفى بالممات فرقة وتنائيا

وقد كان سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن العتاب:

أقلل عتابك فالبقاء قليل ... والدهر يعدل تارة ويميل
لم أبك من زمن ذممت صروفه ... إلا بكيت عليه حين يزول
ولكل نائبة ألمت مدة ... ولكل حال أقبلت تحويل
والمنتمون إلى الأخاء جماعة ... إن حصلوا أفناهم التحصيل
فلئن سبقتُ لتبكين بحسرةٍ ... وليكثرن علي منك عويل
ولتفجعن بمخلص لك وامقٍ ... حبل الوفاء بحبله موصول
ولئن سبقت ولا سبقت ليمضين ... من لا يشاكله لدي خليل
وليذهبن بهاء كل مروءةٍ ... وليفقدن جمالها المأهول
وأراك تكلف بالعتاب وودنا ... باقٍ عليه من الوفاء دليل
ولعل أيام الحياة قصيرة ... فعلام يكثر عتبنا ويطول

على أن الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالي ، لم يمنعه من أن يصرخ شاكيًا في نفس القصيدة. فيرمي أحبابه بالخيانة والنسيان ، وذلك قوله:

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم   وإن ديـــوني باقيـــات كمـــا هيـــا
فلـوا أسـفي ، حتـام أرعـى مضـيعًا   وآمـــن خوانًـــا وأذكـــر ناســـيا
ومـازال أحبـابي يسـيئون عشـرتي   ويحفـونني حتـى عـذرت الأعاديـا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام:

أحبابَـــه لِـــمَ تفعلـــون بقلبـــه   مـــا لـــيس يفعلـــه بـــه أعـــداؤه

وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال:

أأحبابنـا كـم تجرحـون بهجـركم   فـؤادًا يبيـت الليـل بـالهم مكمـدا
إذا رمـــتم قتلـــي وأنـــتم أحبـــةٌ   فمـا الـذي أخشـى إذا كنـتم عـدا
سأضمر في الأحشاء منكم تحرقًا   وأظهـــر للواشـــين عـــنكم تجلـــدا
وأمنـع عينـي اليـوم إن تكثـر البكـا   لتسـلم لـي حتـى أراكـم بهـا غـدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة أبو صخر الهذلي في هذه الأبيات الموجعة:

بيـد الـذي شـغف الفـؤاد بكـم   تفرجـــي مـــا ألقـــى مـــن الهـــم
قـد كـان صـرم فـي الممـات لنـا   فجعلـــت قبـــل المـــوت بالصـــرم
ولمـــا بقيـــت ليبقـــين جـــوى   بـــين الجـــوانح مضـــرع جســـمي
فتعلمـــي أن قـــد كلفـــت بكـــم   ثـم افعلـي مـا شـئت عـن عِلـم

وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا أراه إلا زفرة تتصعد ، أو عبرة تتدفق:

وأرى الأيـــام لا تـــدني الـــذي   أرتجـــي منـــك وتـــدني أجلـــي !!

ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة ، يرمي بها المحب العميد ، قول الشريف يعاتب حبيبًا أغراه بالحب ، ثم أصلاه الصدود:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتفى ألم الجوى من قلبي المصدوع
أأسأت بالمشتاق حين ملكته وجزيت فرط نزاعه بنزوع
هيهات لا تتكلفن لي الهوى فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبت لك الحبائل طامعًا فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي أسفًا على ذاك اللمى الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلةٍ جرعته في طولها غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجي ما بيننا حتى أضاء بثغره ودموعي
تفلي أنامله التراب تعللاً وأناملي في سني المقروع
قمر إذا استخجلته بعتابه لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره شر الهوى ما نلته بشفيع
أهون عليك إذا امتلات من الكرى أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة ، وبينهما وبين موضوعها بون شاسع ، وهما قوله:

ما كان إلا قبلة التسليم أر دفها الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وإنما تاريخ وصلك كان مذ اسبوع

فإن هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم ، والتنافر بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما بهذا البيت الجميل:

أهون عليك إذا امتلأت من الكرى إني أبيت بليلة الملسوع

فإنه يدل على أن الحبيب غير بعيد ، وأنه في قربه نافر شرود ، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية:

أبيت والليل مثبوت حبائله ... والوجد يقنص مني كل مجلود
شوقًا إليك وإشفاقًا عليك ولي ... دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به ... أن القريب قريب غير مودود

وإما أردنا هذه الملاحظة ليتنبه القاريء إلى أن في الدواوين أشياء كثيرة نسبت زورًا إلى الشعراء ، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص. والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب ، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار:

لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عزه وخضوعي

والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليمنى في المجون:

ونافر الأعطاف عاملتهُ ... باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافه ... ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجلٍ مطرقًا ... وكل إعراض له آخر
عجبت من ذلي ومن عزه ... في موقفِ عاذلهُ عاذر
في ليلةٍ ساهرها نائمٌ ... فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا الـ ... ـجو إلى أن وقع الطائر
فبتُّ من فرط اغتباطي به ... أظن أني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يجيد الشعر في العتاب ، وهو صاحب هذه الأبيات المختارة:

خذ في أفانين الصدود فإن لي ... قلبًا على العلات لا يتقلب
أتظنني أضمرت بعدك سلوة ... هيهات عطفك من سلوي أقرب
قد كنت تنصفني المودة راكبًا ... في الحب من أخطاره ما أركب
فاليوم أقنع أن يمر بمضجعي ... في النوم طيف خيالك المتأوب

وهو أيضًا صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين:

يـــا نازحًـــا لـــيس يـــدنو وعاتبًـــا لـــيس يرضـــى
يـــا واجـــدًا وديـــوني فـــي حبـــه لـــيس تقضـــي
أمـــرت عينـــي ففاضـــت ومضـــجعي فأقضـــا
أرقـــد هنيئًـــا فـــإني مـــا ذقـــت بعـــدك غمضـــا

ومن الظلم للعواطف أن لا نفصل مذهب العباس بن الأحنف في العتاب ، فإن شعره آيه الآيات في الشكوى من الهجر ، والتوجع من الصدود ، وهو مع هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه ، ويقول:

واحسن أيام الهوى يومك الذي تُروع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضًا فأين حلاوات الرسائل والكتب

ولكن هذا أمل بعيد ، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب ، وصحف الهوى ، وكذلك رزيء ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه ، ويمزق رسائله ، وفي هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية:

وصـالك مظلـم فيـه التبـاس وعنـدك لـو أردت لـه شـهاب
وقـد حملـت مـن حبيـك مـا لـو تقسـم بـين أهـل الأرض شـابوا
أفيقـي مـن عتابـك فـي أنـاسٍ شـهدت الحـظ مـن قلبـي وغـابوا
يظـن النـاس بـي وبهـم وأنـتم لكـم صـفو المـودة والبـاب
وكنـت إذا كتبـت إليـك أشـكو ظلمـت وقلـت لـيس لـه جـواب
فعشـت أقـوت نفسـي بالأمـاني أقـول لكـل جامحـةٍ إيـاب
وصـرت إذا انتهـى منـي كتـاب إليـك لتعطفـي نبـذ الكتـاب
وإن الـود لـيس يكـاد يبقـى إذا كثـر التجنـي والعتـاب
خفضـت لمـن يلـوذ بكـم جنـاحي وتلقـوني كـأنكم غِضـاب

وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى ، وهو صاحب هذا البيت الحزين

ويقنعنـي ممـن أحـب كتابـه ويمعنيـهِ ، إنـه لبخيـلُ !

وكثيرًا ما يميل ابن الأحنف إلى الصفح الجميل ، إذ يرى العتاب لا يعطف القلوب ، إن لم تضمر الحنان. وقد أفصح عن ذلك في هذه الأبيات:

انكر الناس ساطع المسك من دجـ ـــلة قـــد أوســـع المشـــارع طيبـــا
فهمــو يعجبــون منــه ومــا يــدرو ن أن قـــد حللـــت منـــه قريبـــا
قاســـميني هـــذا الـــبلاء وإلا فــاجعلي لــي مــن التعــزي نصــيبا
أن بعـض العتـاب يـدعو إلـى العتـ ـــب ويــؤذي بــه المحــب الحبيبــا
وإذا مـا القلـوب لـم تضـمر العـط ـــف فلــن يعطــف العتــاب القلوبــا

وما أجمل العزة في قوله:

خفضـت لمـن يلـوذ بـك جنـاحي ويمعـــن وتلقـــوني كـــأنكمُ غضـــابُ

وقوله:

خفضت طرفي لأدنى من يلوذ بكم حتــى احتُقـرت ومــا مثلــي بمحتَقِـر

وأي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصبابة ؟ ومتى عرف الهوى قيمة العزة في نفوس الأعزاء ، فعصمها عن مدارة قوم يحيطون بالجمال ، أحاطة الأشواك بالورود ؟ وقد نـرى ابـن الأحنـف يائسًـا مـن نفـع العتـاب ، فنقـرأ لـه هـذه الأبيـات فـي التبـرم بالسكوت:

ســكوتي بــلاء لا أطيــق احتمالــه شـهي وقلبـي الـوف للهـوى غيـر نـازع
فأقسـم مـا تركـي عتابـك عـن قلـى ولكـــن لعلمـــي أنـــهُ غيـــر نـــافع
وأنــي إذا لــم ألــزم الصــبر طائعًــا فلابـــد منـــه مكرهًـــا غيـــر طـــائع
إذا أنــت لــم يعطفــك إلا شــفاعة فــلا خيــر فــي ودٍ يكــون بشــافع

وربما رأيناه زاهدًا في العتاب ، لأن محبوبته لا تصد صد العاتب ، بل صد الملول وذلك قوله:

لــو كنــتِ عاتبــة لســكن لــوعتي أملــي رضـــاك وزرت غيـــر مراقـــبِ
لكـن مللـتِ فلـم تكـن لـي حيلـة صــد الملــول خــلاف صــد العاتــب

مـا ضـر مـن قطـع الرجـاء ببلخلـه　　لــو كـــان عللنــــي بوعـــدٍ كـــاذب

على أن ابن الأحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب ، بل رأيناه يعجب بنصره في الحب ، وقهره لقلوب الحسان ، أليس سعيدًا من يقول:

يــا رب جاريـــةٍ أســلبتُ عبرتهــا　　مـــن رقـــة ولغيـــري قلبهـــا قاســـي
كم من كواعب ما ابصرن خط يدي　　إلا تمنـــــين أن يـــأكلن قرطاســـــي

وكان البها زهير ، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالي ، من أرق الشعراء في العتاب ، حتى لتحسب شعره نجوى بين المحب والحبيب ، أو رنين الحلى عند عناق الحسان ، أو خفوق الأمل في قلب اليائس المحزون. انظر إلى اعتذاره عن محبوبه ، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل:

مـــولاي مــــن ســـكر الـــدلا　　لعبثـــــت والســـــكران عابـــــث
ونكثـــت عهـــدًا فـــي الهـــوى　　مـــا خلـــتُ أنـــك فيــــه ناكـــث
لـــــك لا أشــــــك قضــــــيةٌ　　أنـــا ســـائلٌ عنهـــا وباحـــث"

وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة والسكر ، فنراه في موطن آخر يقول:

أضـــنى الفـــؤاد فمـــن يريحـــه　　وحمـــى الرقـــاد فمـــن يبيحُـــه
ونضـــا مـــن الأجفـــان سيـــ　　ـــفًا قلمـــا يبقـــى جريحـــه
نشـــوان مــــن خمـــر الـــدلا　　لِ غَبُوُقـــــهُ وبهــــا صَـــــبوحُه

والذي يعنينا الآلي شرح مواقفه في العتاب ، لأنها تمثل الرح المصرية ، وما لها من السماحة المصحوبة بالشمم والإباء. فحينًا ينفي ما ذاع من سلوه ، حتى هجره أحبابه، فيقول:

يــــا هـــــاجرين وحقكـــــم　　هـــــونتم مــــا لا يهـــــون
قلــــتم فــــلان قــــد ســـلا　　مــــا كــــان ذاك ولا يكــــون

وحيـــــاتكم وهـــــي التــــــي   مـــــا مثلهـــــا عنـــــدي يمـــــين
مـــــا خنـــــت عهـــــدكم كمـــــا   زعـــــم الوشـــــاة ولا اخـــــوان
يـــــا مـــــن يظـــــن بـــــأنني   قـــــد خنتـــــه غيـــــري الخئـــــون
لـــــو صـــــح ودك صـــــح ظنـــــ   ـــــك بـــــي وبـــــان لـــــك اليقـــــين
يـــــا قلـــــب بعـــــض النـــــاس كـــــم   تقســـــو علـــــي وكـــــم ألـــــين
يـــــا ويلتـــــاه لمـــــن يخـــــا   طِـــــب أو لـــــم يشـــــكو الحـــــزين
قـــــد ذلـــــك مـــــن كـــــان المعيـــــ   ـــــن لـــــه هـــــو الـــــدمع المعـــــين

وحينما يمزج العتاب بالشكوى فيقول:

يـــــا أعـــــز النـــــاس عنـــــدي   كيـــــف خنـــــت اليـــــوم عهـــــدي
ســـــوف أشـــــكو لـــــك بعـــــدي   فعســـــى شـــــكواي تجـــــدي
أيـــــن مـــــولاي يرانـــــي   ودمـــــوعي فـــــوق خـــــدي
أقطـــــع الليـــــل أقاســـــي   مـــــا أقاســـــي فيـــــه وحـــــدي
ليتنـــــي عنـــــدك يـــــا مـــــولا   ي أو ليتـــــك عنـــــدي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه ، فيقول:

مـــــن لـــــي بقلـــــب أشتريـــــ   ـــــه مـــــن القلـــــوب القاســـــيه
إنـــــي لأطلـــــب حاجـــــةً   ليســـــت عليـــــك بخافيـــــه
أنعـــــم علـــــي بقبلـــــةٍ   هبـــــةً وإلا عاريـــــه
وأعيـــــذها لـــــك لأعدمـــــ   ـــــت بعينهـــــا وكمـــــا هيـــــه
وإذا أردت زيـــــادة   خـــــذها ونفســـــي راضـــــيه
فعســـــى يجـــــود لنـــــا الزمـــــا   ن بخلـــــوةٍ فـــــي زاويـــــه
أو ليتنـــــي ألقـــــاك وحـــــ   ـــــدك فـــــي طريـــــق خاليـــــه

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب ، ولكن البها زهير كما قلنا مصري الروح: فهو في رقته غضوب: ألم تر إليه وقد تبدل من يهوى ، فرماه بهذه الصاعقة:

يـــــا مـــــن تبـــــدل فـــــي الهـــــوى   يهنيـــــك صـــــاحبك الجديـــــد

إن كـــان أعجبـــك الصـــدو ... د كـــذاك أعجبنـــي الصـــدود
واعلـــم بـــأني لا أريـــ ... ـــد إذا رأيتـــك لا تريـــد
وأنـــا القريـــب فـــإن تغيـــ ... ـــر صـــاحبي فأنـــا البعيـــد

وقد أوضح هذا المعنى ورفاه ، في الكلمة الآتية:

سـأعرض عمـن راح عنـي معرضًـا ... وأعلـن سـلواني لـه وأشـيعه
واحجـب طرفـي عنـه فهـو رسـوله ... وأحجـب قلبـي عنـه فهـو شـفيعه
وكيـف ترى عيني لمن لا يرى لها ... ويحفـظ قلبي في الهوى من يضيعه
واقسمت لا تجري دموعي على امريءٍ ... إذا كـان لا تجـري علـي دموعـهُ
فلـو خـان طرفـي مـا حوتـه جفونـه ... ولـو خـان قلبـي مـا حوتـه ضـلوعه

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية:

هـــو حظـــي قـــد عرفتـــه ... لـــم يحـــل عمـــا عهدتـــه
فـــإذا قصـــر مـــن أهـــوا ... ه فـــي الحـــب عذرتـــه
غيـــر أنـــي لـــي فـــي الحـــ ... ـــب طريـــق قـــد سـلكته
لـــو أراد البعـــد عنـــي ... نـــور عينـــي مـــا تبعتـــه
إن قلبـــي وهـــو قلبـــي ... لـــو تجنـــي مـــا صـــحبته
كـــل شـــيء مـــن حبيبـــي ... مـــا خـــلا الغـــدر احتملتـــه
أنـــا فـــي الحـــب غيـــرو ... ذاك خلُقـــي لا عدمتـــه
أبصـــر المـــوت إذا أبصـــ ... ـــر غيـــري مـــن عشـــقته

نوح الحمام

لقد ألمنا إلمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع ، واليوم نفصل مذاهب الشعراء في هذا الباب: فمنهم من يحن إلى الحمائم الشادية ، ويتمنى لو عُدن إليه ، فإذا عدن أسلمنه إلى البكاء ، كما قال المجنون:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة   فأني إلى أصواتكن حزين

فعدن فلما عدن كدن يمتنني   وكدت بأجشاني لهن أبين

فلم تر عيني مثلهن بواكيًا   بكين ولم تذرف لهن عيون

ومن الشعراء من يذكر أن الحمائم الباكية تبعث الهوى في قلب الخلي ، فكيف بالشجي ، وأن أنغامها ليست دموعًا ولكنها أمضى من الدموع ، كما قال أبو تمام:

بعثن الهوى في قلب من ليس   فقل في فؤادٍ رعنه وهو هائم

هائمًا   مضت حيث لا تمضي الدموع السواجم

فها نغمٌ ليست دموعًا فإن علت

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام ، ويراه تداويًا من الداء بنفس الداء ، كقول ابن عبد ربه:

فكيف ولي قلبٌ إذا هبت الصبا   أهاب بشوق في الضلوع دفينِ

ويهتاج منه كلما كان ساكنًا   دعاء حمام لم يبت بوكون

وأن ارتياحي من بكاء حمامةٍ   كذي شجنٍ داويته بشجون

كأن حمام الأيك لما تجاوبت   حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزين

ويسمون الحمامة «مطوقة» لطوقها المخضب الجميل ، كما قال ابن عبد ربه:

ونائح في غصون الأيك أرقني   وما عُنيت بشيء ظل يعينه

مطـــوق بخضـــابٍ مـــا يزايلـــه	حتـــى تزايلـــه إحـــدى تراقيـــه
قد بات يشكو بشجو ما دريت به	وبــت أشــكو بشــجو لــيس يدريــه

ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية ، فيذكر أنها تبكي بلا دمع ، وأن إلفها منها قريب ، كما قال أبو محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين ، وقد كبرت سنه ، طالت غربته:

وأرقنـــي بـــالري نـــوح حمامـــة	فنحــت وذو الشــجو الغريــبُ ينــوح
علـى أنهـا ناحـت ولـم تـذر دمعـة	ونحـــت وأســـراب الـــدموع ســـفوح
وناحــت وفرخاهــا بحيــث تراهمــا	ومـــن دون أفراخـــي مهامـــه فِـــيحُ
ألا يـا حمـام الأيـك إلفـك حاضـر	وغصـــنك ميـــاد ففـــيم تنـــوح
أفـق لا تـنح مـن غيـر شـيءٍ فـإنني	بكيـــت زمانًـــا والفـــؤاد صـــحيح
ولوعًـا فشـطت غربـة دار زينـبٍ	فهأنـــا أبكـــي والفـــؤاد جـــريح

ومما يجدر أن يكون «صورة شعرية» في وصف الحمامة الباكية قول الطغرائي:

أبكيـة صـدحت شـجوًا علـى فـننٍ	فأشـعلت مـا خبـا مـن نـار أشـجاني
ناحت وما فقدت إلفًا ولا فجعت	فـــذكرتني أوطـــاري وأوطـــاني
طليقــةٌ مــن إســار الهــم ناعمــةٌ	أضـحت تجـد وجـد الموثـق العـاني
تشبهت بي في وجدي وفي طربي	هيهـات مـا نحـن فـي الحـالين سـيانِ
مـا فـي حشـاها ولا فـي جفنهـا أثـرٌ	مـن نـار قلبـي ولا مـن مـاء أجفـاني
يــا ربــة البانــة الفنــاءِ تحضــنها	خضــراء تلتــف أغصــانًا بأغصــان
إن كــان نوحــك إســعادًا لمغتــربٍ	نــاءٍ عــن الأهــل ممنــوٍ بهجــران
فقارضــيني إذا مــا اعتــادني طــرب	وجــدًا بوجــدٍ وســلوانًا بســلوان
أولا فقصــرك حتــى اســتعين بمــن	يعنيــه شــأني ويأســو كَلــمَ أحزانــي
مـا أنـت مني ولا يعنيك مـا أخذت	منـــي الهمـــوم ولا تـــدرين مـــا شـــأني
كِلـي إلـى الغيـم إسـعادي فـإن لـه	دمعًـــا كـــدمعي وإرنانًـــا كإرنـــاني

وهذه القصيدة من إبداع ما قال الشعراء في الحمائم الشاديات. وهي نموذج لملاحه التقسيم ، وبراعة التصوير ، وحلاوة التعبير ، ويقرب منها قول ديك الجن:

حمائم ورق في حمى ورق خضر ... لها مقل تجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة إن بكت ... وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حرق لو أن خنساء أعولت ... بهن لادت حق صخرٍ إلى صخر
فقلت لنفسي ها هنا طلب الأسى ... ومعدنه أن فاتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر إلى الخرافة القديمة في نوح الحمام: فإن العرب يذكرون أنه كان لهن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه إلى الآن ! ؟ وهو المعني بقول نصيب:

لقد راعني للبين نوح حمامةٍ ... على غصن بانٍ جاوبتها حمائم
هواتف أما من بكين فعهده ... قديم وأما شجوهن فدائم

وممن ذكر الهديل حُميد بن ثور في هذه الأبيات الحسان:

إذا نادى قرينته حمامٌ ... جرى لصبابتي دمع سفوح
يُرَجِّع بالدعاء على غصون ... هتوف بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله مني إذا ما ... تغرد ساجعًا قلب قريح
فقلت حمامة تدعو حمامًا ... وكل الحب نزاع طموح

قال أبو بكر بن دريد: خرجنا من عمان في سفر لنا ، فنزلنا في أصل نخلة ، فنظرت فإذا فاختتان تزقوان في فروعها ، فقلت:

أقول لو رقاوين في فرع نخلةٍ ... وقد طفل الإمساء أو جنح العصر
وقد بسطت هاتي لتلك جناحها ... ومال على هاتيك من هذه النحر
ليهنكيما أن تراعا بفرقةٍ ... ومادب في تشتيت شملكما الدهر
فلم أر مثلي قطع الشوق قلبه ... على أنهُ يحكي قساوته الصخر

ومن جيد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان الخفاجي:

أتظن الورق في الأيك تغني ... إنها تضمر حُزنًا مثل حزني
لا أراك الله نجدًا بعدها ... أيها الحادي بها أن لم تجبني
هل تباريني إلى بث الجوى ... في ديار الحي نشوى ذات غُصنِ
هب لنا الشبق ولكن زادنا ... إننا نبكي عليها وتغني
يا زمان الخيف هل من عودة ... يسمح الدهر بها من بعد ضن
أرضينا بثنيات اللوى ... عن زرودٍ يا لها صفقة غَبنِ

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق ، وهي كثيرة الالاف ، وحيالة بالطوق والخطاب ، كقول ابن سنان صاحب الأبيات السالفة:

وهاتفةٍ في البان تُملي غرامها ... علينا وتتلو من صبابتها صُفحات
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً ... وقد جاوبت من كل ناحيةٍ الفا
ويشجي قلوب العاشقين حنينها ... وما فهموا مما تغنت له حرفا
ولو صدقت فيما تقول من الاسى ... لما لبست طوقًا ولا خضبت كفًا

ولكن الارجاني يصفها بصدق اللوعة ، فيذكر أنها مزقت أثواب الحِداد ، وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الأطواق وأنها نزفت دمعها وافنته بطول البكاء ، وذلك في قوله:

ومما شجاني وقد ودعوا ... بكاءُ الحمام على ساقها
تنوح على يُعد ألافها ... وتظهر مكنون أشواقها
لبسن حدادًا ومزقنهُ ... فلم تدّخر غير ازياقها
وضاقت صدورًا بأنفاسها ... ففضَّت مجامع أطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها ... فلم يبق ماءٌ بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان ، ويظهر أنهم لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على ضفاف النيل في سِنتريس ، والدهر كله فداء للحظة واحدة من الأصائل ، أو العشيات ، أو الأسحار ، في مغاني سنتريس.

ويعجبني في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد:

يا مُحييَ الليل البهيم تهجّدًا ... والطير آويةٌ إلى الأوكان

يحدو الكواكب وهو أخفى موضعًا ... من نايغ في غَمرة النسيان

قل يا شبيه النابغين إذا دعوا ... والجهل يضرب حولهم بجران

كم صيحةٍ لك في الظلام كأنها ... دقات صدر للدجنةِ حانِ

خَفاقة النغمات تطفرُ في الدجى ... فوق النسائم طفرة النشوان

هن اللغاتُ واللغاتِ سوى التي ... رُفعتْ بهن عقيرة الوِجدان

إن لم تقيدها الحروف فإنها ... كالوحي ناطقةٌ بكل لسان

أغنى الكلام عن المقاطع واللغى ... بثّ الحزين وفرحةُ الجذلان

إني لأسمع منكَ إذْ ناديتني ... معنى يقصِّر عنه كل بيان

أصغي إليك إذا هتفت وفي يدي ... سِفرٌ يغرد صامت الأوزان

شعر الطيور ولا رياء يشوبهُ ... يزري ببدْع قصائد الإنسان

يا ساليًا يشكو ويصدح وحده ... علم سميرك راحة السلوان

ومن خير ما وُصِفت به الحمامة من ناحية الخِلقة الجميلة ، قول بعض الأعراب:

وقلبي أبكي كل من كان ذا هوى ... هتوف البواكي والديارُ البلاقعُ

وهن على الأطلال من كل جانب ... نوائح ما تخضل منها المدامع[(1)]

مزبرجة الأعناق غر ظهورها ... مُخطمةٌ بالدر خُضرٌ روائع[(2)]

ترى طررًا بين الخوافي كأنها ... حواشيُّ بُردٍ زينتها الوشائع[(3)]

---

(1) المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون.

(2) مزبرجة: من الزبرج وهو الزخرف. ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر.

(3) الوشائع جمع وشيبة وهي الطرائق في الثوب.

ومن قِطع الياقوت صيغت عيونها ... خواضب بالحنَّاءِ منها الأصابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان الغساني لطائر مغرد ضم أفراخه إليه:

أعِدهن ألحانًا على سمع مُعربٍ ... يطاوحُ مرتاحًا على القُضب مُعجما

وطر غير مقصوص الجناح مُرفَها ... مُسوّغ أشتاتِ الحبوب مُنعما

مُخلى وأفراخًا بوكرك نُوَّمًا ... ألا ليتَ أفراخي معي كن نُوما

وقد أبدع الرصافي شاعر الأندلس حين تغنى يومًا من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكناها غير الهديل ، وأبياته الآتية غاية من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح للغروب:

وشعيّ رائق منظرُهْ ... قد قطعناهُ على صرف الشمول

وكأن الشمس في أثنائه ... ألصقت بالأرض خدًا للنزولْ

والصبا ترفع أذيال الرُّبا ... ومُحيا الجوِّ كالسيف الصقيل

حبذا منزُلنا مُغتبَقًّا ... حيث لا يطرُقنا غير الهديل

طائرٌ شادٍ وغصنٌ منْثنٍ ... والدجي تشرب صهباء الأصيل

ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي أبي حفص القرطبي:

هُم نظروا لواحظها فهاموا ... وتشربُ لُبّ شاربها المدامُ

يخاف الناس مقلتها سواها ... أيضعر قلب حامله الحسام

سما طرفي إليها وهو باك ... وتحت الشمس ينسكب الغمامُ

وأكبر قدّها فأنوح وجدًا ... على الأغصان ينتحبُ الحمام

وأعقب بينُها في الصدر غمًا ... إذا غرَبت ذكاءُ أتى الظلام



التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب إلى حبيبته دمع مسفوح ، وقلب مجروح ووجد مشبوب ، وصبر مغلوب !! والتقرب بالدموع نوع من الاستعطاف تغزي به قلوب الحسان ، ومن طريفه قول الأبيوردي:

أشكو الهدوى لترقيٍّ يا أميمة لي ... فطالما رفقَ المشكو بالشاكي
يشقى بعضي ببعضي في هواك فما ... للعين باكية والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب: فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد ، حتى ليقولون: نعمت العين ، وشقى القلب ، ولكن الأبيوردي عكس المعنى ، فجعل نعيم القلب في الهوى ، وعذاب العين في البكاء ، ثم قال:

إن يحك ثغرك دمعي حين أسفحهُ ... فإنني جدت للمحكيِّ بالحاكي
ما كنت أحسب أنّ الدرّ مسكنه ... يكون جيدَك أو عينيّ أو فاكِ

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف:

أهون بما حملتنيه من الضنى ... لو أن طيفك كان من عُوّادي
ولقلما زار الخيال بمقلةٍ ... روعاءَ نافرةٍ بغير رُقادِ
ما تلتقي الأجفان منها ساعةً ... وإذا التقت فلغضّ دمع بادِ
لا يبعدن قلبي الذي خلفتهُ ... وقفًا على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وسادَهُ ... لم يدرِ كيف نبا عليّ وسادي
ولقد بعثت من الدموع إليكم ... بركائبٍ ومن الزفير بحادي
لولا هواك لما ذللت وإنما ... عزّي يعيّرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية ، والذلة العذرية: فهو عزيز ذليل !! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب ، فمن ذلك قوله:

صلي مغرمًا قد واتر الشوق دمعه　　سجامًا على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حللته بمحلل　　وليس الذي حرمته بحرام

وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال:

ألام على هواكِ وليس عدلاً　　إذا أحببتُ مثلك أن ألاما
فقد حرمت من وصلي حلالاً　　وقد حللت من هجري حراما

ولا يسعني وقد أسرف البحتري في ذكر الحرام والحلال ، إلا الرجاء في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب !! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين يقول:

أما استوجبت عيني فديتك نظرة　　إليك وقد أبكيتها حِجَجًا عشرا
لعمري لئن أقررتِ عيني بنظرةٍ　　إليك لقد عذبتها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى　　وفاضت له من مقلتي غروب
وما ذاك إلا حين أيقنت أنهُ　　يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أُجاجًا دونكم فإذا انتهى　　إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيا ساكني أكناف دجلة كلكم　　إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله:

يا وموحش العين التي　　أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي　　نفسًا تموت بدائها
تشتاق عيني أن ترا　　ك وأنت في سوادئها
فإذا بخلت بنظرة　　سمحت بجُمة مائها

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء:

وقلتُ شهودي في هواك كثيرةٌ　　وأصدقها قلبي ودمعي مسفوحُ
فقال شهودٌ ليس يقبل قولها　　فدمعك مقذوف وقلبك مجروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون ، لطول ما يبحثون في القذف والتجريح ، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء !!

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد ، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى ، كصاحب البدائع حين يقول:

يــا أهــل أســيوط لازلــتم بعافيــةٍ   وإن تمــرد فــي وجــدي بكــم دائــي

أسـلمتموني لـدهري بعـد مـا بَلِيَـتْ   مـن قسـوة الصـد والتبـريح أحشـائي

فلــو أتــت ظبيــةُ الحمــراء غازيــةً   قلبــي لمــا وجدتــه غيــر أشــلاء[1]

يا ويـح نفسـي ، أتنسـوني وأذكـركم   مُقــرح الجفــن فــي صــبح وامســاءِ

●

إن الـذين بـأمر الحـب قـد ملكـوا   لـم يتقـوا الحـب فـي ضُـرِّي وإيـذائي

لـم يُدنني الشـوقُ يومًا من منازلهم   ألا تولـــوا مـــع الأيـــام أقصـــائي

كـم رُحـتُ أحمـل آمـالي لحـيهم   وعـــدتُ أحمـــل آلامـــي وارزائـــي

يـا لوعـة القلـب لا شـكواي نافعـة   ولا بكـــاي بشـــافٍ مـــس ضـــرائي

أبيــت أنــدب عهــدًا مــر طيبــةُ   كلمحــة البــرق فــي أعطــاف ظلمــاء

وأرســـل الزفــرة الحــراء لافحــة   كوقــدة الجمــر فــي آجــامِ قَصْــباءِ

●

يــا مــن يعــز علينــا أن نجــازيهم   صـــدًّا بصـــدٍّ وأغضـــاءً بإغضـــاءِ

لــو ترحمــون وصــلتم شــيقًا كلِفًــا   ألقــي جفــاكم عليــه ألــفَ بأســاءِ

---

[1] الحمراء : حي جميل من أحياء أسيوط.



ثورة الوجد

نذكر هنا طرفًا من الشعر الموجع ، الذي يمثل ثورة الوجد ، ولوعة الأسى ، فمن ذلك قول أبي تمام:

سـقيمٌ لا يمـوتُ ولا يُفيـقُ ... قـد اقـرح جفنـه الـدمعُ الطليـقُ
شـديد الحـزن يحـزن مـن يـراهُ ... أسـير الصـبر نـاظرهُ أريـقُ
ضَـجيع صـبابةٍ وحليـفُ شـوقٍ ... تحمّـل قلبُـه مـالا يُطيـقُ
يظـل كأنـه ممـا احتـواه ... يُسَـعر فـي جوانبـه الحريـق

وأي حال أدعى للرحمة ، وأوجب للإشفاق ، من حال هذا المحب السقيم ، الذي لا يموت ولا يفيق. والذي يحزن من يراه: لصبره الأسير ، ونظاهره الأريق والذي حالف في ضعفه الشوق، وضاجع الصبابة، حتى لكأنه مما به ، تُسعر النار في ضلوعه ! ؟

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خُلانه:

لـم يَسـترح مـن لـهُ عـينٌ مُؤرقـة ... وكيـف يعـرف طعـم الراحـة الأرقُ
محمـدٌ وعلـي فتتـا كبـدي ... إذا ذكرتهمـا والعـيسُ تنطلـقُ
خـلان حـل بقلبـي منفراقهمـا ... مـا كنـت أحـذر منـه قبـلَ نفتـرقُ
قلـب رقيـق تلظـت فـي جوانبـه ... نـار الصـبابة حتـى كـاد يحتـرقُ
وددت لـو تـم لـي حجـي بقربهمـا ... مـا كـل مـا تشـتهيه الـنفس يتفـق

ومما يمثل ثورة الوجد في الصدر ، مع الغيظ مما جنت يد الليالي ، قول المتنبي:

أكيـدًا لنـا يـا بـينُ واصـلت وصـلنا ... فـلا دارنـا تـدنو ولا عيشـنا يصـفو
أردد ويلي ، لو قضى الويل حاجةً ... وأكثـر لهفـي ، لـو شـغفا غُلـةً لهـفً
ضـنى فـي الهـوى كالسـم في الشـهد كامنًـا ... لـذذت بـه جهـلا وفـي اللـذة الحتـف

وكان الأبيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلا ثم تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات ! وإليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة:

وما ام ساحبي الطرف مال به الكرى ... علـى عـذبات الجـزع تحسـبه قلبـا

تُراعـي بإحـدى مُقلتيهـا كناسـها ... وترمـي بـأخرى نحـوهُ نظـرًا غربـا

فـلاح لهـا مـن جانـب الرمـل مرتـع ... كـأن الربيـع الطلـق ألبسـه عُصـبا

فمالـت إليـه والحـريص إذا غـدت ... بـه سـورة الأطمـاع لـم يحمـد العقبـى

وآنسها المرعى الخصيب فصادفت ... مـدى العـين فـي أرجائـه بلـدًا خصـبا

فلمـا قضـت منـه اللبانـة راجعـت ... طلاهـا فألفتـه قضـى بعـدها نحبـا

أتـيح لـه عـاري السـواعد لـم يـزل ... يخـوض إلـى أوطـاره مطلبًـا صـعبا

فولـت علـى ذُعـرٍ وبـالنفس مـا بهـا ... مـن الكـرب لا لقيـت في حـادث كربـا

بأوجـد منـي يـوم عجـت ركابهـا ... لبـينٍ فلـم تتـرك لـذي صـبوةٍ لُبـا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة ، وإنما نسبناها إلى الأبيوردي لأنه يرددها في شعره ، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية:

ومـا مُغـزلٌ تعطـو الأراد يهـزه ... نسـيم تناجيـه الخمائـل وانِ[١]

وتزجـى بروقيهـا أغـن كأنـه ... من الضعف يطوي الأرض بالرسفان[٢]

فمـال إلـى الظـل الأراكـي دونهـا ... وكانـا بـه مـن قبـل يرتـديان

وصبت عليه الطلس وهي سواغب ... تجـوب إليـه البيـد بالنسـلان[٣]

فعـادت إليـه أمـه وفؤادهـا ... هفًـا كجنـاح الصـقر فـي الخفقـان

وظلـت علـى الجرعـاء ولهـي كئيبـةً ... وقـد سـال واديهـا بـأحمر قـان

تسـوف الثـرى طـورًا ويعبـث تـارةً ... بهـا أولـقٌ مـن شـدة الولهـان[٤]

---

[١] المغزل: أم الغزال ، الخمائل جمع خميلة وهي ألفاف الشجر.

[٢] الرسفان ، المشي في القيد.

[٣] الطلس ، الذئاب ، ولواغب ، الجياع ، والنسلان ، مشي الذئب إذا أسرع.

[٤] نسوف ، تشم ، الأولق ، الجنون.

بأوجد مني يوم سرتُ إلى الحمى وقد نزلت سمراءُ سَفلح ابان[1]

ونحب أن نلفت القاريء إلى ما في أمثال هذه الصورة الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة ، وما فيها من حياة الحيوان ، فقد أغرم شعراء الغرب بهذا الأسلوب ، فزاد شعرهم جمالاً إلى جمال. ولولا الرغبة في الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسيه) تماثل شعر الأبيوردي في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس ، في كل قطر ، وفي كل جيل ، والتباين قليل في الميول ، وفي تذوق ألوان الحياة ، وأن عظم الفرق حينًا في التعبير عن نزعات النفوس ، وشهوات العقول:

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون ، وقد رأينا أن نثبتها هنا كاملة –كما فعل المقري صاحب نفح الطيب – لأنها ذكرت مفرقة في أكثر المؤلفات:

اضحى التنائي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم جزنًا مع الدهر لا يبلى ويلينا

إن الزمان الذي قد كان يضحكنا انسًا بقربهم قد عاد يُبكينا

غيظ العدل من تساقينا الهوى فدعوا بأن تغص فقال الدهر آمينا

فانحل ما كان معقودًا بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

بالأمس كنا وما يُخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

يا ليت شعري ولم نُعتب اعاديكم هل نال حظًا من العتبى أعادينا[2]

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيًا ولم نتقلد غيره دينا

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه وقد يئسنا ، فما لليأس يُغرينا

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقًا إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين نُناجيكم ضمائرُنا يقضي علينا الأسى ، لولا تأسينا[3]

حالت لبعدكم أيامنا فغدت سودًا وكانت بكم بيضًا ليالينا

---

[1] أبان ، جبل شرقي الحاجر فيه تحل.

[2] اعتبه ، ارضاه. والعتبي ، الترضية.

[3] التأسي ، التعزي.

إذ جانب العيش طلقٌ من تألفنا ... ومورد اللهو ضافٍ من تصافينا

وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً ... قطوفها فجنينا منه ما شينا

ليُسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إذ طالما غير النأي المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

●

يا ساري البرق غاد القصر فاسق ... به من كان صرف الهوى والود يسقينا

واسأل هنالك هل عنى تذكرنا ... إلفًا تذكره أمسى يعنينا[1]

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيًا كان يحيينا

وبيت ملك كأن الله أنشأه ... مسكًا وقد أنشأ الله الورى طينا

أو صاغه ورقًا محضًا وتوجه ... من ناصع التبر إبداعًا وتحسينا[2]

إذا تأود آدته رفاهية ... تُدمي العقول وأدمته البُرى لينا[3]

كانت له الشمس ظئرًا في تكلله ... بل ما تجلي بها إلا أحايينا[4]

كأنما نبتت في صحن وجنته ... زهر الكواكب تعويذًا وتزيينا

ما ضر أن لم نكن اكفاءه شرفًا ... وفي المودة كافٍ من تكافينا[5]

يا روضة طالما اجنت لواحظنا ... وردًا جناه الصبا غضًا ونسرينا

ويا حياةً تملأنا بزهرتها ... سُنى ضروبًا ولذاتٍ أفانينا[6]

ويا نعيما خطرنا من نضارته ... في وشي نُعمي سحبنا ذيلهُ حينا

---

[1] عناه ، أشقاه.

[2] ورق ككتف ، الفضة.

[3] تأود ، تثنى. آدته ، أثقلته. البري، الخلاخيل.

[4] الظئر من معانيه جانب القصر.

[5] متكافي ، التكافؤ والتماثل.

[6] تملأنا ، تمتعنا.

لسـنا نسـميك إجـلالا وتكرمـةً فقـدرك المعتلـي عـن ذاك يُغنينـا

إذا انفردت وما شوركت في صفةٍ فحسـبنا الوصـف إيضـاحًا وتبيينـا

•

يـا جنـة الخلـد أبـدلنا بسلسـلها والكـوثر العـذبِ زقومًـا وغسـلينا

كأننـا لـم نبـت والوصـل ثالثنـا والسعد قد غض من أجفان واشينا

سـران فـي خـاطر الظلمـاءِ تكتمنـا حتـى يكـاد لسـان الصـبح يُفشـينا

لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت عنـه النهـى وتركنـا الصـبر ناسـينا

إنـا قرأنـا الأسـى يـوم النـوى سـورًا مكتوبـة وأخـذنا الصـبر تلقينـا

أمـا هـواك فلـم نعـدل بمشـربه شـربًا وإن كـان يروينـا فيظمينـا[1]

لـم نجـف أفـق جمـالٍ أنت كوكبه سـالين عنـه ولـم نهجـره قالينـا

ولا اختيـارًا تجنبنـاكِ عـن كثـبٍ لكـن عـدتنا علـى كسـرهٍ عوادينـا[2]

نأسـى عليـك إذا حُـت مشعشـعة فينـا الشـمول وغنانـا مغنينـا

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا سـيما ارتيـاحٍ ولا الأوتـار تلهينـا

دومي على العهد ما دمنا محافظة فـالحر مـن دان إنصـافًا كما دينـا

فما استعضنا خليلا عنك يحسبنا ولا اسـتفدنا حبيبًـا منـك يُغنينـا

ولـو صبا نحونا مـن أفـق مطلعـه بـدر الـدجى لـم يكـن حاشـاكِ يصبينا

أولـى وفـاءً وإن لـم تبـذلي صـلةً فـالطيف يقنعنـا والـذكر يكفينـا

وفـي الجـواب شـفاءٌ لـو شـفتِ بـه بـيض الأيـادي التـي مـا زلـت تولينا

وقد أغرم الشعراء بتخميس هذه القصيدة وتسديسها ، وتشطيرها ، وكذلك شغلت الأذهان زمنًا غير قليل. وقد أرسل ابن زيدون هذه القصدة إلى معشوقته ولادة ، وهي سيدة اندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين ، وقد كانت في جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون:

---

[1] الشرب بكسر الشين كالشرب وهو المورد.

[2] عن كثب ، عن قرب.

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسر
وبي منك ما لو كان بالفجر لم يلح وبالليل لم يُظلم وبالنجم لم يسر

ولابن زيدون في ولادة مقطعات حسان ، كقوله:

واهًا لعفطك والزمان كأنما صبغت نضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصر طوله هاتي ، وقد غفل الرقيب ، وهاك
أما منى نفسي فأنت جميعها يا ليتني أصبحتُ بعض مناك
يُدني مثالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

ومن موجع الشعر قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعًا حظهُ مني ولو بذلت لي الحياة بحظي فيه لم أبع

ولصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل ولع غريب بإنشاد قول ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا والافق طلق ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في اصائله كأنما رق لي فاعتل اشفاقا
والنهر عن مائه الفضي مبتسم كما حللت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت يتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهرٍ جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن أعينهُ إذ عاينت أرقي بكت لي بي فجال الدمع رقراقا
ورد تألف في ضاحي منابته فازداد منه الضحى في العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا إليك لم يعد عنا الصدر إن ضاقا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم لكان من أكرم الأيام أخلاقا
لا سكن الله قلبًا عن ذكركم فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
ميدان أنسٍ جرينا فيه اطلاقا

كان التجازي بمحض الود مذ زمن   ســــلوتم وبقينــــا نحــــن عشــــاقا
فــالآن أحمــد مــا كنــا لعهــدكم

واني لمفتون بهذا الشطر الحزين:

سلوتمُ وبقينا نحن عُشاقا

فإنه يمثل المحب ، وقد سلا أحبابه ، وبقي وحده يعاني آلام الوجد ، وأهوال الصدود.

الارق والسهاد

شكا الشعراء قديمًا وحديثًا طول الليل بعد الفراق ، وعند الهجر والصدود. فمنهم من يستنجد محبوبه ، ويستعديه على وحشة الليل، ومضاضة الأرق ، كقول الأبيوردي.

أَمُيمَ إن خفيت عليك صبابتي   فسلي ظلام الليل كيف أكون
واستخبري عني النجوم فقد رأت   سهري وأروقة الغياهب جون
ولئن أذلتُ مصون دمعي في الهوى   فعلى البكاء يعول المحزون

وهذه الأبيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد ، وعبثه بكرائم النفوس. ومنهم من يستعين من حوله ، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار ، أو يصفوه له ، فقد طال ليله ، حتى نسي النهار ، وأوصاف النهار ، كما قال ابن الأحنف:

أيها الراقدون حولي أعينو   ني على الليل حسبةً وائتجارا
حدثوني عن النهار قليلا   أوصفوه فقد نسبت النهارا

وابن الأحنف يجيد شكوى الليل الطويل ، والسهاد المملول ، فمن ذلك قوله:

نام من أهدى لي الأرقا   مستريحًا سامني قلقا
لو يبيت الناس كلهم   بسهادي بيض الحدقا
أنا لم أرزق مودتكم   إنما للعبد ما رزقا
كان لي قلب أعيش به   فاصطلى بالحب فاحترقا

وتوجعني شكواه في قوله:

أنا لم أرزق مودتكم   إنما للعبد ما رزقا

فقد تكلف النفس بفتنة من فتن الحسن في هذا الوجود ، ثم لا تجد إليها السبيل ، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال !

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل ، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه. كالبحتري حين يقول:

أمولعـــــة بـــــالبين رب تفـــــرقٍ   جرحـــت بـــه قلبًـا بحبـــك مولعـــا
ولـي لوعـة تسـتغرق الهجـر والنـوى   جميعًـا وحـب ينفـد الـدمع اجمعـا
علـى أن قلبـي قـد تصـدع شـمله   فنونًـا لشـمل البـيض حـين تصـدعا
ظعـائن أظعـن الكـرى عـن جفوننـا   وعوضــــننا منــــه ســــهادًا وأدمعــــا
نـوين النـوى ثـم اسـتجبن لهـاتف   مـن البـين نـادى بـالفراق فأسـمعا
وحـاولن كتمـان الترحـل بالـدجى   فـنم بهـن المسـك حـين تضـوعا

وقد يفزع المحب إلى تحكيم العدجل والحق ، حين تطول لياليه. كقول ابن الرومي:

أيـا شـمس النهـار سـنًا وعـزًا   يُقصـــر عنهمـــا نظـــر ولمــــس
أحـــل أن تنـــامي عـــن ســـهادي   ولـــي مـــذبان عنـــي النـــوم خمـــس
أميـــز كـــل شـــيء مـــن أمـــوري   ســـوى أمـــري لـــديك فقيـــه لـــبس
غرســـت هـــوى فربيـــه بحفـــظٍ   فلـــيس يـــرب بالتضـــييع غـــرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر أن نجومه اقسمت لا تزول. كقول أحدهم:

ألا هـل علـى الليـل الطويـل معـين   إذا نظحـــت دار وحـــن حـــزين
أكـادب هـذا الليـل حتـى كأنمـا   علـــى نجمـــه أن لا يغـــور يمـــين
ووالله مـا فـارقتكم قاليًـا لكـم   ولكـــن مـــا يقضـــى فســـوف يكـــون

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سرابيل الليل ، وظهور تباشير الصبح ، كقول حندج بن حندج:

في ليل صول تناهي العرض والطول   كأنمـــا ليلـــه بالليـــل موصـــول
لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به   وإن بـــدت غـــرة منـــه وتحجيـــل
لسـاهرٍ طـال فـي صـولٍ تململـه   كأنـــه حيـــة بالســـوط مقتـــول
متى أرى الصبح قد لاحت مخائله   والليـل قـد مزقـت عنـه السـرابيل

ليل تحير ما ينحط في جهةٍ كأنه فوق متن الأرض مشكول
نجومه ركد ليست بزائلةٍ كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يدني على شحط من داره الحزن ممن داره صول
الله يطوي بساط الأرض بينهما حتى يرى الربع منه وهو مأهول

نعم وما أقدر الله أن يدني على النوى من داره ينتريس ممن داره أسيوط

لوددت إذ سكنوا هنالك دراهم وعدتهم عنا أمور تشغل
أنا نطاع إذن فتنقل أرضنا أو أن أرضهم إلينا تنقل

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال:

رب ليلٍ كأنه الدهر طولاً قد تناهي فليس فيه مزيد
ذي نجوم كأنهن نجوم الشيـ ـب ليست تزول لكن تزيد

قال أبو بكر الوليد بن البزار: كان علي بن الجهم يستنشدني كثيرًا شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول: ما صنع شيئًا. ثم أنشدته يومًا قوله:

رقدت ولم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر
ولم تدر بعد ذهاب الرقا د ما صنع الدمع بالناظر

فقال: قاتله الله ! لقد ادمن الرمية حتى أصاب الغرة ! وجمال هذا الشعر يرجع إلى شكوى المحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم. ومثله قول أبي العتاهية:

أمسى ببغداد ظبي لست أذكره إلا بكيت إذا ما ذكره خطرا
إن المحب إذا شطت منازله عن الحبيب بكى أوحن أو ذكرا
يا رب ليلٍ طويل بت أرقبه حتى أضاء عمود الصبح فانفجرا
ما كنت أحسب إلا مذ عرفتكم إن المضاجع مما ينبت الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب علي عين الشجي إذا ما نومه نفرا

ومن المحبين من يخاطب الليل. فيذكر في خطابه أن بعض ما به كاف لمحو الليل لو عرض له. كقول سعيد بن حميد:

يـــا ليـــل بـــل يـــا أبـــد أنـــــائم عنــــك غـــــد

يـــا ليـــل لـــو تلقـــى الـــذي ألقـــــى بهـــــا أو تجـــــد

قصـــــر مـــــن طولـــــك أو ضـــــعف منـــــك الجلـــــد

أشـــــكو إلـــــى ظالمـــــةٍ تشـــــكو الـــــذي لا تجـــــد

وقـــــف عليهـــــا نـــــاظري وقـــــف عليهـــــا الســـــهد

وأود لو تنبه القاريء إلى حسن هذا البيت:

أشـــــكو إلـــــى ظالمـــــةٍ تشـــــكو الـــــذي لا تجـــــد

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال:

يقولون طال الليل والليل لم يطال ولكـن مـن يبكـي مـن الشـوق يسـهر

وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال:

لــم يطــل ليلــي ولكــن لــم أنــم ونفــى عنــي الكــرى طيــف ألــم

وإذا قلــت لهــا جــودي لنــا خرجــت بالصــمت عــن لا ونعــم

نفســي يــا عبــد عنــي واعلمــي إننــي يــا عبــد مــن لحــمٍ ودم

إن فـــي بـــردي جســـما نـــاحلا لـــو توكـــأت عليـــه لانهـــدم

وقد ردد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال:

طـال هـذا الليـل بـل طـال السـهر ولقـــد اعـــرف ليلـــي بالقصـــر

لــم يطــل حتــى جفــاني شــادن نـــاعم الأطـــراف فنـــان النظـــر

لـــي فـــي قلبـــي منـــه لوعـــة ملكـــت قلبـــي وســـمعي والبصـــر

وكـــأن الهـــم شـــخص ماثـــل كلمـــا أبصـــره النـــوم نفـــر

على أن بشارًا يتخطى هذا الحد ، فيجاري الشعراء ، ويحسب أن ليس لليله نهار ، وذلك في قوله:

أقـــول وليلتـــي تـــزداد طـــولاً أمـــا لليـــل بعـــدهم نهـــار

جفت عيني عن التغميض حتى كأن جفونها عنها قصار

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الأدبية ، لأن الغمض لا يجفو العيون ، لقصر الجفون ، كما يقول. وإنما يجفوها لثورة الوجد ، وهجمة الأشجان !

ويقول في كلمة ثانية:

خليلي ما بال الدجى لا تزحزح وما لعمود الصبح لا يتوضح
أضل النهار المستنير طريقه أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال على الليل حتى كأنه بليلين موصول فما يتزحزح

والبيت الأخير يذكرني بقول صاحب البدائع:

وجن علي الليل حتى حسبته جفاء كريم أو رجاء لئيم

وإن كان هذا في الحديث عن ظلام الليل ، لا عن طوله

وتروقني البساطة في قول سويد بن أبي كاهل:

وإذا ما قلت ليل قد مضى عطف الأول منه فرجع
يسحب الليل نجومًا ظلعا فتواليها بطيئات التبع

والخيال هنا خيال بادية. ولكنه في بداوته بديع. وقول الآخر:

سلو مضجعي هل قر من بعدكم وهل عرفت طعم الرقاد جفوني
سهرنا بنعمانٍ ونمتم ببابل فيا لعيونٍ ما وفت لعيون

وهو يذكرني بقول بعض الأعراب:

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى بكم مثل ما بي إنكم لصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ولا ساغ لي بين الجوانح ريق
إذا زفرات الحب صعدن في الحشا كررن فلم يُعلم لهن طريق

ومما جمع بين الشكوى من لليل الفراق ، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام:

طال عمر الليل عندي مذ تولعت بصدي

يـــا غـــرالا نقـــض العهـــــ ـــــد ولـــم يـــوفِ بوعـــد
انســـيت العهـــد أذبتــــ ـــــنا علــــى مفـــرش ورد
واجتمعنـــا فــي وشـــاحٍ وانتظمنـــا نظـــم عقـــد
ونجـــوم الليـــل تحكـــى ذهبًـــا فـــي لازورد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب ، كقول ابن زيدون:

يـــا ليـــل طـــل لا اشـــتهي إلا لعهـــدي قصـــرك
لـــو بـــات عنـــدي قمـــري مـــا بـــت أرعـــى قمـــرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق ، شهية الورود ، وما أحسب المصريين عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس ، ذات الظلال والأفنان.

ليـالي النيـل واللـذات ذاهبـة وجـدي علـيكن أشـجاني فأضـناني
لو يرجع الدهر لي منكن واحدة فـي سـنتريس ويـدني بعـض خُلانـي
إذن تبـين دهـري كيـف يرحمنـي مـن ظلـم همـي ومـن عـدوان أحزانـي

وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق في الليل الطويل. فمن ذلك قول شوقي:

بـدأ الطيـف بالجميـل وزادا يـا رسـول الرضـا وقيـت العثـارا
خـذ مـن الجفـن والفـؤاد سـبيلا وتـيمم مـن السـويداء دارا
أنـت إن بـت فـي الجفـون فأهـل عـادة النـور ينـزل الأبصـارا
زارو الحـرب بـين جفنـي ونـومي قـد أعـد الـدجي لهـا أوزارا
سـألتني عـن النهـار جفـوني رحـم الله يـا جفـوني النهـارا
قلـن نبكيـه قلـت هـاتي دموعًـا قلـن صـبرًا فقلـت هـاتي اصـطبارا
يـا ليـالي لـم أجـدك طـوالاً بعـد ليلـي ولـم أجـدكِ قِصـارا
إن مـن يحمـل الخطـوب كبـارًا لا يبـالي بحملهـن صـغارا
لـم نفـق منـك يـا زمـان فنشـكو مـدمن الخمـر لـيس يشـكو الخمـارا

وقال حافظ:

سكن الظلام وبات قلبك يخفق وسطا على جنبيك هم مقلق
حار الفراش وحرت فيه فأنتما تحت الظلام معذب مورق
درج الزمان وأنت مفقود المنى ومضى الشباب وأنت ساهٍ مطرق

وقال القاياتي:

جن الظلام فما يزاح يا ويلتا اين الصباح
ليل كأن نجومه يطلعن في كبدي جراح
يا من اتاح لي الأسى برد الفؤاد متى يتاح
قلب اساه لاعج لولا تحجبه لفاح
ما بال دمعي يستبا ح وحاجتي ليست تباح

وقال العقاد يخاطب الليل:

طويت أزمة الأجساد منا فدانت وانطون عنك القلوب
فما تدري أتسكن حين مالت إلى تلك المضاجع أم تجوب
وما تدري أباتت في جحيم أم الجنات مرتعها الخصيب
وما تدري أيسمع في دجاها هتاف للبلابل أم نعيب
عقدت من الكرى وطنًا رفيقًا وكل مسهدٍ فيه غريب
تضيق به الوسائد والحشايا وتلفظه المسالك والدروب
وحيد لا يقاربه بعيد ولا يدري بلوعته القريب
فيا وطن النيام بكل فج أمن حرج بك السهد المريب
ويا سكن الأحبة والأعادي أليس بساحليك لنا نصيب
ويا دار السلام بأي سد يصد الطرف مربعك الرحيب
لئن هجعت بساحتك المآقي لما هجعت بساحتك الخطوب
كأن جموعهن سباع ليلٍ تبيت على فرائها تلوب
فهل عند الظلام لنا حديث يحاذر أن يلم به رقيب
أم ادخر الظلام لنا متاعًا يضن بلمحه الحلم الكذوب

سهرنا يا ظلام فلم يصبنا   على طول المدى إلا الشحوب
وإلا حلكةً فيها تلاقي   سواد القلب والطرف الكئيب

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل ، وقد يشجيك حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهي خراب ينعب على أطلالها البوم. وانظر كيف يقول:

وناعبةٍ صاحت والليل هجعة   فقال علام البوم ينبعه ناعيا
لقبحت من عمياء تقرأ في الدجى   إذا اسود أسطار الخراب الخوافيا
فقلت على النفس التي تسوف تغتدي   طلولاً بأحناءِ الضلوع حوانيا
تجوس أفاعي الحزن في جنباتها   ويا ربما تؤوي الضلوع الأفاعيا
فلا تحسبن البوم تنعى المغانيا   فقد تندب البوم النفوس البواليا
وكم وحشةٍ للنفس يخشى اقتحامها   أخو غمراتٍ ليس يخشى الفيافيا

وما أجمل قوله في هذه القصيدة:

ولما تقضي الليل إلا أقله   وحان التنائي جشتُ بالدمع باكيا
فأقبل يرعاني ويبكي وربما   بكى الطفل للباكي وإن كان لاهيا
وزحزحني عنه بكف رفيقةٍ   وأسبل أهداب الجفون السواجيا
يقول لقد ران الكرى وتفرقت   نجوم الدجى والديك أصبح داعيا
فقلت وكم من ليلةٍ إثر ليلةٍ   سهرت وقد أمسيت وحدك غافيا
فهب لو داعي من رقادك ليلةً   تمر فاني وقد وهبت حياتيا
وأسلمتُ كفي كفهُ فأعادها   وقلبي ! فهلا أرجع القلب ثانيا؟

الطبيعة في أنفس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعه ، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم ، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين.

ونريد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هذا المنهل ، ونقعوا صداهم بمائه العذب الفرات ، فإن الطبيعة ملك لجميع العيون ، في جميع الأقطار والشعور بها ، والجنوح إليها ، من حاجات الفطرة ، التي تسوي بين مختلف الشعوب ، والتي تجمع حولها شتى العواطف والأهواء.

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكروا من وصف السحاب: إذ كانت بلادهم غزيرة المطر ، وإذ كانت آذانهم ، وأبصارهم ، أليفة لدوي الرعد. ولمع البرق. على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب. ويكفي أن نذكر قول البحتري يصف سحابة:

ذات ارتجازٍ بحنين الرعدِ ... مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع لغير وجدِ ... لها نسيم كنسيم الورد
ورنةٌ مثل زئير الأسد ... ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... ومن وشي انوار البربى في برد
كأنما غدرانها في الوهد ... يلعبن من حبابها بالنرد

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة ، وإخلادهم إلى مواردها الشهية يقرنون الحنين إلى معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسمات.

وإليك قول الشريف:

أمعاهد الأحباب هل عود إلي ... مغدى نبل به الجوى ومراح
يكفيك من أنفسنا ودموعنا ... أن تمطري من بعدنا وتراحي

فلـرب عـيش فيـك رق نسـيمه كالمـاء رق علـى جنـوب بطـاح

وتغـزل كصـبا الأصـائل أيقظـت ريـا خُزامـي بـاللوى واقـاح

كـم فيـك مـن صـاحي الشـمائل منـتش بالـدل أو مرضـى العيـون صـحاح

فسـقى اللـوى صـوب الغمـام ورده وسـقى النـوازل فيـه صـوب الـراح

وقد يقوى شعورهم «بشخصية» الطبيعة ، حتى ليخاطبون الفلك الدائر ، وينذرونه بالفناء ! انظر قول البحتري:

أنـاةً أيهـا الفلـك المـدار انهـب مـا تصـرف ام جبـار

سـتفنى مثـل مـا تفنـى وتبلـى كمـا تُبلـى فيـدرك منـك ثـار

تنـاب النائبـات إذا تناهـت ويـدمر فـي تصـرفه الـدمار

ومـا أهـل المنـازل غيـر ركـبٍ مطايـاهم رواحٌ وابتكـار

وانظر قول أبي القاسم ابن هانيء:

تفنـى النجـوم الزهـر طالعـة والنيـران الشـمس والقمـر

ولـئن تبـدت فـي مطالعهـا منظومـة فلسـوف تنتثـر

ولـئن سـعى الفلـك المـدار بهـا فلسـوف يُسـلمها وينفطـر

وانظر قول العتابي في وداع جارية له:

مـا غنـاء الحِـذار والإشـفاق وشـآبيب دمعـك المهـراقِ

ليس يقوى الوجد منك على الوجـ ـد ولا مقلتـا طلـيح المـآقي

غـدرات الأيـام منتزعـات ماجنينـا مـن طـول هـذا العنـاق

إن قضـى الله أن يكـون تـلاقٍ بعـد مـا تنظـرين كـان تـلاقِ

هـوني مـا عليـك واقنـي حيـاءً لسـت تبقـين لـي ولسـت ببـاق

أثنـا قـدمت صـروف المنايـا فالـذي أخـرت سـريع اللحـاق

غُـر مـن ظـن أن تفـوت المنايـا وُعراهـا قلائـد الأعنـاق

كـم صـيفين مُتعـا باتفـاقٍ ثـم صـارا لغربـة وافتـراق

قلــت للفرقــدين والليــل مُلــقٍ ســـود اكنافـــه علـــى الآفـــاق
أبقيــا مــا بقيتمــا ســوف يُرمــى بــين شخصــيكما بســـهم الفــراق

وإنما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القاريء على مبلغ ما سما إليه العرب حين كلفوا بالنظر إلى الوجود... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بـأبي. كرهـت النـار حتـى أبعـدت فعلمــت مــا معنــاك فــي إبعادهــا
هـي ضـوءٌ لـك فـي التمـاع ضـيائها وهبـــوب نفحتهـــا لـــدى إيقادهـــا
وأرى صنيعك في القلوب صنيعها بســـــيالها واراكهـــــا وعـــــدادها
شـركتك فـي كـل الأمـور بفعلهـا وضـــيائها وصــــلاحها وفســـادها

ولينظر القاريء نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب:

انزعــي الوشــي فهــو يسترحســنًا لـــم تحـــزه بـــرقمهن الثيـــاب
ودعينـــي عســـى أقبـــل ثغـــرًا لــذ فيــه اللمــى وطــاب الرضــاب
وعجيـــب أن تهجرينـــي ظلمًـــا وشـــفيعي إلـــى صـــباك الشـــباب

فإنا نجده تخطى كل الأسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء أغراضهم ، ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه ، حين قال «وشفيعي إلى صباك الشباب» ولم يقل: وشفيعي إلى صباك حبي وهيامي ، ووجدي وغرامي ، وخشوعي وخضوعي. إلى آخر ما يقول المتيمون !

وانظر قول محمد البطليوسي:

غصـبوا الصـباح تقسـموه خـدودًا واســـتنهبوا قضـــب الأراك قـــدودا
رأوا حصــا اليــاقوت دون محلهــم فاســـتبدلوا منـــه النجـــوم عقـــودا
واسـتودعوا حقـد المهـا اجفـانهم فســـبوا بهـــن ضـــراغما وأســـودا
لـم يكفهـم حمـل الأسـنة والضـبا حتـــى اســـتعانوا اعينًـــا ونهـــودا
وتضـــافروا بضـــفائرٍ أبـــدت لنـــا ضـــوء النهـــار بليلهـــا معقـــودا
صــاغو الثغـور مـن الأقـاحي بينهـا مـــاء الحيـــاة لـــو اغتـــدى مـــورودا

ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة ، ولن يغيب على أحد ما فيه من سمو الخيال. وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون ، وكمون الموت في السيوف. في قول السريّ الرفاء:

بنفسي من أجود له بنفسي	ويبخل بالتحية السلام
ويلقاني بعزة مستطيلٍ	وألقاه بذلة مستهام
وحتفي كامن في مقلتيه	كمون الموت في حد الحسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم. وهذا في ذاته ملحظ بديع.

ولننظر قول صردر:

يقول خليلي والظباء سوانح	أهذي التي تهوى ؟ فقلت نظيرها
لئن اشبهت أجيادها وعيونها	لقد خالفت اعجازها وصدورها
فيا عجبًا منها يصد انيسها	ويدنو على ذعر إلينا نفورها
وما ذاك إلا أن غزلان عامرٍ	يثقن بأن الزائرين صقورها
ووالـه ما أدري غداة نظرننا	أتلك سهام أم كؤوس تديرها
فإن كن من نبلٍ فأين حفيفها	وإن كن من خمر فأين سرورها
أيا صاحبي أستأذنا لي خمرها	فقد أذنت لي في الوصال خدورها
هباها تجافت عن خليل يروعها	فهل أنا إلا كالخيال يزورها
وقد قلتما لي ليس في الأرض جنة	أما هذه فوق الركائب حُورها
فلا تحسبي قلبي طليقًا فإنما	له الصدر سجن وهو فيه أسيرها
أراك الحمى قل لي بأي وسيلةٍ	وصلت إلى أن صادفتك ثغورها
وإن فروع البان من أرض بيشةٍ	حبيب إلى ظلها وحرورها
ألذ من الورد الجني عرارها	وأحلى من الشهد المصفى بريرها
على رسلكم في الحب إنا عصابة	إذا ظفرت في الحب عف ضميرها

ولسنا بصدد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر إلى الطبيعة ، فإن هذا باب طويل. وإنما نشير فقط إلى أن الناس سواء في الإحساس بمظاهر الوجود. وإنما يختلفون في طرائق التعبير ، وأساليب البيان.





مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة. فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم. كقول ابن المعتز:

ارد الطرف من حذري عليه   وامنحه التجنب والصدودا
وارصد غفلة الرقباء عنه   لتسرق مقلتي نظرًا جديدًا

وكقول السري الرفاء:

ونواظرٍ وجد المحب فتورها   لما استقل الحي في أغضائه
ما كان هذا البين أول جمرة   اذكت لهيب الشوق في أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها   خوف الفراق أتى على حوبائه[1]
وأنا الفداءُ لمن مخيلة برقه   حظي وحظ سواي من أنوائه
قمر إذا ما الوشي صين أذاله   كيما يصون بهاءه بدهائه[2]
خفر الشمائل لو ملكت عناقه   يوم الوداع وهبته لحيائه
ضعفت معاقد خصره وعهوده   فكأن عقد الخصر عقد وفائه
ادنو إلى الرقباء لا من حبهم   واصد عنه وليس من بغضائه

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العميري:

أيا نخلة مر أن هل لي اليكما   علا غفلات الكاشحين سبيل
أمنيكما نفسي إذا كنت خاليًا   ونفعكما إلا العناء قليل
وما لي شيء منكما غير أنني   أمني الصدى ظليكما فأطيل

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة. كقول أحد الشعراء:

---

(١) الحوباء: النفس.

(٢) أذاله: أهانه.

تبدل هذا السدر أهلا وليتني أرى السدر بعدي كيف كان بدائله

وعهدي به عذب الجنى ناعم الذرى تطيب وتندى بالعشي أصائله

فما لك من سدرٍ ونحن نحبه إذا ما وشى الواشي بنا لا تجادله

كما لو وشى بالسدر واش رددته كثيبًا ولم تصلُح لدينا شمائله

وكقول كثير:

فيا عز إن واشٍ وشى بي عندكم فلا تكرميه أن تقولي له أهلا

كما لو وشى واشٍ بعزة عندنا لقلنا: تزحزح لا قريبًا ولا سهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة ، فيما أدعوا من سلوانه ، كقول أبي حية النميري:

وخبرك الواشون إن لن أحبكم بلى وستور الله ذات المحارم

وإن دمًا لو تعلمين جنيته على الحي جاني مثله غير سالم

اصدر وما الصد الذي تعلمينه عزاءً بناء إلا ابتلاع العلاقم

حياءً وتقيا أن تشيع نميمة بنا وبكم ، أفٍ لأهل النمائم

ومن المعذبين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده ، في حين أن من يهواه يأتمر بأمر الوشاة. ويسمع نُصح اللائمين.

فمن ذلك قول الأبيوردي:

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى واقتل ألحاظ الملاح كحيلها

مريضة أرجاء الجفون وإنما أصح عيون الغانيات عليلها

فولت وقد أبقت بقلبي علاقة تمر بها الأيام وهي مقيلها

وقلت لأدنى صاحبي وقد وشى بسري دمعي إذ تراءت حمولها

ذر اللوم أني لست أرعيك مسمعي فتلك هوى نفسي وأنت خليلها

وليت لسانًا أرهف العذل غربه على الصب مفلول الشباة كليلها

أرد عذر لي وهو يحضني الهوى بغيظ ، ويحظى بالقبول عذولها

ويعتادني ذكر العقيق وأهله بحيث الحمام الورق شادٍ هديلها

تنوح وتبكي فوق أفنان أيكةٍ فداهن من أرض العراق تخيلها

ولـولا تبـاريح الصـبابة لـم أبـل بكاهـا ولا اذرى دمـوعي عويلهـا

ومن بديع الشعر في مدافعة الوشاة ، قول الرصافي الأندلسي في غلام حائك:

قـالوا وقـد أكثـروا فـي حبـه عـذلي لـو لـم تهـم بمـذال القـدر مبتـدلِ
فقلت لو كان أمري في الصبابة لي لاختـرت ذاك ولكـن لـيس ذلـك لـي
علقتـه حبـي الثغـر عـاطره حلـو اللمـى سـاحر الأجفـان والمقـل
غزيـل لـم تـزل مـن الغـزل جائلـةً بنانـه جـولان الفكـر فـي الغـزل
جـزلان تلعـبُ بـالمحواك أنملـه علـى السـدى لعـب الأيـام بالأجـل
ضـما بكفيـه أو فصـحًا بأخمصـهِ تخـبط الظبـي فـي أشـراك محتبـل

وأحب لو تأمل القاريء هذه (الصورة الشعرية) التي تمثل هذا الحائك الجميل. بالظبي بتخبط في الأشراك. وأنها لوثبة من وثبات الخيال.

بخل الحسان

نذكر هنا طرفًا مما قال الشعراء في بُخل الحِسان: وكل حسنواء بخيلة ، ودل جميل ضنين ! وأشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيار:

يــا لــواة الــدين عــن ميســرةٍ ... والبخــــيلات مـــا كـــن لئامـــا

حملـــوا ريـــح الصـــبا نشـــركم ... قبـــل أن تحمـــل شـــيحًا وخزامـــي

وابعثـوا لـي فـي الكـرى طـيفكم ... إن أذنـــتم لجفـــوني أن تنامـــا

ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كثير التائية ، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعغة ، عند بخل الحبيب. وهي فوق ذلك غُرة من غرر الآداب العربيه. قال:

خليلــي هــذا ربــع عــزة فــاعقلا ... قلوصــيكما ثــم أبكيــا حيــث حلــتِ

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ... ولا موجعــات القلــب حتــى تولــت

فقد حلفت جهدًا بما نحرت له ... قـــريش غـــداة المـــأزمين وصـــلت

أناديك ما حج الحجيج وكبرت ... بفيفـــا غـــزال رفقـــة واهلـــت

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كنـــا ذرة نـــذرًا فأوفـــت وحلـــت

فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذ أوطنت يومًا لها النفس ذلت[1]

ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعةً ... تعـــم ولا غمـــاءَ إلا تجلـــت[2]

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت[3]

---

[1] ذلت هانت.

[2] الميعة والغماء ، الشدة ، وتجلت ، انصرفت.

[3] العصم ، جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياص وسائره أسود أو أحمر. وزلت: زلقت.

صفوحًا فما تلقاك إلا نجيلة فمن مل منها ذلك الوصل ملت[١]
أباحت حمىً لم يرعه الناس قبلها وحلت تلاعًا لم تكن قبل حُلت[٢]
فليت قلوصي عند عزة قيدت بحبل ضعيف غُر منها فضلت
وغودر في الحي المقيمين رحلها وكان لها باغٍ سواي فبلت[٣]
وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلت
وكنت كذات الظلع لما تحاملت على ظلعها بعد العثار استقلت[٤]
أريد الثواء عندها وأظنها إذا ما أطلنا عندها المكث ملت
فما أنصفت أما النساء فبغضت إلي وأما بالنوال فضنت
يكلفها الغيران شتمي وما بها هو أني ولكن للمليك استدلت
هنيئًا مريئًا غير داءٍ مخامرٍ لعزة من أعراضنا ما استحلت
فوالله ما قاربت إلا تباعدت بصرمٍ ولا أكثرتُ إلا أقلت
فإن تكن العتبى فأهلا ومرحبًا وحقت لها العتبى لدينا وقلت[٥]
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا منادح لو سارت بها العيس كلت[٦]
فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت بعافية أسبابه قد تولتِ
أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلتِ[٧]
ولكن أنيلي واذكري من مودةٍ لنا خُلة كانت لديكم فطلت
فإني وإن صدت لمثنٍ وصادق عليها بما كانت إلينا أزلت[٨]

---

(١) صفوح ، معرضة.

(٢) التلاع ، جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض.

(٣) بلت المطية: ضلت.

(٤) ضلع البعير: غمز في مشيه. واستقل: نهض من عثرته.

(٥) العتبي والاعتاب: الترضية.

(٦) المنادح: جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض.

(٧) تقلت: ظهرت بالقلى وهو البغض. ومقلية: مغبوضة.

(٨) أزلت: أسدت.

فمـا أنـا بالـداعي لعـزة بـالجوى ... ولا شـامت إن نعـل عـزة زلـت

فـلا يسحب الواشـون أن صـبابتي ... بعـزة كانـت غمـرة فتجلـت

فأصبحت قد أبللت من دنفٍ بها ... كما ادفنـت هيمـاء ثـم اسـتبلت[1]

فـوالله ثـم الله مـا حـل قبلهـا ... ولا بعـدها مـن خُلـة حيـث حلـت

ومـا مـر مـن يـوم علـي كيومهـا ... وإن عظمـت أيـام أخـرى وجلـت

واضحت بأعلى شاهق من فـؤاده ... فـلا القلـب يسـلوها ولا العـين ملـت

فيـا عجبًـا للقلـب كيـف اعترافـه ... وللـنفس لمـا وطنـت كيـف ذلـت[2]

وإنـي وتهيـامي بعـزة بعـدما ... تخليـت ممـا بيننـا وتخلـت

لكـا لمرتجـى ظـل الغمامـة كلمـا ... تبـوأ منهـا للمقيـل اضـمحلت

كـأني وإياهـا سـحابة ممحـل ... رجاهـا فلمـا جاوزتـه اسـتهلت[3]

فـإن سـأل الواشـون فـيم هجرتهـا ... فقـل نفسُ حـر سـليت فتسـلت[4]

ومن الشعراء من ينص على أن شح الحسان سماحة ، كالتهامي حين يقول:

ماتـت للقـد الظـاعنين ديـارهم ... فكـأنهم كـانوا بهـا أرواحـا

ولقـد عهـدت بهـا فهـل أرينـه ... مغـدىً لمنتجـع الصـبى ومراحـا

---

[1] أبل من مرضه بريء منه. والدنف المرض. والهيماء: المريضة بالهيام وهو داء يصيب الإبل فلا تصبر على الماء.

[2] الاعتراف: الاصطبار. وذلت: رضيت.

[3] ممحل: أصابه المحل وهو القحط.

[4] تلك هي تائية كثير. ولقد كان بها جد مفتون. حتى أنه سئل أنت أشعر أم جميل؟ فقال: بل أنا. فقيل له: أتقول هذا وأنت راويته ؟ فقال: جميل يقول:

رمـى الله في عيـني بنينـة بالقـذى ... وفي الغـر مـن أنيابهـا بـالقوادح

وأنا أقول:

هنيئًـا مريئًـا غـير داء مخـامر ... لعـزة مـن أعراضـنا مـا اسـتحلت

بالنافثـــات النافـــذات نـــواظرًا والنافـــــذين أســـــنة وصـــــفاحا

وأرى العيـــون ولا كـــأعين عـــامرٍ قـــدرًا مـــع القـــدر المتـــاح مُتاحـــا

متـــوارثي مـــرض الجفـــون وإنمـــا مـــرض الجفـــون بـــأن يكـــن صـــحاحا

مـــن كـــان يكلـــف بالأهلـــة فليـــزر ولـــــدي هـــــلال رغبـــــة وبراحـــــا

لا عيـــب فـــيهم غيـــر شـــح نســـائهم ومـــن الســـماحة أن يكـــن شـــحاحا

طرقتـــه فـــي أترابهـــا فجلـــت لـــه وهنـــا مـــن الغـــرر الصـــباح صـــباحا

أبـــرزن مـــن تلـــك العيـــون أســـنةً وهـــززن مـــن تلـــك القـــدود رماحـــا

يـــا حبـــذا ذاك الســـلاح وحبـــذا وقـــت يكـــون الحســـن فيـــه ســـلاحا

ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة ، وهو جواد الكف. وذلك قوله:

نأيت فحرمت الجفون على الكرى وأغريـــت دمـــع العـــين بـــالهملان

وأعهـد قبـل البـين قلبـي يطيعنـي ولكنـــــه يـــــوم الـــــدواع عصـــــاني

ومـا زال مطبوعًـا علـى الصـبر قلبًـا ســـــواء بعـــــاد عنـــــده وتـــــداني

فمـا بالـه يـوم النـوى سـار منجدًا مـع الركـب فـي أسـر الصـبابة عـان

فليـــت طبيبًـــا امرضـــتني جفونـــه وفـــي يـــده منهـــا الشـــفاء شـــفاني

وليت غريمي في الهوى وهو واجد تحـــــرج مـــــن ليانــــه فقضـــــاني[1]

ولولا الهوى يا آل خنساء لم يكن ليملكنـــــي مـــــنكم خضـــــيب بنـــــان

ولا بـت فـي أبيـاتكم سـائلا قـرى بغيـــــر قنًـــــا أو طالبًـــــا لأمـــــان

أرجـي جـواد الكـف عطـف بخيلـة وأخشـى حديـد القلـب فتـك جبـان

وقبلـك مـا انهضـتُ عزمـي لحاجـةٍ فأدركتهـــــا إلا بحـــــــد ســـــــنان

وأولـــى بمثلـــي أن يكـــون مهـــادهُ ســـرير حصـــانٍ لا ســـرير حصـــان

وبي أنف أن أقتضي بسوى الظبي ديـــوني إذا غيـــر الحبيـــب لـــو أنـــي

---

[1] الليان: مصدر لوى. يقال: لوى غريمه إذا مطله.

الأمر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب ، ثم يجعل الأمر كله للحب. كما أنشد أحمد بن يحيى:

من كان يزعم أن سيكتم حبه ... حتى يُشكك فيه فهو كذوب
الحب أغلب للفؤاد بقهره ... من أن يُرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه ... لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إني لأبغض عاشقًا متسترًا ... لم تتهمه أعين وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الأقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه ، واستأثرت به من بين النساء:

يقر بعيني إن أرى ضوء مزنةٍ ... يمانيةٍ أو أن تهب جنوب
لقد شغفتني أم بكر وبغضت ... إلى نساءً ما لهن ذنوب
أراك من الضرب الذي يجمع الهوى ... ودونك نسوان لهن ضروب
وقد كنت قبل اليوم أحسب أنني ... ذلول بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كلا لوضوح في قول الضحاك:

يقولون مجنون بسمراء مولع ... ألا حبذا جن بنا وولوع
وأني لأخفي حب سمراء منهم ... ويعلم قلبي أنه سيشبع
ولا خير في حب يكن كأنه ... شغاف أجنته حشًا وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار ، لروعة الحسن في محبوبه ، وصولة الحب في قلبه. كقول عمارة اليمني:

ظبي اعار الليل طرة شعره ... وأمد ضوء الصبح بالاشراق

وسـنان ذاب السـحر فـي آماقـه وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي
كتب الجمال على صحيفة خده عـذر المحـب وحجـة المشـتاق
مـا كنـت أدرى يـوم رؤيـة وجهـه إن الخـدود مصـارع العشـاقِ

وأحب أن يتأمل القاريء جمال التصوير في قوله:

وسـنان ذاب السـحر فـي آماقـه شـهي وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي

فقد جعل الدمع ذوب الروح ، وهو خيال بديع[1]. وعذر المحب الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء:

يـا ملـيح الـدل والغـنج لـك سـلطان علـى المهـج
إن بيتًـا أنـت سـاكنه غيـر محتـاجٍ إلـى السـرج
وجهـك المعشـوق حجتنـا يـوم يـأتي النـاس بـالحجج



[1] في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال ، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالي الرقص في مصر الجديدة ، فليراجعها القاريء إن شاء.

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد. فمنهم من يقصد إلى غرس الرفق في قلوب أحبابه ، بوصف ما هو عليه من الخطر ، كقول الطغرائي:

ويـا أيهـا الغـادي تحمـل رسـالة   علـى مـا بهـا إن الحـديث طويـل
وقل للأولى حلوا الحمى سقي الحمى   عــزاءكم فالعــامري قتيــل

ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه. وأطرف ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول الوأواء الدمشقي:

بـالله ربكمـا عوجـا علـى سـكنى   وعاتبـاه لعـل العتـب يعطفـه
وحـدثاه وقـولا فـي حـديثكما   مـا بـال عبـدك بـالهجران تتلفـه
فـإن تبسـم قـولا فـي ملاطفـة   مـا ضـر لـو بوصـال منـك تعسـفه
وإن بـدا لكمـا فـي وجهـه غضـب   فغالطـاه وقـولا لـيس نعرفـه

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة:

فأتتهـا طبـة عالمـة   تمـزج الجـد مـرارًا باللعـب
تُغلـظ القـول إذا لانـت لهـا   وتراخـى عنـد سـورات الغضـب

قيل أن ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر: ما أحوج المسلمين إلى خليفة يدير أمورهم مثل قوادتك هذه[1]. ولعله تذكر قول معاوية: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل وكيف ذاك ؟ فقال إذا شدوا تراخيت وإن تراخوا شددت:
وقد تلطف البها زهير في وصية الرسول بقوله:

فيـا رسـولي إلـى مـن لا أبـوح بـه   إن المهمـات فيهـا يعـرف الرجـل

---

[1] في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء.

بلغ سلامي وبالغ في الخطاب له وقبل الأرض عني حينما تصل

بالله عرفه حالي إن خلوت به ولا تطل فحبيبي عنده ملل

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله:

إن المهمات فيها يُعرف الرجل

فكأنما هي قيادة حربية ، لا قيادة غرامية !

ومنهم من يحمل النسيم تحياته إلى من يهوى. كمتا قال بعض الظرفاء:

فيا نسيم الصبا أنت الرسول له والله يعلم أني منك غيرانُ

بلغ سلامي إلى من لا أكلمه إني على ذلك الغضبان غضبان

لا يا رسولي لأتذكر له غضبي فذاك مني تمويه وبهتان

وكيف أغضب لا والله لأغضب إني لما رام من قتلي لفرحان

أكل يوم لنا رسل مرددة وكل يوم لنا في العتب ألوان

أستخدم الريح في حمل السلام لكم كأنما أنا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال:

أنا أهوى غصن النقا وهولاءٍ وفؤادي بحبه في التيه

يا نسيم الصبا ترفق عليه وتلطف به ولا تؤذيه

وتحمل رسالة ليس إلا ك أمينًا في حملها أرتضيه

وإذا لم يكن رسولي نسيما نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكي أن ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من أدباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار. فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة ، فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه. فقال الجزار: قفوا ! لينظم كل منا شيئًا في هذا ! فقال ابن سعيد:

الريح أقودُ ما تكونُ لأنها تُبدي خفايا الردف والاعكان

وتميل بالأغصان عند هبوبها حتى تقبل أوجه الغدران

ولـــذلك الأحبـــاب يتخـــذونها رســـلا إلـــى الأحبـــاب والأوطـــان

وهو شعر حسن. غير أنه لا وجه لذكر الأوطان في هذا الموطن إذ لا علاقة لها بالقيادة. ولو قال الخلان أو الأخدان لكان انسب وأقرب إلى المراه. وقال ابن الخياط:

يـا نسـيم الصـبا الولـوع بوجـدي حبـــذا أنـــت لـــو مـــررت بهنـــدِ
ولقـــد رابنـــي شـــذاك فباللـــ ـــه متـــى عهـــده بـــأظلال نجـــد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه ، وتبليغ شكواه ، كقول الشريف:

دعـا بالوحـاف السـود مـن جانـب الحمـــــــــــــــــــــــــــى لــديغ هــوى لبيــت حــين دعــاني
تعجـب صـحبي مـن بكـائي وأنكـروا حــوابي لمــا لــم تســمع الأذنــان
فقلـت نعـم لـم تسـمع الأذن دعـوة بلـــى إن قلبـــي ســـامع وجنـــاني
ويـا أيهـا الركـب اليمـانون ختبـروا طليقًــا بــأعلى الخيــف أنــي عــاني
عــدوه لقــائي أو عــدوني لقــاءه ألا ربمـــا دانيـــت غيـــر مـــدان

وهذا شعر موجع ، يغري القلب بالحزن ، والعين بالدمع ، وأشجى منه قول مهيار:

تحرش بأحقاف اللوى عمر ساعةٍ ولـولا مكـان الريـب قلـت لـك ازددِ
وقل صاحب لي ضل بالرمل قلبه لعلـــك أن يلقـــاك هـــادٍ فتهتـــدي
وسـلم علـى مـاءٍ بـه بُـرد غُلتـي وظــل أراكٍ كــان للوصـــل موعـــدي
وقُـــل لحمـــام البـــانتين مهنئًـــا تغـــن خليًـــا مـــن غرامـــي وغـــردِ
أعنـــدكم يـــا قـــاتلين بقيـــة علـى مهجـةٍ إن لـم تمـت فكـأن قـد
ويـا أهـل نجـدٍ كيـف بـالغور بعـدكم بقـــاء تهـــامي يهـــيم بمنجـــد
ملكـــتم عزيـــزًا رِقُّـــهُ فتعطّفـــوا علـــى منكـــرٍ للـــذل لـــم يتعـــود

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال: خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرض بشعب بوان رأيت على حائط مكتوبًا بخط جليل:

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة علـى شـعب بـوانٍ أفـاق مـن الكـرب

وألهـــاه بطـــن كـــالحريرة مســـه ومطـرد يجـري مـن البـارد العـذاب

وطيــب ثمــار فــي ريــاض أريضــةٍ وأغصــان أشــجار جناهــا علــى قــرب

فبــالله يــا ريــح الجنــوب تحملــي إلـى شـعب بـوانٍ سـلام فتـى صـب

وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه:

فبـع ليـت شـعري عـن الـذين تركتنـا خلفنـــا بـــالعراق هـــل يـــذكرونا

أم لعــل المــدى تطــاول حتــى قـــدُم العهـــد بيننـــا فنســـونا

ولا يفوتنا أن نمتع القاريء بقول الشريف:

حــي بــين النقــاوبين المصــلى وقفـــات الركائـــب الأنضـــاء

ورواح الحجـــيج ليلـــة جمـــع ويجمـــع مجـــامع الأهـــواءِ[1]

وتعهــد ذكــري إذا كنــت بالخيــ ـف لظبـى مـن بعـض تلـك الظبـاء

قـل لـه هـل نـراك تـذكر مـا كـا ن ببـــاب القبيبـــة الحمـــراءِ

قـال لـي صـاحبي غـداة التقينـا نتشـــاكى حـــر القلـــوب الظمـــاء

كنــت خبرتنــي بأنــك فــي الوجــ ـــد عقيـــدي وأن داءك دائـــي

مــا تــرى النفــر والترحــل للبيــ ـــن فمـــاذا انتظارنـــا بالبكـــاءِ

لـم يقلهـا حتـى انثنيـت لمـا بـي أتلقـــى دمعـــي بفضـــل ردائـــي

---

(1) ترد كلمة «جمع» كثيرًا في شعر الشريف ، وهو من مناسك الحج ، ويوم جمع يوم عرفة ، وأيام جمع أيام منى.

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم ، بل الدمع يرسله الوفاء. لأن عبرة النادم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف. أما عبرة المودع فهي رفق بمحبه الذي أشجاه الفراق !

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع:

إن الـــذين غـــدوا بلبـــك غـــادروا   وشـــلاً بعينـــك مـــا يـــزال مَعِينـــا
غيضـــن مـــن عبـــراتهن وقلـــن لـــي   مـــاذا لقيـــت مـــن الهـــوى ولقينـــا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه. وما أبدع قول الظاعنات:

ما لقيت من الهوى ولقينا !

ومثله قول ابن التعاويذي:

لمــــــا وقفنــــــا للــــــودا   شـــه ع وقـــد دعـــا داعـــي الرحيـــل
وتخاذلــــت أنصــــار دمعـــ   ـــي فـــي هـــوى الظبـــي الخـــذول
قالــــت وأدمعهــــا تسيـــ   ـــل أســـىً علـــى الخـــد الأســـيل
يـــا بـــين كـــم أجليـــت يـــو   م نــــوى الأحبــــة عــــن قتيــــل

وهذا شعر خفيف الروح ، لطيف النسيم. ويشبه قول بعض الأعراب:

وممـــا شـــجاني أنهـــا ودعـــت   تولـت ومـاء العـين فـي الجفـن حـائرُ
فلمـــا أعـــادت مـــن بعيـــد نظـــرةٍ   إلـــي التفاتًـــا أســـلمته المحـــاجر

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول:

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت   تُعـــيض دمعًـــا فـــاض وابلـــه ســـكبا
مهفهفـــة لـــم تـــرض أترابهـــا لهـــا   ببدر الدجى شبهًا وشمس الضحى تربا
تـــنفسُ حتـــى يُســـلم العقـــدَ ســـلكهُ   وأكظـــم وجـــدًا كـــاد ينتـــزع القلبـــا

وتــذري شــآبيب الــدموع كأنمــا أذابــت بعينيهــا النــوى لؤلــؤًا رطبــا

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان أنسب بموقف التوديع.

ومثلها في ذلك قول السري الرفاء:

تنــادوا لتفريــق الفريــق فأصــبحت مـــدامعنا تنـــدى لفـــرقتهم دمـــا

سلام علــى مــن ســار قلــب محبــه إليــه فلــم يرجــع صــحيحًا مســلمًا

يحــلُّ عقــود الــدر دمعًــا ومنطقًــا وينظمهــا حليصــا عليــه ومبســما

أمــاط عــن الغــذب اللثــاةِ لثامــه فعـــاد بـــديباج الحيـــاء ملثمـــا

وكلمنـــي جفنـــاه بالـــدمع خفيـــة فهـــم غليـــل الشـــوق إن يتكلمـــا

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبته التباكي ، وإلى نفسه مر البكاء ، ثم يفرق بين العبرتين ، ويميز بين الزفرتين. كالأرجاني إذ يقول:

ســفرت كــي تــزود الحــب منهــا نظـــرة حـــين آذنـــت بالتنـــائي

ورأت أنهـــا مـــن الوجـــد مثلـــي ولهـــا للفـــراق مثـــل بكـــائي

فتباكــت ودمعهــا كســقيط الطــل فــــي الجلنــــارة الحمــــراء

فتــرى الــدمعتين فــي حمــرة اللــو نِ ســـواء ومـــا همـــا بســـواء

خـــدها يصـــبغ الـــدموع دمعـــي يصـــبغ الخـــد قانيًـــا بالـــدماء

خضــب الــدمع خــدها بــاحمرار كاختضـــاب الزجـــاج بالصـــهباء

وما أدري بأن قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء !! وما أرفق المتنبي إذ يقول:

وجلا الـوداع مـن الحبيـب محاسنًا حُســن العــزاء وقــد جلــين قبــيحُ

فيــد مســلمة وطــرف شــاخص وحشًــا يــذوب ومــدمع مســفوح

أمل تر إليه وقد انخلع قلبه ، حين رأى حبيبته باكية ، فلم يذكر إلا أنها جميلة ، وأن الصبر على فراقها أعز منالا من نجوم السماء !

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء:

فبـع زارت على غفلـة مـن الحـرسِ تهــدي إلــيّ الســلام فــي الغلــسِ
أنــي تجشــمت نحـو أرحلنـا الهـو ل ولــــم ترهبـــي أذى العســـس
قالـت ترامـى بنـا إليـك مـن الشـو ق مُغِـــصٌ بالبـــارد الســـلس
كـم زفـرة لـي تبيتـت تـنهض أحشـا ئـــي ومـــع عليـــك منـــبجس
وأنـــت لاهٍ بغيرنـــا ولنـــا منـك هـوى ممسـك علـى الـنفس
عجبت مـن ذلتي ومـن قلبـك القا ســي علينـــا وخلقـــك الشـــكسِ
لا تـــأمنن الهـــوى وســـطوته واخـــش رداه ومنـــه فـــاحترسِ

وهـذا الشـعر جميـل فـي معنـاه ، ولكـن يظهـر أن أُسـلوبه لا يمثـل الرقـة فـي نجـوى الحسناء ، وقد مسها الحب بناره ، وأحرقها بجواه ! ولو تناول ابن أبي ربيعة أو ابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثيابًا أرق من هذه الثياب ، وأُسلوبًا غير هذا الأسلوب !

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل:

لمـا دنـا البـين بين الحي واقتسـموا حبـل النـوى فهـو فـي أيـديهم قطـع
جـادت بأدمعهـا ليلـى وأعجلنـي وشـك الفـراق فمـا أُبقـي ومـا أدعُ
يا قلب ويحك ما عيشي بذي سلم ولا الزمـان الـذي قـد مـر مُرتجـع
أكلمـــا بـــان حـــي لا تلائمهـــم ولا يـــالون أن يشـــتاق مـــن فجعـــوا
علقتنـي بهـوى غـنهم فقـد جعلـت مـن الفـراق حصـاة القلـب تنصـدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع ، فالشاعر هنا شائق ومشوق. ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرته الحسناء. ومن هذه الناحية بعجبني ما أنشده صاحب الأمالي:

ولمـــا رأت أن النـــوى أجنبيـــة وأن خلـــيلاً مـــن غـــد ســـيبينُ
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى وكـــل بكـــلٍ إن يبـــين ضـــنينُ
فقلـت ولـم أملـك سـوابق عبـرة علـى الخـد منـي فالـدموع هتـون
لقد كنت أبكي قبل أن تشحط النوى فكيـف إذا مـا غبـت عنـك أكـون

وانظر كيف يصف العرجي خوف محبوبته من فراقه:

وما أنسِ ملأشياء لا أنس موقفًا لنا ولها بالسفح دون ثبير

ولا قولها وهنًا وقد بل جيبها سوابق دمع لا يخف غزير

أأنت الذي خبرت أنك باكر غداة غد أو راحل بهجير

فقلت يسير بعد شهر أغيبه وما بعض يوم غبته بيسير

وقلت لها قول امريء شفه الهوى إليها ولو طال الزمان فقير

فما أنا إن شطت بك الدار أو نأت بي الدار عنكم فاعلمي بصبور

وكنا نحب أن نعلم بقية العتاب في قوله:

أحين عصيت العاذلين إليكم ونازعت حبلي في هواك أميري

وباعدني فيك الأقارب كلهم وباح بما يخفي اللسان ضميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة.

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل ، لأنه من أحاديث الرجال. ولو أن المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق. وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهود:

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله وتنقض مني بالمغيب وثائقه

حبيب أبي إلا اطراحي وبغضتي وفضله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب:

محا حب يحيى حب يعلي فاصبحت ليحيى توالي حبنا وأواثله

وحيث التقت من متن يحيى حمائله

ألا بأبي يحيى ومثنى ردائه

فإن هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال. وما أوجع الشوق في قول هذه الشاعرة:

أأُضـرب فـي يحيـى وبينـي وبينـه تنـائف لـو تسـري بهـا الرحـي كلـتِ
الا ليـت يحيـى يـوم عـيهم زارنـا وإن نهلـت منـي السـياط وعلـت

وفي الآداب العربية قطع منثورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل ، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تمامًا نفوس النساء ، ولا تزال لغزًا من الألغاز ، ولو أنها تحدث عن عواطفها كما تحدثت الرجل عن عواطفه ، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ !





ندم المفارق

أشهر الشعر في ندم المحب ، على فراق من يحب ، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبني. قال محمد بن زياد الاعرابي: لما ألحّ ذُرَيح على ابنه قيس في طلاق لبني ، فأبي ذلك قيس ، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله. لا أريم هذا الموضع حتى أموت. أو يخليها. فجاءه قومه من كل ناحية ، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: أتفعل هذا بأبيك وأمك ، وإن مات شيخك على هذه الحال كنت معينًا عليه وشريكًا في قتله ، ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره. وبكى حتى بكى لهما من حضرهما. وانشأ يقول:

أقول لُخلتي في غير جرمٍ	ألا بيني بنفسك أنت بيني
فوالله العظيم لنزع نفسي	وقطع الرجل مني واليمين
أحب إلي يا لبنى فِراقًا	فبكى للفراق واسعديني
ظلمتك بالطلاق بغير جرمٍ	لقد أذهبت آخرتي وديني

قال: فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدًا وأنشأت تقول:

رحلت إليه من بلدي وأهلي	فجازاني جزاء الخائنينا
فمن يرني فلا يغتر بعدي	بحلو القول أو يبلو الدفينا

فلما انقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتيت براحلة لتحمل عليها. فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم ، واشتد لهفه ، وأنشأ يقول:

يا بنت لبينى فأنت اليوم متبول	وأنك اليوم بعد الحزم مخبول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة	ودل لبنى ، لها الخيرات ، معسول
هل ترجعن نوى لبنى بعافية	كما عهدت ليالي العشق مقبول
وقد أراني بلبنى حق مقتنع	والشمل مجتمع والحبل موصول

فصرت من حب لبنى حين أذكرها   القلب مرتهن والعقل مدخول
أصبحت من حب لبنى حين أذكرها   في كربة ففؤادي اليوم مشغول
والجسم مني منهوك لفرقتها   أخو هُيام مصاب القلب مسلول
استودع الله لبنى إذ تفارقني   عن غير طوع وأمر الشيخ مفعول

ثم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبل موضع رجليها من الأرض وحول خبائها فلما رأى ذلك قومه اقبلوا على أبيه بالعذل واللوم ، فقال ذريح لما رأى حاله: قج جنيت عليك يا بُني ! فقال له قيس: قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي. فالله حسبك وحسب أمي !! واقبل قومه يعذلونه بتقبيله التراب ، فأنشأ يقول:

فما حبي لطيب تراب أرضٍ   ولكن حب من وطيء الترابا
فهذا فعل شيخنا جميعًا   أرادا لي البلية والعذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم ، وأدل على لوعته وأسفه لفراق لبنى كقوله:

تُبكي على لبنى وأنت تركتها   وكنت كآتٍ غيهُ وهو طائعُ
فلا تبكين في إثر شيء ندامة   إذا نزعته من يديك النوازع
فليس لأمر حاول الله جمعه   مُشِتٌ ولا ما فرق الله جامع
كأنك لم تقنع إذا لم تلاقها   وإن تلقها فالقلب راض وقانع
فيا قلب خبرني إذا شطت النوى   بلبنى وصدت عنك ما أنت صانع
اتصبر للبين المشت مع الجوى   أم أنت امرؤٌ ناسي الحياء فجازع
فما أنت إن بانت لبينى بهاجع   إذا ما استقلت بالنيام المضاجع
وكيف ينام المرء مستشعر الجوى   ضجيج الأسى فيه نكاس روادع
ولا خير في الدنيا إذا لم تُواتنا   لبينى ولم يجمع لنا الشمل جامع
ولولا رجاء القلب إن تعطف النوى   لما حملته بينهن الأضالع
له وجبات إثر لبنى كأنها   شقائق برق في السحاب لوامع
نهاري نهار الناس حتى إذا دجا   لي الليل هزتني إليك المضاجع
أقضي نهاري بالحديث وبالمنى   ويجمعني بالليل والهم جامع

ألا إنما أبكي لما هو واقع وهل جزع من وشك بينك نافع

ومن جيد شعره أيضًا هذه القصيدة:

سأصرم لبنى حبل وصلك مجملا ش وإن كان صرم الحبل منك يروعُ

وسوف أسلي النفس عنك كما سلا عن البلد النائي البعيد نزيع

وإن مسني للضر منك كآبة وإن نال جسمي للفراق خشوع

سقى طلل الدار التي أنتم بها بشرقيٍّ لبنى صيف وربيع

يقولون صب بالنساء مُوكل وما ذاك من فعل الرجل بديع

مضى زمن والناس يستشفعونني فهل لي إلى لبنى الغداة شفيع

أيا حرجات الحي حيث تحملوا بذي سلمٍ لاجادكن ربيع

وخيماتك اللاتي بمنعرج اللوى بلين بلى لم تبلهن ربوع

إلى الله أشكونية شقت العصا هي اليوم شتى وهي أمس جميع

وإن انهمال العين بالدمع كلما ذكرتك وحدي خاليًا لسريع

فلو لم يهجني الظاعنون لها جنى حمائم ورق في الديار وقوع

تجاوبن فاستبكين من كان ذاهوى نوائح ما تجري لهن دموع

لعمرك أني يوم جرعاء مالكٍ لعاص لأمر المرشدين مُضيع

ندمت على ما كان مني ، فقدتني كما يندم المغبون حين يبيع

إذا ما لحانوي العاذلات بحبها أبت كبد مما أجن صديع

وكيف أطيع العاذلات بحبها يؤرقني والعاذلات هجوع

عدمتك من نفس شعاع فإنني نهيتك عن هذا وأنت جميع

فقربتِ لي غير القريب وأشرقت هناك ثنايا ما لهن طلوع

وضعفني حبيكِ حتى كأنني من الأهل والمال التلاد خليع

وحتى دعاني الناس أحمق مائقًا وقالوا مطيع للضلال تبوع

ويعجبني قوله:

ندمت على ما كان مني ، فقدتني! كما يندم المغبون حين يبيع

وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف ، فإنه فُجع بفر جليلته ، والحلية المعشوقة متاع عزيز.

وفي وصف اثر الطلاق يقول أحد الأعراب:

ندمت وما تغني الندامة بعدما جرجن ثلاث ما لهن رجوع
ثلاث يُحرّ من الحلال على الفتى ويصدعن شعب الدار وهو جميع

والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق ، ما كان يغنى عنه أن يقول: (ويصد شعب القلب) لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه.

ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية ابن زريق ، وقد ترك ابنة عمه بغداد ورحل إلى الأندلس في سبيل الرزق ، ثم حيل بينه وبين ما يريد ، فأرسل هذه الزفرة الباقية:

استودع الله في بغداد لي قمرًا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعهُ
ودعته وبودي لو يودعني صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى وأدمعي مستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق مني بفرقته لكن أرقعه
إني أوسع عذري في جنايته بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته كذلك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسًا ثوب النعيم بلا شكر عليه فعنه الله ينزعه
أعتضت من وجه خلي بعد فرقته كأسًا يُحرّع منها ما أجرعه
كم قائل لي ذنب البين قلت له الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه لو أنني حين بات الرشد أتبعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد في سفرتي هذه إلا واقطعه
يا من أقطع أيامي وأنفدها حرنًا عليه وليلى لست أهجعه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفعجني به ولا إن بي الأيام تفجعه

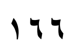
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد عسراء تمنعني حقي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعًا فرقًا فلم أوق الذي قد كنت أجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درست آثاره وعفت مذ بعت أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله وجاد غيث على مغناك يُمرعه
من عنده لي عهد لا يضيع كما عندي له عهدي صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لاصبرن لدهر لا يمتعني به ولا بي في حال يمتعه
علمًا بأن اصطباري معقب فرجًا فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
على الليالي التي اضنت بفرقتنا جسمي ستجمعني يومًا وتجمعه
وإن تغل أحدًا منا منيته لابد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبدًا هذا الفراق لنا فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعض من بعدها البنان. فلنذكرها على سبيل الفكاهة ، لما فيها من ظرف المجنون:

أستغفر الله من تركي علانية ذنبًا هممت به في شادن خنث[1]
ظبي دعتني عيناه ومنطقه بنية صدقت عن ظاهر عبث
فلم أجبه وحظي في إجابته لكن سكت كأني غير مكترث
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني والله ما كنت فيها بالفتى الدمث
أقسمت بالله لما كنت محتجزًا أني انبعثت بقلب غير منبعث

---

(1) الشادن: الغزال. والخنث: المتثني.



غربة المحب

نتكلم قليلاً عن غربة المحب ، وكل مهجور غريب ، لأنه الأمر كما قال الشريف

ليس الغريب الذي تنأى الديار به   إن الغريب قريب غير مودود

فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه. كما قال حذيفة الغنوي:

يقولون من هذا الغريب بأرضنا   أما والهدايا إنني والغريب

غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى   كما قيد عوم بالزمام أديب[1]

وماذا عليكم إن أطاف بأرضكم   مطالب دين أو نفته حروب

أمشي بأعطان المياه وأبتغي   قلائص منها صعبة وركوب

ومن شجي الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب:

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة   غزال كحيل المقلتين ربيب

فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى   ولكن من تنأين عنه غريب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في اغتراب محبوبته:

أرى كل أرض دمنتها وإن مضت   لها حجج يزداد طيبًا ترابها[2]

ألم تعلمن يا رب أن رُب دعوة   دعوتك فيها مخلصًا لو أجابها

واقسم لو أني أرى نسبًا لها   ذئاب الفلا حُبت إلي ذئابها

لعمر أبي ليلى لئن هي أصبحت   بوادي القرى ما ضر غيري اغترابها

---

[1] العود الجمل ، وأديب ذلول.

[2] دمنتها: مشت عليها.

وغربة المحب تتمثل في حرمانه. وكيف لا يكون غريبًا من يقول:

أيا منشر الموتى أقدني من التي ... بها نهلت نفسي سقامًا وعلتِ

لقد بخلت حتى لو أني سألتها ... قذى العين من سافي التراب لضنت

وما أم بوٍ هالك بتنوفة ... إذا ذكرته آخر الليل حنتِ

بأكثر من لوعةٍ غير أنني ... اطامن أحشائي على ما أجنت

ويظهر أن قذى العين كان في أنفس العرب مثلاً لما لا يضن به ، فقد رددوا ذكره في أشعارهم ، كما قال بعض بني أسد:

وكيف طلابي وصل من لو سألته ... قذى العين لم يطلب وذاك زهيد[1]

ومن لو رأى نفسي تسيل لقال لي ... أراك صحيحًا والفؤاد جليدُ



[1] اطلبه: أعطاه ما طلب.

الأمل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع ، ونقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه. وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر بعد قسوة الإخفاق.

● ● ●

تأيمت حتى لا مني كل صاحب　　رجاء سُليمي إن تئيم كما إمتُ

لئن بعت حظي منك يومًا بغيره　　لبئس إذًا يوم التغابن ما بعت

كنت أصبر على بأساء الحياة ، واحتمل ما فيها من غم وغم ، لو أن عندي بقية من الأمل أرفه بها أحزائي ، وادفن فيها آلامي ! ولكن حال القنوط دون الرجاء ، وأتى اليأس دون الطمع ، فلم يبق غير الجزع من مُسعد ، ولا سوى النوح من شفاء !

فيا جيرة ما كان أهنأ وردهم ، وأطيب عيشهم ، ويا أحبابًا ذقت الفرح بقربهم ، وعرفت الهمّ لبعدهم ، ويا من أفناني فراقهم ، وكان أحياني لقاؤهم ، وبربكم ما الذي لقيتم بعدي ، فقد لقيت بعدهم ذلا وهوانًا ، وظلمًا وعدوانًا ، ومن عسى أنت يكون قد ظفر بودكم ، ونعِم بحسنكم ، فأصفاكم من الحب أجمله ، ومن الانس أكمله ، فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتي ، وانكر خلتي ، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب ، وأوليته القرب فأولاني القطيعة ؟ !

فيا ليت شعري من ألوم ؟

أألوم نفسي على أن لم أعق في بركم أهلي وإخواني ، فأسير حيث سرتم ، وأقيم حيث أقمتم.

تفرق أهلي من مقيم وظاعن　　فيا ليت شعري أي أهلي أتبع

أقام الذين لا أبالي فراقهم　　وشط الذين بينهم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتموني وحيدًا وآثرتم وطنكم ، وأهلكم ، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه ، وأسير همه ؟

أم ألوم قومًا جعلتهم منكم بدلاً فكانوا شر بدل ، واتخذتهم من بعدكم ذخرًا فكانوا كالهباء ، ورجوتهم حصنًا اتقي به الدهر الخائن ، والزمن الجائر ، فإذا هم أذل من قراد بمنسم ، وإذا المتفيء ظلهم ، والراجي برهم ، يطمع في غير مطمع ، ويلجأ إلى شر وزر ؟ !

أم ألوم دهرًا اضطركم إلى الرحلة فرحلتم ، وحكم علي بالمقام فأقمت ، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار ، وشطا لمزار ، ما جعل الأمر في التلاقي خائبًا ، ورجاء التداني كاذبًا:

وقلما أبقى على ما أرى   يوشك أن ينعاني الناعي
ما أقتل اليأس لأهل الهوى   لاسيما من بعد إطماعِ

ما هذا الذي صنعتم ؟ أخضعتم لليأس ، وأذعنتم للقنوط ، ولو ترهبوا العتاب إذ لم تأملوا اللقاء ، فزففتم تلك الشمس إلى غيري ، وآثرتم بها سواي ؟ !

يا عز إن ضاعت عهودي عندكم   فأنا الذي استودعت غير أمين
أو عدت مغبونًا فما أنا في الهوى   لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فمللتم – ولا وفاء لملول – فكان منكم ما أقض المضجع ، وأورث الجفن السهاد ، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ، ونال القنوط منا ؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء.

هي الغاية القصوى فإن فات نيلها   فكل مُنى الدنيا علي حرام

• • •

وقد نظرت ما قال الشعراء في الأمل الضائع ، ووجدت لهم فيه أفانين ، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق ، كالذي يقول:

جارية أعجبها حسنها   فمثلها في الناس لم يُخلق
خبرتها أني محب لها   فأقبلت تضحك من منطقي

والتفتـــت نحـــو فتـــاة لهـــا　　كالرشـــأ الوســـنان فـــي قرطـــق
قالـــت لهـــا قـــولي لهـــذا الفتـــى　　انظـــر إلـــى وجهـــك ثـــم اعشـــق[1]

ومن جيد الشعر في ضياع الأمل قول عمر بن أبي ربيعة في سُكنية بنت الحسين:

قالـــت ســـكينة والـــدموع ذوارف　　تجـــري علـــى الخـــدين والجلبـــاب
ليـــت المغيـــري الـــذي لـــم أجـــزه　　فيمـــا أطـــال تصـــيدي وطلابـــي
كانـــت تـــردُّ لنـــا المنـــى أيامنـــا　　إذ لا نُـــلام علـــى هـــوى وتصـــابي
خبـــرت مـــا قالـــت فبـــت كأنمـــا　　يُـــرى الحشـــا بنوافـــذ النشـــاب
أســـكين مـــا مـــاء الفـــرات وبـــرده　　منـــي علـــى ظمـــأ وفقـــد شـــراب
بألـــذ منـــك وإن نأيـــت وقلمـــا　　يرعـــى النســـاء أمانـــة الغيـــاب
إن تبـــذلي لـــي نـــائلا أشـــفى بـــه　　ســـقم الفـــؤاد فقـــد اطلـــت عـــذابي
وعصـــيت فيـــك أقـــاربي فتقطعـــت　　بينـــي وبيـــنهمُ عـــرى الأســـبابِ
فتركتنـــي لا بالوصـــال مُمســـكًا　　مـــنهم ولا أســـعفتني بثـــواب
فقعـــدت كـــالمهريق فضـــلة مائـــه　　فـــي حـــر هـــاجرة للمـــع ســـراب

ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاه كثير في قوله:

وادنيتنـــي حتـــى إذا مـــا اســـتبيتني　　بقـــول يُحـــل العصـــم ســـهل الاباطح
توليـــت عنـــي حـــين لالـــي مـــذهبٌ　　وغـــادرتِ مـــا غـــادرت بـــين الجـــوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب ، وقد استدرجه محبوبه ، حتى أخذ الطمع بنواصي آماله ، ثم تركه في اللحة الأخيرة ، يتعثر في أذيال الخيبة والقنوط !

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

كم قصد نصبت لك الحبائل طامعًا　　فنجـــوت بعـــد تعـــرض لوقـــوعِ
وتركتنـــي ظمـــآن أشـــرب غُلتـــي　　أســـفًا علـــى ذاك اللمـــى الممنـــوع

---

[1] رواية صديقنا الدكتور إبراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لأسنانك ثم اعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الأسنان.

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه ، من بلد غير بلدك ، وقوم غير قومك ، كما قال نُصيب:

أرق المحب وعاده سُهده ... لطوارق الهم التي ترده

وذكرت من رقت له كبدي ... وقسا فليس ترق لي كبده

لا قومه قومي ، ولا بلدي ... فنكون حينًا جيرةً بلده

ووجدت وجدًا لم يكن أحدٌ ... من أجله بصبابة يجيده

ونصيب يتحدث كثيرًا عن عقم الأماني ، حتى ليقول:

ألا هل على البين المفرق من بد ... وهل مثل أيام بمنقطع السد

تمنيت أيامي أولئك والمنى ... على عهد عادٍ ما تعيد وما تبدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود. وأسرار القرب ، ولا يرى بعد ذلك حرجًا في ذكر اسم من يحب ، كما قال جميل:

لا لا أبــوح بحــب بثينــة أنهــا ... أخـــذت علـــيِّ مواثقًـــا وعهـــودا

وأنه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده ، تضليلاً للوشاة ، لكان هذا البيت من سخف القول ، وهذره. وإليك ما يقول من كلمة ثانية:

ومـاذا عسـى الواشـون أن يتحـدثوا ... سـوى أن يقولـوا أننـي لـك عاشـق

نعـم صـدق الواشـون أنـت حبيبـة ... إلـي وإن لـم تصـفُ منـكِ الخلائـقُ

فإنه يدل على أنه لا يبالي أن يُعرف بحبها. حتى قال الناس: جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى. ويذكر أبو علي القالي أن البيت السالف لكثير ، وأنه ذكر بثينة تورية عن حبيبته ، وهذا فيما أرى غير حتم ، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر. كقوله:

كفـى حزنًـا للعـين أن رد طرفهـا ... لعـــزة عِيـــرٌ آذنـــت برحيـــل

وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا ... فقلــت البكــا أشــفى إذن لغليلــي

توليـت محزونًـا وقلـت لصـاحبي ... أقـــاتلتي ليلـــى بغيـــر قتيـــلِ

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر ، وليلى عنده مُعاصاته ، وهو نوع من التلاعب بالأسماء الذي كثر في شعر العرب. وقال كثير من قصيدة أخرى:

سـيهلك فـي الـدنيا شـفيق علـيكم ... إذا غالــه مــن حــادث الــدهر غائلــه

ويخفـي لكـم حبًـا شـديدًا ورهبـة ... وللنـــاس أشـــغال وحبـــك شـــاغله

كــريم يميــت الســر حتــى كأنــه ... إذا حــدثوه عــن حــديثك جاهلــه

يــود بــأن يمســي ســقيما لعلهــا إذا ســمعت عنــه بشــكوى تراســله
ويجهـد للمعـروف فـي طلـب العـلا لتُحمــد يومًــا عنــد عــز شــمائله

وهو في هذا الشعر لا يكتم اسم من يهوى ، وإنما يكتم أحاديث الحب ، وأسرار الصبابة ، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي:

ومســتخبرٍ عــن ســر ريــا رددتــه بعميـــاء مـــن ريـــا بغيـــر يقـــينِ
فقـال انتصـحني إننـي لـك ناصـح ومـــا أنـــا إن خبرتـــه بـــأمين

وهذا العباس بن الأحنف كان من أكثر المحبين كتمانًا ، ولكنه صرح باسم محبوبته فوز ، ولقد بلغ من حسد إحدى جارته له أن سمت جاريتها «فوز» وقد قال في ذلك:

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة كانت بذي الأثل من خدني وأنصاري
ســمت وليــدتها فــوزًا مغايظــة عــذرت لــو لطمتنــي ذات أســوار
ومــا يــزال نســاء مــن قرابتهــا فــي كــل ناحيــة يهــتكن أســتاري

ومسلم بن الوليد يتغنى بكتم تباريح الصبابة في قوله:

ومـا نلـت منهـا نـائلا غيـر أننـي بشـجو المحبـين إلا لـي سـلفوا قلبـي
بلـى ربمـا وكلـت نفسـي بنظـرة إليهـا تزيـد القلـب خـبلا علـى خبـل
كتمــت تبــاريح الصــبابة عــاذلي فلـم يـدر ما بي فاسترحت مـن العذل

وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله:

بنفسـي التـي ضـنت علـي بوصـلها ولـو سـألت قتلـي وهبـت لـي قتلـي
وإن حكمـت جـارت علـى بحكمهـا ولكـن ذاك الجـور أحلـى مـن العـدل
وأحببـت فيهـا العـذل حبًـا لـذكرها فلا شيء أحلى في فؤادي من العذل

وهو يذكرنا بقول أبي الشيص الخزاعي:

أجـد الملامـة فـي هـواكِ لذيـذة حبًـــا لـــذكرك فليلمنـــي اللـــوم
أشـبهت أعـدائي فصـرت أحـبهم إذ كـان حظـي منـك حظـي مـنهم

وقول ابن نُباتة المصري:

لثمت ثغر عذولي حين سماكِ   فلذ حتى كأني لاثمٌ فداكِ

ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاقس:

كتمت الهوى عند العواذل ضنة   عليهم بمن أصبو إليه وأهواه

ولو قلت أني عاشق فطنوا له   لعلهم أن ليس يُعشق إلا هو

وهو مذهب غريب ، وأغرب منه مذهب من يقول:

وقائله ما بال جسمك لا يُرى   سقيما وأجسام المحبين تسقمُ

فقلت لها قلبي بحبك لم يبح   لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

وللعباس بن الأحنف شجنون من الحديث عن الكتمان ، فتارة يذكر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه. كقوله:

هذا كتاب بدمع عيني   أملاه قلبي على لساني

إلى حبيب كنيت عنه   أجل ذكر أسمهِ لساني

قد كنت أطوي هواه عنه   مذ كنت في سالف الزمان

فبحت إذ طال بي بلائي   ولم يكن لي به يدانِ

وهو هنا يكتم حبه عن محبوبه ، فضلاً عن الناس. وتارة يذكر أنه سيموت مكتوم السر إلا عمن يحب. فيقول:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم   حتى إذا ايقظوني في الهوى رقدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبًا   بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم   قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبكم   بين الجوانح لم يشعر به أحد

حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم   قلبي وإن تسمعوا صوت الذي أجد

وحينًا يذكر أنه سلا ، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقًا بمحبوبته فيقول:

كـذبت علـى نفسـي فحـدثت أنـني   سـلوت لكيمـا ينكـروا حـين أصـدق

ولا مــن قلـى منـي ولا عـن ملالـةٍ   ولكننـــي أبقـــى عليـــك وأشـــفق

عطفـت علـى أسـراركم فكسـوتها   قميصًـــا مـــن الكتمـــان لا يتخـــرق

وقد يعتذر عن هجره فيقول:

فـب الله يعلـم مـا أردت بهجـركم   إلا مصـــــانعة العـــــدو الكاشـــــح

وعلمـــت أن تباعـــدي وتســـتري   أدنـــى لوصـــلك مـــن دنـــو فاضـــح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود:

ســـــأهجر إلفـــــي وهجرانهـــــا   إذا مـــا التقينـــا صـــدود الخـــدود

كلانـــــا محـــــب ولكننـــــا   نـــدافع عـــن حبنـــا بالصـــدود

وتأمل قوله «صدود الخدود» يريد بذلك أن كلا منهما يصدف بخده عن صاحبه ، أما القلوب فهي في ائتلاف. وطورا يكتفي بحديث العيون ، كقوله:

كلانـــا مُظهـــر للنـــاس بغضًـــا   وكـــل عنـــد صـــاحبه مكـــينُ

تخبرنـــا العيـــون بمـــا أردنـــا   وفـــي القلبـــين ثـــم هـــوى دفـــين

وقد يسر الحزن ، ويبدي السرور ، مبالغة في التستر ، كقوله:

عيـــون العائـــدات تـــراك دونـــي   فيـــا جســـدي لعينـــي مـــن يـــراك

أريـــــدك بـــــالكلام فـــــأتقيهم   وأعمـــد بـــالكلام إلـــى ســـواك

وأكثـر فـيهم ضـحكي ليخفـى   فســـني ضـــاحك والقلـــب بـــاك

وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله:

سأســـتر والســـتر مـــن شـــيمتي   هـــوى مـــن أحـــب بمـــن لا أحـــب

ولابـــد مـــن كـــذب فـــي الهـــوى   إذا كـــان دفـــع الأذى بالكـــذب

وربما تمنى لو استطاع أن يكاتم قلبه الحب. فيقول:

إذا لم يكن للمرء بد من الردى   فأكرم أسباب الردى سبب الحب
ولو أن خلقًا كاتم الحب قلبه   لمت ولم يعلم بحبكم قلبي
إذا قيل تقريك السلام تماسكت   حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول:

أما الهوى فهو شيء لا خفاء به   شتان بين سبيل الغي والرشد
إن المحبين قوم بين أعينهم   وسم من الحب لا يخفى على أحد

وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من أجل حبه في بيداء من الظنون ، ليس لليل نهار ، كما يقول:

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا   وفرق الناس فينا قولهم فرقا
فجاهل قد رمى بالظن غيركم   وصادق ليس يدري أنه صدقا

وقد ذكروا أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد. فرفع ذلك إلى الرشيد. فأمر المأمون أن يصلي عليهم. فصفوا بين يديه. ثم سأل عنهم واحدًا واحدًا وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه. فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدسة على من حضر ؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سماك لي ناس وقالوا أنها   لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم   أني ليعجبني المحب الجاحد

ثم قال أتحفظهما ؟ فقال نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة فقال بلى يا سيدي ! [1]

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذريح:

---

[1] وضح صاحب البدائع كتابًا خاصًا سماه «صبابة ابن الأحنف» تناول فيه بالتفصيل حاية هذا الشاعر الوجدانية ، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس.

لو أن أمرًا اخفى الهوى عن ضميره　　لمت ولم يعلم بذاك ضمير
ولكن سألقى الله والنفس لم تبح　　بسرك والمستخبرون كثير

ومن الشعر الموجع في الكتمان قول جماهر بن عبد الحكيم الكلبي:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه　　ودينك عند الزاهرية ما يُقضى
أكاتم في حبي ظريفة بالتي　　إذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صدودًا عن الحي الذين أودهم　　كأني عدو لا يزور لهم أرضا
ولم يدعُ باسم الزاهرية ذاكرٌ　　على آلةٍ إلا ظللنا لها مرضى
وما نقع الهيمان بالشرب بعدهم　　ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غضما

وقد يهتم المرء بحب من لا يحب ، فيتمنى لو تصدق التهمة ، كما قال صاحب البدائع:

عجبت لهم أني رموني بحبها　　ولا مهجتي رهن لديها ولا قلبي
فيا رب صدق في هواها عواذلي　　فإن عناءً إن أُلام بلا ذنب
وإلا فلا تقطع عليّ ملامهم　　فإن ملام المرء فاتحة الحب

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته:

ســري وســرك لا يعلــم بــه أحــد إلا الإلـــه وإلا أنـــتِ ثـــم أنـــا

فقالت له لا تنس القوادة ، فعندنا الخبر اليقين !

قسوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود. وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجني، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدي:

فبعض يا دهر لا غفلات العيش عائدة ... ولا الشباب الذي أبليته فيها
إن كنت تمنع سُعدى من مطالبها ... فلست تمنع سعدي من تمنيها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعة ... باتت تدل على شوقي أغانيها
وقهوة كشعاع الشمس طالعة ... أفنيت بالمزج فيها ريق ساقيها
لو كنت أخضع في الدنيا لنائبة ... خضعت من هجرها أو من تجنيها
تستعذب الدمع عيني في محبتها ... كأن ما تمتريه العين من فيها

وما أجمل قول ابن الرومي:

يا عليلا جعل العلـ ... ـة مفتاحًا لظلمي
ليس في الأرض عليل ... غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الآنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح: فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله:

تلوم حياة على العاشقين ... رويدًا ورفقًا بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت المحب ... هنيئًا لعينيك في الناعسات

ثم سأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة. فأجابه بما نصه:

«يرى سيدي الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب ، فلامت المحبين. ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب. لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء. يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون. فإذا قال السياسي (لا) فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها

(تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فإني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩:

عهـــد السياســة كــاذب   لله دركِ يـــا ســـجاح !

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا: أن المرأة تفر ، وتود أن تلحق وهي فارة: وتأبى ، وتود في أبائها أن تُسرق. وتناضل ، وترغب أن يُظفر بها في النضال !!

فقول الآنسة حياة «لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» معناه أن الحب صيرها باكية العين ، دامية الفؤاد ! وقولها «الحب عدو لدود للإنسان ، فيجب أن يُبعد عن القلوب» معناه أن الحب مادة الحياة. فيجب أن تزود به القلوب !

وقولها «تباعدوا عن الحب» معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم ، أيها الشباب !

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهمي ! فهي حين تقول «لعن الله الحب» إنما تريد «حيا الله الحب» وأنت بما تريد عليم !

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال:

إنك تأمريننا بأن لا نحب (سمعًا وطاعة !) ولو أني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عامًا لنجوت من الحب. ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق ، ولكني يا مولاتي لسوء الحظ قد أحببت ، وقد ضُربت بمحبتي الأمثال ، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة ، جعل الله في يمناك الشفاء ، من كل داء ، فهل لك أن تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم ، ومن اسماء الحب الضلال ؟

أنا في انتظار الجواب !

ملحوظة — أرجو أن تحترس الآنسة حياة ، وهي تكتب أنواع العقاقير ، من أن تنهاني عن التطلع إلى العيون ، والخدود ، والثغور ، والنحور ، والنهود ، فإنه لا سبيل إلى مثل هذا المتاب !! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال ، كما يرد الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقي الجميل !!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة في الإيجاز لأمتعنا به القاريء ، ومن السهل الرجوع إليه في كتاب البدائع.

وقد حسن التجني في قول أحد الشعراء:

صـــد عنـــي محمـــد بـــن ســـعيد ش أجمـــل العـــالمين ثـــانيَ جِيـــدِ

لـــيس مـــن بغضـــةٍ يصـــد ولكـــن يتجنـــى لحســـنه فـــي الصـــدود



ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم ، حتى لتحكم علية بنت المهدي بأن الحب نبني عليه. وتقول:

وضـع الحــب علــى الجــور فلــو   أنصـــف المعشـــوق فيـــه لمســـج

لـيس يستحسـن فـي شـرع الهـوى   عاشـــق يحســـن تـــأليف الحجـــج

وقال النميري:

راحتـــي فـــي مقالـــة العـــذال   وشـــفائي فـــي قـــيلهم بعـــد قـــال

لا يطيـب الهـوى ولا يحسـن الحـ   ـــب لصـــبٍ إلا بخمـــس خصـــال

بســـماع الأذى وعـــذل نصـــيحٍ   وعتـــــابٍ وهجـــــرةٍ وتقـــــال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله:

لـولا اطـراد الصـيد لـم تـك لـذة   فتطـاردي لـي فـي الوصـال قلـيلا

هـذا الشـراب أخـو الحيـاة ومالـه   مـــن لـــذة حتـــى يصـــيب غلـــيلا

ومثله قول الآخر:

دع الصب يصلى بالأذى من حبيبه   فـــإن الأذى ممـــن تُحـــب ســـرور

غبـار قطيـع الشـاءِ فـي عـين ذائبهـا   إذا مـــــا تـــــلا آثـــــارهن ذرور

وأنشد الأصمعي:

لا خيـر فـي الحـب وقفًا لا تحركـه   عوامـــل اليـــأس او يقتـــاده الطمـــع

لو كان لي صبرها أو عندها جزعي   لكنـــت أملـــك مـــا آتـــي ومـــا أدع

إذا دعـــا باســـمها داعٍ ليحزننـــي   كـــادت لـــه شـــعبة مـــن مهجتـــي تقـــع

لا احمـل اللـوم فيهـا والغـرام بهـا   مـا كلـف الله نفسًـا فـوق مـا تسـع

ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري:

رمتني وستر الله بيني وبينها ... ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيم
ألا رب يومٍ لو رمتني رميتها ... ولكن عهدي بالنضال قديم
فيا عجبًا من قاتلٍ لي أوده ... أشاط دمي شخص علي كريم
يرى الناس أني قد سلوت وأنني ... لمدنف أحشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ.

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي:

أصبحت مملوكًا لأحسن مالك ... لو كان كمل حسنه إسجاحه
لم يعنه أرقي وفيه لقيته ... حتى أضر بمقلتي إلحاحهُ
كلا ولا دمعي وفيه سفحته ... حتى أضر بوجنتي تسفاحه
لامسه بعقوبةٍ من ربهِ ... إقلاقه قلبي ولا إتراحه
يا ليت شعري هل يبيتُ معانقي ... ويداي من دون الوشاح وشاحه
هل أنت مُنصف عاشقٍ متظلمٍ ... طول النحيب شكاته وصياحه
قسما لقد خيمت منك بمنزلٍ ... لي حرنه ولمن سواي بطاحهُ
ما بال ثغرك مشربًا لي سكره ... ولمن سواي فدتك نفسي راحه
نفسي معذبة به من دونه ... ويباحه دوني ولست أباحهُ

وأحب لو تأمل القارىء قول الشريف:

ولي ناظر بعد بين الخليـ ... ـط مات من الدمع إنسانه
رواء من الماء آماقه ... ظماء من النوم أجفانه
فأين من الداء إفراقه[1] ... وأين من القلب سُلوانه

---

[1] أفرق من دائه أبرىء منه.

فيـــا ظالمًـــا طيبًـــا ظلمـــهُ كثيـــرًا علـــى القلـــب أعوانـــه
يبـــاع بســـومك حـــب القلـــوب وتفلـــــق عنـــــدك أثمانـــــهُ[1]
وشـــر الإســـاءة مـــن مالـــك أســـاء ومـــا نيـــل إحســـانه

وقال نويب:

أيـا ثـار ات مـن قتلتـه سُـعدى دمـــي لا تطلبـــوه لهـــا حـــلال
أرق لهـــا وأشـــفق بعـــد قتلـــي علـــى ســـعدى وإن قـــل النـــوال
ومـــا جـــادت لنـــا يومًـــا ببـــذل يمـــين مـــن ســـعاد ولا شـــمال

ونويب هذا هو الذي يقول:

ألا فـي سـبيل الله نفـس تقسـمت شـعاعًا وقلـب للحسـان صـديقُ
أفاقـت قلـوب كـن عـذبن بـالهوى زمانًـــا وقلبـــي مـــا أراه يُفيـــق
عصيت بك الناهين حتى لو أنني أمـوت لمـا أرعـى علـي شـفيق

(1) غلق الثمن: ضاع.

قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب ، وغلظ الكبد ، ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قدت من الصخر. فيقول:

أظـــن ومـــا جربـــت مثلـــك إنمـــا ... قلـــوب نســـاءِ العـــالمين صـــخور

ذرينـــي أنـــم إن لـــم أنـــل منـــك زورةً ... لعـــل خيـــالا فـــي المنـــام يـــزور

بكيت إلى سرب القطاحين مر بي ... فقلـــت ومثلـــي بالبكـــاء جـــدير

أسرب القطا هـل مـن يعير جناحـه ... لعلـي إلـى مـن قـد هويـت أطيـر

وقد نظر المرحوم إسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال:

يـا سـرحة بجـوار المـاء ناضـرة ... سـقاك دمعـي أن لـم يـوفِ سـاقيكِ

عـار عليـك وهـذا الظـل منتشـر ... فتـك الهجيـر بمثلـي فـي نواحيـك

هـل مـن معيـري جنـاحي طـائرٍ غـردٍ ... كـي أقطـع العمـر شـدوًا فـي أعاليـك

فـلا أنفـر عـن أرض غُرسـتِ بهـا ... ولا يـــرن بســـمعي غيـــر واديـــك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينة والهدوء ، في حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود. كما قال بشار[1]:

أيهـــا الســـاقيان صـــبا شـــرابي ... واســـقياني مـــن ريـــق بيضـــاء ورد

إن دائـــي الصـــدى وإن دوائـــي ... شـــربة مـــن رضـــاب ثغـــرٍ بـــرود

ولهـــا مبســـم كفـــر الأقـــاحي ... وحـــديث كالوشـــي وشـــي البـــرود

نزلـت فـي السـواد مـن حبـة القلـ ... ـــب ونالـــت زيـــادة المســـتزيد

ثـــم قالـــت نلقـــاك بعـــد ليـــالٍ ... والليـــالي يبلـــين كـــل جديـــد

عنـدها الصـبر عـن لقـاي وعنـدي ... زفـــرات يـــأكلن قلـــب الحديـــد

---

[1] في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف ، فارجع إليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار.

وما أظرف قول أبي نواس في معشوقته جنان:

جنــان تســبني ذكــرت بخيــرٍ — وتــزعم أننــي رجــل خبيــث
وأن مــودتي كــذب ومــين — وأنــي للــذي أهــوى نثــوث
ولــيس كــذا ولا رد عليهــا — ولكــن الملــول هــو النكــوث
ولــي قلــب ينــازعني إليهــا — وشــوق بــين أضــلاعي حثيــث
رأت كلفــي بهــا ودوام عهــدي — فملننــي كــذا كــان الحــديث

وأبدع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب:

ليــت مــا اصــبح مِــن — رقــة خــديك بقلبــك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع:

فبعض لقد صددنا كما صددتم — فهــل نــدمتم كمــا نــدمنا
وشــفنا الوجــد مــذ جفــوتم — فــأظهر الــدمع مــا كتمنــا
وهبــت روحــي وقلــت عطفًــا — فمــا عطفــتم ومــا رجعنــا
ملكتموهــا ومــا وصــلتم — لقــد غنمــتم ومــا غنمنــا
ومــا ازددت خوفًــا علــى فــؤادي — إلا وزدتــم رضــى وأمنــا
ومــا رجــائي وقــد قــويتم — علــى جفــائي وزدت وهنــا
قتلــت نفســي علــى جفــاكم — ومــا قــرعتم علــي ســنا
لهفــي علــى الســالف المفــدى — لــو كــان يجــدي الفِــدا لُجــدنا
فمــا ذكرنــا الــذي تقضــى — إلا علــى حســنه انتحبنــا

●

لــو كنــت أشــكو الهــوى لصــخر — لحــن وجــدًا وأن حزنــا
وذاب مــن هــول مــا أراه — فقــد برانــا الهــوى وذبنــا
إن كــان ذنــب فســامحونا — ويشــهد الله مــا أســأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيهــا الظــالم الجميــل ســلام　　مـــن أســـير قيدتـــه بجفاكـــا

كيــف اصــليتني مــن الهجــر نــارًا　　وحرمـــت العيـــون مـــن أن تراكـــا

ليــت مــن شــاء أن يطــول أســانا　　فــي ســبيل الهــوى أطــال أســاكا

ســوف أنجــو مــن الغــرام وأغــدو　　مُطلــق الــنفس مــن قيــود هواكــا

فاسقني المر من صدودك واحكم　　جــائر الحكــم فــي ظــلال صِــباكا

وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيرًا بنقض العهد ، وجحود الود وليس الأمر كما يحسبون ، وإنما هي صورة لحالة من حالات النفس ، حين يثور الوجد ، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من إشراك هواه ، وهيهات هيهات !



سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب ، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق ، وضلاله عن القصد ، بعد فراق من يحب ، كما قال بعض الأعراب:

وما وجد مغلوبٍ بصنعاء موثقٍ بساقيه من ثقل الحديد كبول
ضعيف الموالي مسلم بجريرةٍ له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلاد أنت معذب غداة غدٍ أو مسلم فقتيل
بأوجع مني لوعةً يوم راعني فراق حبيبٍ ما إليه سبيل
غداة أسير القصد ثم تردني عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر ، وهي آية في وصف الحيرة يرمى بها المحب المشوق ، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء. وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبل بالحديد ، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه ، وقد أصبح موضع النذير من الجلاد في كل صباح ومساء ، وحسب الفراق أن يرمي المحب في مثل هذا الحال !

وانشد الجاحظ:

أزف البين المبين قطع الشك اليقين
حنت العيش فأبكا ني من العيش الحنين
لم أكن لا كنت أدري إن ذا البيت يكون
علموني كيف اشتا قُ إذا خفت القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول:

وأنا بكيت من الفراق فهل بكيت كما بكيت
ولطمت خدي خاليًا ومرسته حتى اشتفيت
وعواذلي ينهينني عمن هويت فما انتهيت

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجرى بعد الفراق ، ويا ويلتاه من الفراق !

وما أصدق من يقول:

أزمعــة ليلــى ببــينٍ ولــم تمــت كأنــك عمــا قــد اظلــك غافــل
ستعلم إن شطت بهم غربة النوى وزالــوا بليلــى إن قلبــك زائــل

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسي أحبابه متاعب السفر ، ومشاق السرى ، ومصاعب الادلاج. ثم يرجع إلى نفسه فيتوجع لحاله بعد الفراق. كقول أبي تمام:

لو كان في البين إذ بانوا لهم دعة لكــان بيــنهم مــن أعظــم الضــررِ
فكيف والبين موصول به تعب تكلف البيد في الادلاج والبكر
لو أن ما يبتليني الحادثات به يكون بالماء لم يُشرب من الكدر
أو كان بالعيس ما بي يوم رحلتهم أعيت على السائق الحادي فلم تسر
كأن ايدي مطاياهم إذا وخدت يقعن في حر وجهي أو على بصري

وهذا شعر يذيب لفائق القلوب... وقال بعض المعذبين

وقــد قلــت والعبــرات تســـ ـــفحها علــى الخــد المــآقي
حــين انحــدرت إلــى الجزيـــ ـــرة وانقطعـــت عـــن العـــراقِ
يــا بــؤس مــن ســل الزمــا نُ عليــــه ســــيفًا للفــــراق

إي والله:

يــا بــؤس مــن ســل الزمــا نُ عليــــه ســــيفًا للفــــراق

إنه لا محالة مقتول !

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه ، كالذي يقول:

أتظعــن عــن حبيبــك ثــم تبكــي شهي عليه فمن دعاك إلى الفراقِ
كأنــك لــم تــذق للبــين طعمــا فــــتعلم أنــــه مــــر المــــذاق
أقــم وانعــم بطــول القــرب منــه ولا تظعــــن فتكبــــت باشــــتياق

فمـا اعتـاض المفـارق مـن حبيـبٍ ولــو يعطــى الشــآم مــع العــراق

ومثله من يقول:

تطوى المراحل عن حبيبك دائبًا وتظــل تبكيــه بــدمع ســاجمِ
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تشـكو الفـراق وأنـت عـين الظـالم
هلا أقمت ولو على جمر الغضى قُلِّبــتَ أو حــدّ الحُســام الصــارم

وما أوجع ما قالته إحدى النساء:

وكنـا كغصــني بانـةٍ وسـط روضـةٍ نشـم شـذا الأزهـار فـي عيشـةٍ رغـدِ
فـأفرد هـذا الغصـن مـن ذاك قـاطعٌ فيــا فــردة بانــت تحــن إلــى فَــرد

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق ، فليس ببدع أن يهرب البحتري من منظر الوداع ، وأن يظرف حين يقول:

الله جـــارك فـــي انطلاقـــك تلقـــاء شـــامك أو عراقـــك

لا تعـــذلني فـــي مسيـــ ـــرك يـــوم ســـرت ولـــم ألاقِـــك

انـــي خشـــيت مواقفًـــا للبـــين تســـفح غـــرب ماقِـــك

وعلمـــت مـــا يلقـــى المتيـــ ـــم عنـــد ضـــمك واعتناقـــك

وعلمـــــــت أن لقاءنـــــا ســـبب اشـــتياقي واشـــتياقك

فتركـــــت ذاك تعمـــــدًا وخرجـــت أهـــرب مـــن فِراقـــك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حُرم توديع من يحب:

كفـى حزنًـا إنـي بقيـت وليـس لـي ســبيل إلـــى تـــوديعكم فـــأودع

تلفـت خلفـي حيـث لـم تبـق حيلـة وذودت عينـــي نظـــرةً وهـــي تـــدمع



غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغراب ، والتشاؤم من منظره ، حتى ليقولون:

رأيـت غرابًـا سـاقطًا فـوق بانـةٍ ينتـف أعلـى ريشـه ويطـايره
فقلـت ولـو أنـي أشـاء زجرتـه بنفسـي للنهـدي هـل أنـت زاجـره
فقـال غـراب لاغتـرابٍ مـن النـوى وفـي البـان بـين مـن حبيـب تجـاوره
فمـا اعيـف النهـدي لا در دره وازجـره للطيـر لا عـز ناصـره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة ، وسخر من المتطيرين ورأى أن الإبل هي التي تفرق الأحباب. كقول أبي الشيص:

مـا فـرق الأحبـاب بعـ ـد الله إلا الإبـل
والنـاس يلحـون غـرا ب البـين لمـا جهلـوا
ومـا علـى ظهـر غـرا ب البـين تطـوى الرحـل
ولا إذا صـاح غـرا ب فـي الـديار احتملـوا
ومـا غـراب البـين إلا ناقـة أو جمـل

ومنهم من لا يجيز ذم المطي ، لأن لها صلة بمن يحب. كالذي يقول:

زعمـوا بـأن مطـيهم عـون النـوى والمؤذنـات بفرقـة الأحبـاب
ولـو أنهـا حتفـي لمـا أبغضـتها ولهـا بهـم سـبب مـن الأسـباب

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو ، حتى يذهب بجميل الصبر ، وحميد العزاء ، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع. كقول ابن نباتة السعدي:

فبـع كيـف العـزاء وأيـن بابـه ... والحـي قـد خفـت ركابـه
بـأغر منتقـبٍ يـنم ... علـى محاسـنه نقابُـه
متـأود حلـو الشـمائلِ ... مـن أسـاوره حقابـه[1]
زعـم المخبـر أنـه ... ضـربت علـى سـلعٍ قبابـه
فطلبتـه كـالأيم أو ... كالسـيل فـي الليـل انسـيابه
فـإذا أحـم المقلتيـ ... ـن يشـين أنملـه خضـابه
يهتـز مثـل المسـهري ... تـدافعت فيـه كعابـه
وقـف الولائـد دونـه ... كالقلـب يسـتره حجابـه
أقبلـت أسـأله وأعـ ... ـلم أن حرمـاني جوابـه
ويلـي علـى متلـون الـ ... ـأخلاق يعجبـه شـبابه
لا رُسـلهُ تتـرى إليـ ... ـنا بالسـلام ولا كتابـه

وأحب أن يتأمل القاريء هذه القصيدة البديعة ، وأن ينتبه إلى دقة الوصف في جميع ما عرض الشاعر له. وعلى الأخص تلون الأخلاق ، والزهو بالشباب ، في أرباب الجمال !! وقال الشريف:

ورامـين وهنًـا بالجمـار وإنمـا ... شـهي رمـوا بـين أحشـاء المحبـين
رمـوا لا يبـالوا الحشـا وتروحـوا ... بـالجمر

[1] الحقاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلى.

وقالوا غدًا ميعادنا النفر عن مِنى خليين والرامي يصيبُ ولا يدري
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوقه ومـا سرني أن اللقاء مع النفرِ
فيا صاحبي أن تُعط صبرًا فإنني سوى ساعةٍ ثم البعاد مدى الدهر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه نزعتُ يدي اليوم من طاعة الصبر
فميعاد دمع العين مُنقلبُ السفرِ

وقد يستولى الحزن على القلب ، ويتغلغل في سويدائه ، حتى ييأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور ، لو رجعت أسبابه ، كما قال بعض الشعراء:

كما استراح إلى صبرٍ فلم يُرَحِ صب إليكم من الأشواق في تَرحِ
تركتمُ قلبهُ من حزن فرقتكم لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على الغراء:

فبعض عاتبت نفسي في هوا كَ فلم أجدها تقبل
واطعت داعيها اليـ ـك فلم أطع من يعذل
لا والذي جعل الوجو هـ لحسن وجهك تمثل
لا قلتُ إن الصبر عنـ ـك من التصابي أجمل

وقال اسحق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل:

تقضت لبانات وجد رحيل ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
ومدت أكف للوداع فصافحت وفاضت عيون للفراق تسيل
ولابد للالاف من فيض عبرةٍ إذا ما خليل بان عنهُ خليل
فكم من دمٍ قد طُل يوم تحملت أو انسُ لا يودي لهن قتيل
غداة جعلت الصبر شيئًا نسيتهُ وأعولت لو أجدى علي عويل
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها هوى منه بادٍ ظاهر ودخيل
كما نظرت حوراءُ في ظل سدرةٍ دعاها إلى ظل الكناس مقيل

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظماء عن الماء ، فيقول:

إليــك مــن الأنــام غــدا ارتيــاحي   وأنــت مــن الزمــان مــدى اقتراحــي

ومــا اعترضــت همــوم الــنفس إلا   ومـــن ذكـــراك ريحـــاني وراحـــي

فــديتك إن صــبري عنــك صــبري   لــدى عطشــي عــن المــاء القــراحِ

ولــي أمــل لــو الواشــون كفــوا   لأطلـــع غرســـهُ ثمـــر النجـــاح

واعجــب كيــف يغلبنــي عــدو   رضــاك عليــه مــن أمضــى ســلاحي

فــؤادي مــن أســى بــك غيــر خــالٍ   وقلبــي مــن هــوى لــك غيــر صــاحي

فلــو أســطيع طــرت إليــك شــوقًا   وكيـــف يطيـــر مقصـــس الجنـــاح

ويأسى ابن الدمينة على أن لم يُغنه القرب ، ولم يسله البعد ، فيقول:

فبعض وقـد زعمـوا أن المحـب إذا   يمـل وإن النـأي يشـفي مـن الوجـد

دنـــــــــــــــــــــــــــــا   على ذاك قـرب الـدار خيـر من البعد

بكـل تـداوينا فلـم يشـف مـا بنـا   إذا كـان مـن تهـواه لـيس بـذي عهـدِ

علـى أن قـرب الـدار لـيس بنـافعٍ

وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب:

فيـا رب إن أهلـك ولـم تروهـامتي   بليلـى أمـت لا قبـراعطشُ مـن قبـري

وإن أكُ عــن ليلــى ســلوت فإنمــا   تسـليت عـن يـأس ولـم أسـل عـن صبـر

وإن يــكُ عــن ليلــى غنــى وتجلــد   فــرب غنــى نفــس قريــب مــن الفقــر





بكاء الشباب

ولعل أشجى ما يمر بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام الشباب ، والشباب هو شفيع الفتى إلى قلوب الحسان ، فإذا مضى فقد أصبح بلا شفيع ، والويل للمفرد المغلوب !

من أجل ذلك تفنن الشعراء ، في بكاء الشباب ، والتنكر للمشيب.

فمنهم من تبيض في رأسه شعرة واحدة ، فلا يراها قليلة ، لأن قذى العين غير قليل ، كما قال ابن الرومي:

طرفت عيون الغانيات وربما ... شهي أمالت إلي الطرف كل مميل

وما شبت إلا شيبة غير أنه ... قليل قذاه العين غير قليل

وابن الرومي يكثير البكاء على شبابه ، ويعلل نفسه أحيانًا بأن الشيب في الرأس كالنور على الغصن. ويأسى كثيرًا لاحتياجه إلى الخطاب ، الذي يراه أشبه بسواد الحداد ، ويكاد يصرخ من خروجه إلى الحسان في شعر ميت ، وقلب حي ، والمحب يتفجر قلبه دائمًا بالحياة ! وانظر كيف يقول:

شاب رأسي ولات حين مشيب ... وعجيب الزمان غير عجيب

قد يشيب الفتى وليس عجيبًا ... أن يُرى النور في القضيب الرطيب

ساءها إن رأت حبيبًا إليها ... ضاحك الرأس عن مفارق شيب

يا حليف الخضاب لا تخدع النفـ ... ـس فما أنت للصبي ينسيب

ليس يُجدى الخضاب شيئًا من النفـ ... ـع سوى أنه حدادُ كئيب

لهف نفسي على القناع الذي مح ... وأعقبت منه شر عقيب[1]

منع العين أن تقر وقرت ... عين واشٍ بنا وعين رقيب

---

[1] مح القناع بلى. والعقيب البديل.

شـعر ميــت لــذي وطــرٍ حــيٍ كنــــار الحريـــق ذات اللهيــــبِ
ظلمتنـــي الخطــوب حتــى كــأني لــيس بينــي وبينهــا مــن حســيبِ

وما أروع قوله في السخر من الخضاب:

رأيـت خضـاب المـرء عنـد مشـيبه حـدادًا علـى شـرخ الشـبيبة يُلـبس
وإلا فمـــا يغـــزو امـــرء بخضـــابه أيطمــع أن يخفــى شــباب مــدلس
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ وكـــل ثـــلاثٍ صـــبحةُ يتـــنفس
وهبــه يــواري شــيبه أيــن مــاؤه وأيـــن أديـــم للشـــبيبة أملـــس

وقـال أشـجع السـلمي يوصـي بانتهـاب اللـذات ، قبـل أن يقـف فـي سـبيلها الهـرم والمشيب:

فبــع ومــا لــي لا أعطــي الشــباب نصـــــــــــــــــــــيبه وغصــناه يهتــزان فــي عــوده الرطــب
فأسـرعت باللـذات فـي ذلـك النهـب
رأيــت الليــالي ينتهــبن شــبيبتي لقـد حـزن سـلمى وانتهـين إلـى حربـي
رأيـت بنـات الـدهر يخلسـن لـذتي علـى الـرأس أمثـال الفتيـل مـن العطـب
وقد حولت حالي الليالي وأسرجت إذا كـان ذا حـالين يصـبو ولا يُصـبي
ومـوت الفتـى خيـر لـه مـن حياتـه

وقال آخر في صدوف النساء عن صَرعى المشيبِ:

هـل الأدم كـالآرام والـدهر كالـدمى مُعـــــاودتي أيـــــامهن الصـــــوالح
زمـــان ســـلاحي بيـــنهن شـــبيبتي لهــا ســائق مــن حســنهن ورامــح
وأقســمن لا يســقينني قطـر مُذنـةٍ لشــيبي ولــو ســألت بهــن الأبــاطح

وكان أستاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك كثير الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود:

فبعما تنقضي حسرة مني ولا جزع إذا ذكـــرت شـــبابًا لـــيس يرتجـــع
بـــأن الشـــباب ونـــابتني بفرقتـــه خُطــوب دهــرٍ وأيــام لهــا خــدع

ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبع
تعجبت أن رأت أسراب دمعتهِ ... في حلبة الخد أجراها حشًا وجع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجي بغصتهِ والعذر لا يقع
لا ألحين فتاتي غير كاذبةٍ ... عين الكذوب فما في ودكم طمع
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت ... إلا لها نبوة عنه ومرتدع
إني لمعترف ما في من أربٍ ... عند الحسان فما في النفس منخدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب أسى ... لولا أعزيك إن الأمر منقطع

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له ، وأنشد:

أتأمل رجعة الدنيا سِفاهًا ... وقد صار الشباب إلى ذهابِ
فليت الباكيات بكل أرضٍ ... جمعن لنا فنحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحتري في مدح المشيب:

عذلتنا في عشقها أم عمروٍ ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمةً ألم بها الشيـ ... ـب فريعت من ظلمة في شروق
ولعمري لولا الأقاحي لأبصر ... ت أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يجاور ... ه بياض ما كان بالموموق
ومزاج الصبهاء بالماءِ أملى ... بصبوح مُستحسنٍ وغبوق
أي ليلٍ يبهى بغير نجومٍ ... أو سحاب يندى بغير بروق

لكن ماذا يصنع الأشيب ، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير ؟ !



بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع. ونتقدم ذلك بقول بعض الأندلسيين وقد قبل من يهواه:

يــــا رب إن قدرتــــه لمقبــــل غيــــري فللمســــواك أو للاكــــؤسِ
وإذا قضـيت لنـا بصـحبة ثالـثٍ يـا رب فليـك شـمعة فـي المجلـس
وإذا حكمـت لنـا بعـين مراقـبٍ يـا رب فليـك مـن عيـون النـرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن ينعم بحبيبه سواه ، فجعل بتمنى ، ولو تنفع الأماني ، إن لا يراقبهم غير النرجس ، وإن لا يصحبهم غير الشمعة ، وأن لا يقبل محبوبه غير الكأس أو المسواك ؟ !

وقد جُن العرب بالغيرة جنونًا: فتخيلوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من عالم الأرواح ، وقد زُفت إلى غيره بعد موته بقليل:

فبعض غدرت ولم ترعي لبعلك حرمةً ولـم تعرفـي حقًـا ولـم تحفظـي عهـدا
ولـم تصبري حولاً حفاظًا لصاحب حلفـت لـه يومًـا ولـم تنجـزي وعـدا
غـدرت بـه لمـا ثـوى فـي ضـريحه كـذلك ينسى كـل مـن سـكن اللحـدا

وتخيل رواة العرب أن موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد اقبلت من بعده على أخيه هرون فأنشدها وهي نائمة هذه الأبيات:

أخلفــت عهــدي بعــد مــا جــــاورتُ ســــكان المقــــابر
ونكحـــت غـــادرةً أخـــي صـــدق الـــذي ســـماك غـــادر
لا يهنـــك الإلـــف الجديـــ ــــد ولا تـــنم عنـــك الـــدوائر
ولحقـــت بـــي قبـــل الصـــبا ح وصــرت حيــث غــدوت صــائر

بعد هذا التمهيد يستطيع القاريء أن يدرك لِمَ حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته !! وحديث هذا الشاعر عجيب: فقد ذكروا أنه اشترى غلامًا

وجارية ، ثم شغفاه حبًا ، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله !! ثم خشي أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال: فذحبهما وأحرقهما وصنع من ترابهما آنيتين للشراب !!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية:

اشفقت أن يرد الزمان بغدره	أو أُبتلى بعد الوصال بهجره
قمر قد استخرجته من دجنه	لبليتي وأثرتهُ من خِدرِهِ
فقتلته وله علي كرامة	فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتًا كأحسن نائمٍ	والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده	بالحي منهُ بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه	ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي يندر أن نجد أحر منها في الرثاء:

يا طلعةً طلع الحمام عليها	فجنى لها ثَمرَ الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خناقها	ومدامعي تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعليها وما وطيء الثرى	شيء أعز علي من نعليها
ما كان قبليها لأني لم أكن	أبكي إذا سقطع الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة ، ولا برهانًا أسطع من هذا البرهان!!

وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير قوله:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ‏ ‏ وقت الزيارة فارجعي بسلام

وكانت تقول: قاتله الله ما أقساه: هلا قال: ادخلي بسلام !

فلو سمعت السيدة سكينة بهذا المحب السفاح لطال بكاؤها على صرعى الغيرة، وقتلى الإشفاق !! ولئن كان الجنون فنونًا كما يقولون ، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون

الجنون ! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة في أنفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال ! ألم يكفهم أن الحسن حال تحول ، ودولة تدول ، حتى تسوق غيرتهم إليه الفناء ؟ وبعد فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا «ديك الجن» وأنه في فعلته هذه لشيطان مريد !!

هذا ، ومن الشعراء من يغار من عود البشام حين ستاك به الحبيب ، ومن العقد يطوق به الجيد ، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل ، كما قال الشريف:

يا غزال الجزع لو كا ... ن على الجزع لمام
أحسد الطوق على جيـ ... ـدك والطوق لِزامُ
وأعض الكف إن نا ... ل ثناياك البشام
وأغار اليوم إن مر ... على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه ، كما قال خالد الكاتب:

محبك شفهُ ألمه ... وخامر جسمه سقمه
وباح بما يُجمجمهُ ... من الأسرار مكتتمه
أما ترثي لمكتئبٍ ... يحبك لحمه ودمه
يغار على قميصك حيـ ... ـن تلبسهُ ويتهمه

وكما قال بعض الأعراب:

أرى القميص على ليلى فأحسده ... إن القميص على ما ضم محسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه ، وفيكني عنه ، لئلا تتمتع به الآذان ، كما قال البها زهير:

وأنزه اسمك أن تمر حروفه ... من غيرتي بمسامع الجُلاسِ
فأقول بعض الناس عنك كناية ... خوف الوشاةِ وأنت كل الناس

وقد يغار المحب على حبيبه من نفسه ، كما قال أبو تمام:

بنفسي من أغار عليه مني ... وتحسد مقلتي نظري إليه

ولــو أنــي قَــدَرت طمســت عنــه عيــون النــاس مــن حــذري عليــه
حبيــبٌ بــث فــي قليبــي هــواهُ وأمســـك مهجتـــي رهنًـــا لديـــه
فروحــي عنــده والجســم خــالٍ بـــلا روحٍ وقلبـــي فـــي يديـــه



الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الأحباب إليهم ، وتوجيه أفكارهم نحوهم ، حتى ينالوا طلبتهم من القرب ، وبغيتهم من الوصل ، ولذلك حالات: فمن العشاق من يقبح لحبيبه المطل والخلف ، حتى يبر بوعده ، ويفي بعهده. كقول ابن الأحنف:

كأن لم يكن بيني وبينكم هوى ولم يك موصولاً بحبلكم حبلي
وإني لأستحيي لكم من محدثٍ يحدث عنكم بالملالة والمطلِ

وكقول الطغرائي:

ويا جيرتي بالجزع جسمي بعدكم شهي نحيل وطرفي بالسهاد كليلُ
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقًا فخان وخنتم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته مطلتم وشر الغارمين مطول
فإن عدتمُ يومًا تريدون مهجتي تمنعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُحرم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبح الإخلاف ، وإنما يرجو وعدًا يجلو به كربة قلبه ، ويطفيء به نار جواه ، لو تغني الوعود !
وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر ، وقد صادف في توحشه حي ليلى ، ولقيها فجأة فعرفها وعرفته ، فصعق وخر مغشيًا عليه ، وأقبل فتيان من حي ليلى فأخذوه ، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم ، وسألوا أن تقف له وقفة ! فرقت لما رأته وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ثم قالت لجاريتها: اذهبي إلى قيس فقولي له: ليلى تقرأ عليك السلام ، وتقول لك أعزز علي بما أنت فيه ! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي ! فمضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس ، وقال: أبلغيها السلام ، وقولي لها هيهات هيهات ! إن دائي ودوائي

أنت ، وإن حياتي ووفاتي لفي يديك ، ولقد وكلت بي شقاءً لازمًا وبلاءً طويلا ، ثم بكى ، وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوؤها ... قريب ولكن في تناولها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ ... على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشيًا علي وقد مضت ... أناة وما عندي جواب ولا رد
أقلب بالأيدي وأهلي بودهم ... يُفدونني لو يستطيعون أن يفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريًا ... ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أدناي ما لي في انقطاعي ورغبتي ... إليك ثواب منك دين ولا نقد
عديني بنفسي أنت وعدًا فربما ... جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتني جنود الحب من كل جانب ... إذا حان من جُند قفول أتى جند

والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال ، فما زال المحبون صرعى مساكين ، إن قفلت عنهم جنود الخدود ،غزتهم جنود العيون ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعًا حتى ذهبت بلبه ، ولم يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال !

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعدًا يطارد به جيوش الأحزان ، ولا يرجو الوفاء بوعد كأن يهتدي به في ظلمات الشجون ، وإنما يُلمح وقد يكون التلميح ، أبلغ من التصريح. فيذكر أن الحسن يحدق به من كل جانب ، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول. وانظر قول الأبيوردي في هذا المعنى البديع:

وقتك الردى بيض حسان وجوهها ... ومثرية من نضرة وجمال
طلعن بدورًا في دجى من ذوائب ... ومسن غصونًا في متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها ... بأعراف حودٍ أو رءوس عوال
عرضن علي الوصل والقلب كله ... لديك فأنى يبتغين وصالي
ولولاك ما بعت العراق وأهله ... بوادي الحمى والمندلي بضال
فما لنساء الحي يضمرن غيرة ... سبتها العوالي ما لهن وما لي
ولو خالفتني في متابعة الهوى ... يميني ما واصلتها بشمالي

وفيــك صــدود مــن دلالٍ أظنــه على ما حكى الواشي صدود ملال

وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب. وإليك قول ابن الخياط:

احـن إلـى سـقمي لعلـك عائـدي ومـن كلـفٍ أنـي أحـن إلـى السـقم
وحتام أستشفي من الداء ما به سقامي واستروي من الدمع ما يظمي
فراق أتى في إثر هجرٍ وما أذىً بأوجع من كلم أصاب على كَلْمِ

مسكين هذا المحب ، يتمنى المرض ليعاد ، فهل يعلم أن من المحبين من أشقاه المرض ، فلم يسعده العواد. وهل أتاه حديث ابن الأحنف وقد لج به المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين:

فبعض أهابك أن أشكو إليك وليس لي يـد بالـذي ألقـى وأخفـى مـن الوجـد
وإني لصادي الجوف والماء حاضر أراه ولكــن لا ســبيل إلــى الــورد
وما كنت أخشى أن تكون منيتي بكف أخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت إليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الأحنف إلى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه ؟

انظر إلى ذلك العليل ، وقد خفي الداء ، وتعذر الشفاء ، وكلما عُصر الماء في فيه مجه، كما يفعل الطفل الغرير ، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته ، وسحر بسماته ، وإن نودي لم يجب بغير الأنين ، انظر إليه وقد تمنى جرعة مزجت بريق حبيبته يحملها إليه الحجاج في زجاجة ! ولو أمكن أن تنقل إليه النظرة ، لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة ، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجالهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العِذاب ! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم أن يصوروا مشيتها الفتانة في الضحى والأصيل ! انظر إليه وهو يروجوهم أن يتعللوا عند أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم ! ويحك ، وأين ماء زمزم الملح الاجاج ، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات ؟ انظر إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه ، فإن صادفوه ميتًا فليرشوه على قبره ! انظر كيف يقول:

ازوار بيت الله مروا بيثرب لحاجة متبول الفؤاد كئيب

وقولو لهم يا أهل يثرب أسعدوا على جلب للحادثات جليبِ

فإنا تركنا بالعراق أخا هوى تنشب رهنا في حبال شعوب

به سقم أعيا المداوين علمه سوى ظنهم من مخطيءٍ ومصيب

إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه وإن نحن نادينا فغير مجيب

خذو إلي منها جرعة في زجاجة الا أنها لو تعلمون طبيبي

وسيروا فإن أدركتم بي حشاشةً لها في نواحي الصدر وجس دبيب

فرشوا على وجهي أفق من بليتي يثيبكم ذو العرش خير مثيب

فإن قال أهلي ما الذي جئتم به وقد يحسن التعليل كل أريب

فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم لنشفيه من دائه بذنوب

وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم وبيني بيومٍ للمنون عصيب

وصرت من الدنيا إلى قعر حفرةٍ حليف صفيحٍ مطبق وكثيب

فرشوا على قبري من الماء واندبوا قتيل كعاب لا قتيل حروب

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئًا ، ولا يخاف شيئًا ، وكل مناه أن يعلم فاتنوه أنه يحبهم ، وإن يسمعوا صوت ما يجد ، وأنه لمطلب زهيد ، ولكنه قد يصبح صعب المنال ، وانظر هذه الأبيات التي يندر أن نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاه من اذكوا نار جواه ، وتركوه يتلوى ويتململ ، فوق جمر الهوى وجمر الصدود:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبًا بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا

جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا

لأخرجن من الدنيا وحبكم بين الجوانح لم يشعر به أحد

حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم قلبي وإن تسمعوا صوت الذي أجد

ومن حسن الإشارة قول إبراهيم بن المهدي:

يا غزالاً لي إليه شافع من مُقلتيه

والـــذي أجللـــت خذيـــه فقبلـــت يديـــه
بـــأني وجهـــك مـــا أكـــثر حســـادي عليـــه
أنـــا ضـــيف وجـــزاء الضيـــف إحســـان إليـــه

والإحسان الذي يرجوه هذا الشارع يذكرنا بقول بعض الأعراب:

آل ليلـــى أن ضـــيفهم واجـــد بـــالحي مـــذ نـــزلا
أمكنـــوه مـــن ثنيتهـــا لـــم يـــرد خمـــرًا ولا عســـلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون:

يـــا هـــلالاً تتـــراءا ه نفـــوس لا عيـــون
عجبًـــا للقلـــب يقســـو منـــك والعطـــف يلـــين
مـــا الـــذي ضـــرك لـــو سـر بمـــرآك الحـــزين
وتلطفـــت بصـــبٍ حينـــه فيـــك يحـــين
فوجـــوه اللطـــف شـــتى والمعـــاذير فنـــون

وما أوجع الأسى في قول ابن هانيء:

يـا بنـت ذي البـرد الطويـل نجـاده أكـذا يجـور الحكـم فـي ناديـك
عينـاك أم مغنـاك موعـدنا وفـي وادي الكـرى ألقـاك أم واديـك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو عثـروا بطيـفٍ طـارقٍ ظنـوك
ودعـوك نشـوى مـا سـقوكِ مدامـة لمـا تمايـل عطفـك اتهمـوك
حسبوا التكحل في جفونك حلية تـالله مـا بـأكفم كحلـول
وجلـوك لـي إذ نحـن غصـنا بانـةٍ حتـى إذا احتفـل الهـوى حجبـوا

ويندر أن تجد بين الأدباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية:

عقيليـة أمـا مـلاث إزارهـا فـدعص وأمـا صـخرها فبتيـل
تقـيظ أكنـاف الحمـى ويظلهـا بنعمـان مـن وادي الاراك مقيـل
ألـيس قلـيلا نظـرة إن نظرتهـا إليـك ، وكـلا لـيس منـك قليـل

فيا خلة النفس التي ليس دونها — لنا من إخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبه لم يطع به — عدو ولم يؤمن عليه دخيل
أما من مقامٍ اشتكى غربة النوى — وخوف العدا فيك إليك سبيل
فؤادي أسير لا يفك ومهجتي — تفيض وأحزاني عليك تطول
ولي مقلة قرحى لطول اشتياقها — إليك وأجفاني عليك همول
فديتك أعدائي كثير وشقتي — بعيد وأشياعي لديك قليل
وكنت إذا ما جئت جئت بعلة — فأفنيت علاتي فكيف أقول
فما كل يومٍ لي بأرضك حاجة — ولا كل يوم لي إليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويتها — ستنشر يومًا والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة — فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع:

اجبني إن تفضلت — على المسكين بالرد
أأنسى الدهر ما جادت — به عيناك من وعد ؟
وارسم للمنى حدًا — وما لجواي من حد ؟
وأقنع بالردي وزدًا — وغيري سائغ الورد ؟
وأرضى باللظي مثوى — ووجهك جنة الخلد ؟

—

وفيًا حافظًا أشقى — ليسعد ناقض العهد
وصبًا والهًا أفنى — ليبقى جاحد الود
فيا ويلاهُ من حبٍ — حملت بلاءه وحدي !
أعده لحمله جهدي — فيصعق بطشه جهدي

الحنين

هل اتاك حديث الصمه بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه ، وكان لها محبًا ، فاشتط عليه عمه في المهر ، فاستعان بأبيه وكان مثريًا فلم يعنه ، فأم عشيرته فأسعفوه ، ثم ساق الإبل إلى عمه ، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي ، فسل أباك أن يبدلها لك. فسأل أباه ذلك فأبى عليه ، فلما رأى ضن أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير إلى أهله... ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بعيرًا فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها. فقال الصمة: والله ما رأيت ألأم منكما ، وإني لألأم منكما جميعًا إن أقمت بينكما. ثم رحل إلى الشام. فقالت ابنة عمه: تالله ما رأيت كاليوم رجلاً باعته عشيرته ببعير !!

تأمل أيها القاريء هذه القصة الوجيزة ، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال ، ولا تطالبني بأكثر من هذا الإيجاز ، فإنما أتخذه مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين... ألم تر إليه وقد طالت غربته ، فبعث الشوق بقلبه ، واعتادته ذكرى أحبابه وأوطانه. فقال يعاتب نفسه ، ويحاور فؤاده:

أمن ذكر دارٍ بالرقاشين أصبحت   بها عاصفات الصيف بدءًا ورجعا
حننت إلى ريا ونفسك باعدت   مزارك من ريا وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتي الأمر طائعًا   وتجزع أن داعي الصبابة اسمعا

ثم أخذ يخاطب رفيقيه – وقد بالغا في لومه وأطالا في تأنيبه – فقال:

ألا يا خليلي اللذين تواصيا   بلومي إلا أن أطيع وأتبعا
قفا إنه لابد من رجع نظرة   يمانيةٍ شتى بها القوم أو معا
لمغتصبٍ قد عزه القوم أمره   حياءً يكف الدمع أن يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتيئيسهم فقال:

فبعض فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى   شـهي يقينًـا ونـروى بالشـراب فننقعـا
فردوا هبوب الريح أو غيروا الجوى   إذ حـــل ألـــواذ الحشـــا فتمنعـــا

ومن يستطيع ذلك ؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عذله ، وبالغ في لومه ، بقادر على نسيانك، أو سلوانك:

ظـن الهـوى لبسـة تبلـى فيخلعهـا   فكان في القلب مثل القلب في البدن

ثم عاد إلى رفيقيه يسألهما الإسعاد والإنجاد:

فبعض قفا ودعا نجدًا ومن حل بالحمى   وقـــل لنجـــدٍ عنـــدنا أن يودعـــا

مسكين ! وقل لنجد أن يودع ! إذن فما كنت صانعًا لو أنصفته ؟ أكنت تغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك أعطاؤك ، ويرثي لك حاسدوك ؟ أم كنت تقتل نفسك جوى وحزنًا ؟ ثم قال:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى   ومـــا أجمـــل المصـــطاف والمتربعـــا
وليسـت عشـيات الحمـى برواجـعٍ   إليـــك ولكـــن خـــل عينيـــك تـــدمعا

اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك

واسـتبق دمعـك لا يـودي البكـاء بـه   وأكفـف مـدامع مـن عينيـك تسـتبق
فمـا الشـئون وإن جـادت بباقيـةٍ   ولا الجفـون علـى هـذا ولا الحـدق

ثم أخذ يصف وقفه وقد حال (البشر) بينه وبين أحبابه وأوطانه. فقال:

ولمـا رأيـت (البشـر) أعـرض دوننـا   وحالـت بنـات الشـوق يحـنن نزعـا
بكـت عينـي اليسـرى فلمـا زجرتهـا   عـن الجهـل بعـد الحلـم اسـبلتا معـا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال ، وهو عندي من دلائل الوله وعلائم الصبابة المضلة. ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العنت:

فبع تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الإصغاء ليتًا واخدعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان. وقد تبعه الشريف الرضي فأبدع وأجاد في قوله:

ولقد مررت على ديارهم وربوعها بيد البلى نهب

فوقفت حتى ضج من لغبٍ نضوى ولج بعذلي الركب

وتلفتت عيني فمذ خفيت عني الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر التعب. فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة. ثم قال الصمة في تتمة الحديث عن جواه:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة. وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله:

أضم على قلبي يدي مخافة إذا لاح لي برق من الشرق لامع

وهل ينفع القلب الذي بان إلفه إذا طار شوقًا أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه:

وعدتني بزفرة واعتناقِ ثم نادت متى يكون التلاقي

وبدت لي فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب والأطواق

يا سقيم الجفون من غير سقم بين عينيك مصرع العشاق

إن يوم الفراق أفظع يوم ليتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرتحل فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود ، وقد يظعن حبيبه ويقيم ، فيأخذ في الإعوال عليه ، والحنين إليه ، وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتيها جوى وحزنًا ، بل ربما كانت أكثر حيرة: وهي أن يلتقي الركبان وفيهما محب ومحبوب ، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى الصبان: ويجتمع الخلان ، فلا يدري العاشق أي عهد يبكي ، وأي حظ يندب ، كما لا يعرف أيلوم

نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيمًا ، أم يشكو دهره لأن حبيبه سار وخلفه ، أم يعول إعوالاً مبهما لا يعرف مصدره ، ولا يفهم مبعثه ، والشعر في هذا المعنى أقرب إلى الذكرى منه إلى الحنين ، ومن الجيد فيه قول الأرجاني:

استودع الله قومًا كيف أبعدنا ... تقلب الدهر منهم حين أدنانا
زموا الغداة مطاياهم لفرقتنا ... لما أنخنا للقياهم مطايانا
لم تشتبك بعد أطناب الخيام لنا ... ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا ... وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من أحبابه نظرًا ... إذ غادر الدمع منه الجفن ملآنا

وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه ، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه ، أو خلف أحبابه وسار ، فمن الأول قول سبط التعاويذي:

أتعود أيامي برامة بعد ما ... سكنت بجرعاء الحمى آرامها
وأحلها البين المشت محلةً ... بعدت مراميها وعز مرامها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت ... نفس يزيد على الورود هيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي ... لبعادهم نارًا يشب ضرامها
بنتم فلا عيني تجف غروبها ... أسفًا ولا كبدي يبل أوامها
جودوا لعين المستهام بهجعة ... فعسى تمثلكم لها أحلامها
لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق ... سيان بين حميمها وحمامها
أعداه من هيف الخصور نحولها ... يوم النوى ومن العيون سقامها

ولم أد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين:

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي ... وكذا العزيز لكل خطب يُذخرُ
يا ساكني وادي العقيق فدتكم ... عين مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم ... لفظًا ولم يحسن لعيني منظر

والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبي ربيعة:

لم يجب القلب شيئًا مثل حبكم ... ش ولم تر العين شيئًا بعدكم حسنًا

فأما شعر من نأوا عن أحبابهم ، وخلوا معاهد انسهم ، فهو كثير ، ومن جيده قول الأبيوردي يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم ببغداد:

ألاليت شعري هل أراني بغيضةٍ ... أبيت على أرجائها وأقيلُ
هواء كأيام الهوى لا يغبه ... نسيم كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيق الطرتين تدرجت ... على صفحتيه نضرة وقبول
وأرض حصاها لؤلؤ وترابها ... تضوع مسكًا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهية ... وليلي قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائي ببغداد هل بكم ... سلو فعندي رنة وعويل
ترنحني ذكراكم فكأنما ... تميل بي الصهباء حيث أميل
لئت قصرت أيام أنسي بقربكم ... فليلي على نأي المزار طويل

وقال اعرابي من بني عقيل:

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافعي ... بشيء ولكني على ذاك انظر
أفي كل يوم نظرة ثم عبرة ... لعينيك يجري ماؤها يتحدر
متى يستريح القلب إما مجاور ... حزين وإما نازح يتذكر

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف:

فبع سقى الله أيامًا لنا قد تتابعت ... وسقيًا لعصر العامرية من عصر
ليالي أعطيت البطالة مقودي ... تمر الليالي والشهور ولا أدري

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة:

ألا لا أرى وادي المياه بثيب ... ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وأنني ... لمشتهر بالواديين غريب
أحقًا عباد الله إن لست واردًا ... ولا صادرًا إلا علي رقيب
ولا زائرًا فردًا ولا في جماعةٍ ... من الناس إلا قيل أنت مريب

وهـل ريبـة فـي أن تحـن نجيبـة إلـى إلفهـا أو أن يحـن نجيـب

وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إلـي وإن لـم آتـهِ لحبيـب

لـك الله أنـي واصـل مـا وصـلتني ومـثنٍ بمـا أوليتنـي ومثيـب

وآخـذ مـا أعطيـتِ عفـوًا وإننـي لأزور عمـا تكـرهين هيـوب

فـلا تتركـي نفسـي شـعاعًا فإنهـا مـن الوجـد قـد كـادت عليـك تـذوب

وإنـي لأسـتحييك حتـى كأنمـا علـي بظهـر الغيـب منـك رقيـب

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع:

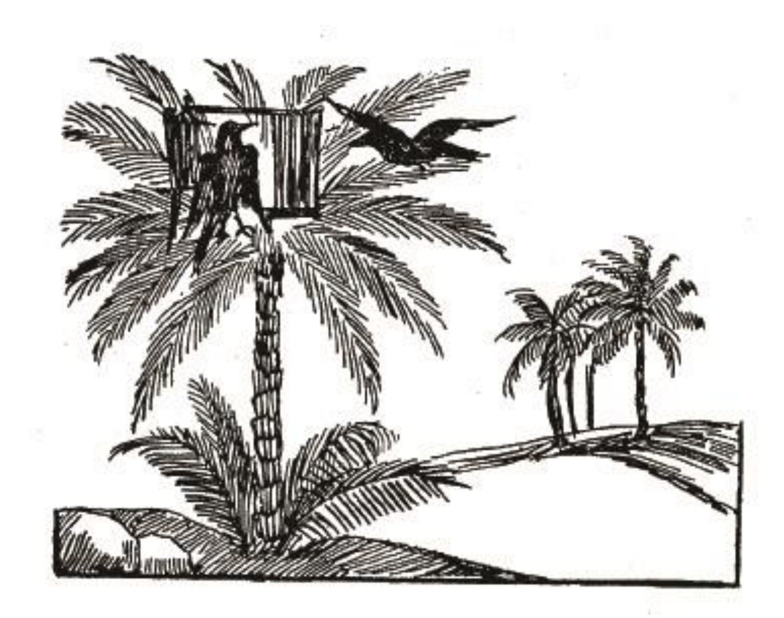
تجمـل بالسـماح ودع ملامـي وكـن عـون المحـب المسـتهام

ففـي أسـيوط لـو تـدري حبيـب هجـرت لبعـده طيـب المنـام

أسـيت لـه يحـن إلـى لقـائي ودون مرامـه كيـد اللئـام

إذا مـا الليـل جـن ونـام صـحى مشـت نـار التـذكر فـي عظـامي

سـلام أيهـا النـائي سـلام وهـل يغنـي عـن اللقيـا سـلامي



الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رقة القلوب ، فمن ذلك قول خالد الكاتب:

بجسمي لا بجسمك يا عليلُ ويكفيني من الأمل القليل
تعداك السقام إلى إني على ما بي لشدته حمول
إذا ما كنت يا أملي صحيحًا فحالفني وسالمك النحول

وهذه أبيات ضعيفة ، لا تتناسب مع شاعرية من يقول:

وحسبك حسرة لك من حبيبٍ رأيت زمامه بيدي عدوه

وقد يتمنى المحب لو أعفى المرض محبوبه ، ورتع كيف شاء في الأجسام الدميمة ، كما قال سُحيم:

ماذا يريد السقام من قمرٍ كل جمالٍ لوجهه تبع
ما يرتجى ، خاب من محاسنها أماله في القباح مُتسع
لو كان يبغي الفداء قلت لهُ ها أنا دون الحبيب يا وجع

وما أرق ما يقول ابن الأحنف:

فب إن التي هامت بها النفس عاودها من سقمها نكس
كانت إذا ما جاءها المبتلي أبرأه من راحها اللمس
وا بأبي الوجه المليح الذي قد عشقته الجن والإنس
إن تكن الحمى أضرت به فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله:

أما والله لو تجدين وجدي لقلقل ما وجدت إذًا حشاك
وقال الله كل أذى بنفسي وعجل يا ظلوم لنا شفاك

وأنشد أبو الحسن بن البراء:

فـديتك ليلـى مـذ مرضـت طويـل ودمعـي لمـا لاقيـت فيـك همـول

أأشـرب كأسًـا أم أسـر بلـذةٍ ويعجبنـي ظبـي أغـن كحيـل

وتضـحك سـني أو تجـف مـدامعي وأصـبو إلـى لهـوٍ وأنـت عليـل

ثكلـت إذًا نفسـي وقامـت قيـامتي وغالـت حيـاتي عنـد ذلـك غـول

وقال يوسف بن إبراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورًا:

حاشـاك أن تمـرض حاشـاكا قـد اشـتكى قلبـي لشـكواكا

إن كنـت محمومًـا ضـعيف القـوى فـإنني أحسـد حماكـا

مـا رضـيت حمـاك إذ باشـرت جسـمك حتـى قبلـت فاكـا

وهذا الشعر وإن كان خطابًا لوزير إلا أن فيه سمات التشبيب !

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب ، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم ، كما قال المؤمل:

حلمت بكم في نومتي فغضبتم ... ولا ذنب لي إن كنت في النوم أحلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم ... إذا ما أتاني النوم والناس نوم
تصارمني والله يعلم أنني ... أبر بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي أنها نذرت دمي ... وما لي بحمد الله لحم ولا دم
برى حبها لحمي ولم يبق لي دمًا ... وإن زعموا أني صحيح مسلم
فلم أر مثل الحب صح سقيمه ... ولا مثل من لم يعرف الحب يسقم
ستقتل جلدًا باليًا فوق أعظمٍ ... وليس يبالي القتل جلد وأعظم

ومنهم من يبلى جسمه ، ولا يبلى شوقه ، كما قال أبو تمام:

يا جفونًا سواهرًا أعدمتها ... لذة النوم والرقاد جفون
بلي الجسم لكن الشوق حي ... ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله في العباد منايا ... سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء:

فداؤك من أوردته منهل الردى ... وورد الردى للعاشقين يطيب
وما مات حتى أنحل الحب جسمه ... فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرجاني يذكر أن طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصه إليه لنحوله ويقول:

يروي ضاحي الوجنات دمعي ... ويعدل عن لهيب جوى دخيل
وما نفعي وإن هطلت غيوث ... إذا أخطأن أمكنة المحول
هم نقضوا عهودي يوم بانوا ... وأبدوا صفحة الطرف الملول

وفــوا بــالهجر لمــا أوعــدوني	وكـم وعـدوا الوصـال ولـم يفـوا لـي
وفــي الركــب الهلاليــين خشــف	تعــرض يــوم تشــييع الحمــول
أصــاب بطرفــه الفتــان قلبــي	وكيــف يصــاب مــاضٍ مــن كليــل
بخلـت وقـد حظيـت بصـفوودي	وإن مــن العنــاء هــوى البخيــل
وبـت لـو اسـتزرت اليـوم طيفـي	لجـر إليـك شخصـي مـن نحـولي
ولكــن لا ســبيل إلــى شــفاءٍ	إذا مــال الطبيــب علــى العليــل

ومنهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود تمامٍ ما تأود ، كما قال الحسين بن مطير الأسدي:

خليلـي هـل ليلـى مؤديـة دمـي	إذا قتلتنــي أو أميــر يقيــدها
وكيف تقاد النفس بالنفس لم تقل	قتلـت ولـم يشـهد عليهـا شـهودها
ولـن يلبـث الواشـون أن يصـدعوا العصـا	إذا لـم يكـن صـلبًا على البـري عودها
نظـرت إليهـا نظـرةً مـا يسـرني	بهـا خمـر انعـام الـبلاد وسـودها
ولي نظرة بعد الصدود من الجوى	كنظـرة ثكلـى قـد أصـيب وحيـدها
فحتا متى هذا الصودود إلى متى	لقـد شـف نفسـي هجرهـا وصـدودها
فلــو أن مــا أبقيــت منــي معلــق	بعــود ثُمــامٍ مــا تــأود عودهــا

وقال الحارثي في وصف آصار النحول:

سـلبت عظـامي لحمهـا فتركتهـا	مجــردة تضــحى لــديك وتخصــر
وأخليتهــا مــن مخهــا فكأنهــا	أنابيـب فـي أجوافهـا الـريح تصـفر
إذا سـمعت باسـم الفـراق تقعقعت	مفاصــلها مــن هــول مــا تتنظــر
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنطري	بــي الضــر إلا أننــي أتســتر
فما حيلتي إن لـم تكـن لـك رحمة	علـي ولا لـي عنـك صـبر فأصـبر

ويقول ابن الأحنف:

فبع انظر إلى جسدٍ اضر به الهوى	لــولا تقلــب طرفــه دفنــوه

وتابعه المتنبي فقال:

كفى بجسمي نحولاً لأنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته إلى بعض أحبابه:

سكنت إلى النوى ونسيت صبًا ... شهي نحيلا كاد يقتله الحنين

فلما لم يجد في الحب صبرًا ... ولم ترحم جوانحه الشجون

تفانى في النحول فلو تبدى ... لما فطنت لخطرته العيون

وها هو كالخيال أتاك يسرى ... مخافة أن تظن به الظنون

فأكرم نزله وأرحم ضناه ... فإن فؤادك الحرم الأمين

وقال بعض الشعراء:

إن الذي أبقيت من جسمه ... يا متلف الصب ولم يشعر

صبابة لو أنها دمعة ... تجول في عينيك لم تقطر[١]



[١] الصبابة بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء.

أماني المحبين

وللمحبين أمانٍ كثيرة ، لو تنفع الأماني ، فمنهم من يتمنى الكأس من يد جميل ، بين ندمان يعاطونه أطايب الحديث ، كما قال العطوي:

وكم قالوا تمن فقلت كأس ... يطوف بها قضيب من كثيب
وندمان تساقطني حديثًا ... كلحظ الحب أو غض الرقيب

وإنها لأمنية عزيزة المنال !

ومنهم من يسامر الأماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه ، كما قال ابن الزيات:

يا داني الدار في الأماني ... ونازح الدار في العيان
ذكرك دانٍ وأنت ناءٍ ... فأنت ناءٍ وأنت دانِ
نفسك موصولة بنفسي ... وأنت كالنجم من سكاني
لي فكر فيك معجبات ... في اللفظ صفر من المعاني
تجري ضرب من التمني ... في كل يوم على لساني
أقول حتى كأن عيني ... تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته ، ويقول:

مجلس ينسب السرور إليه ... بمحبٍ ريحانه ذكراكِ
كلما دارت الزجاجة زادتـ ... ـهُ اشتياقًا وحُرقةً فبكاكِ
لم ينلك الرجاء أن تحضريني ... وتجافت أمنيتي عن سواكِ
فتمنيت أن يغشيني اللـ ... ـه نُعاسًا لعل عيني تراك

وربما تمنى المحب لو أُعير سلوة من قلب حبيبه ، كما قال البحتري:

وددت وهل نفس أمريءٍ بملومةٍ ... إذا هي لم تعط الهوى من ودادها
لو أن سليمي أسجحت أو لو أنه ... أعير فؤادي سلوة من فؤادها

وما أظرف النشوة التي تمناها البحتري حين قال:

هل لي سبيل إلى الظهران من … ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ

حلب … وحاجتي كلها في حامل الكاس

أمد كفي لأخذ الكأس من رشأٍ … دنا فقربها من حر أنفاسي

بغرب أنفاسه أشفي الغليل إذا

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهُذلي ، فقد تمنى أن يجتمع بحبيبته فوق أمواج البحر ، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال ، وإليك أروع هذه القصيدة البديعة:

لليلى بذات الجيش دار عرفتها … وأخرى بذات البين آياتها سطر

كأنما مالآن لم يتغيرا … وقد مر للدارين من بعدنا عصر

وقفت برسميها فعي جوابها … فقلت وعيني دمعها سرب همر

ألا أيها الركب المخبون هل لكم … بساكن أجزاع الحمى بعدنا خبر

فقالوا طوينا ذاك ليلا فإن يكن … به بعض من تهوى فما شعر السفر

•

أما والذي أبكى وأضحك والذي … أمات واحيا والذي أمرهُ الأمرُ

لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها … بتاتًا لأخرى الدهر ما طلع الفجر

فما هو إلا أن أراها فُجاءة … فأبهت لا عُرفٌ لدي ولا نُكرُ

وانسى الذي قد كنت فيه هجرتها … كما قد تنسي لب شاربها الخمر

وما تركت لي من شذًا أهتدي به … ولا ضلعٍ إلا وفي عظمها وقر

وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى … اليفين منها لا يروعهما الذعر

ويمنعني من بعض إنكار ظلمها … إذا ظلمت يومًا وإن كان لي عذر

مخافةُ إني قد علمت لئن بدا … لي الهجر منهاما على هجرها صبر

وإني لا أدري إذا النفس أشرفت … على هجرها ما يبلغن بي الهجر

تكاد يدي تندى إذا ما لمستها … وينبت في أطرافها الورق النضر

وأنـــي لتعرونـــي لـــذكراك هِـــزةٌ كمـا انـتفض العصـفور بـالله القطـر

تمنيـــت مـــن حبـــي عليـــة أننـــا على رمـثٍ فـي البحـر لـيس لنـا وفـر

علـى دائـمٍ لا يعبـر الفلـك موجـه ومـن دوننـا الأهـوال واللجـج الخضـر

فتقضـي هـم الـنفس فـي غيـر رقبـةٍ ويغـرق مـــن نخشـى نميمتـه البحـر

عجبـت لسـعي الـدهر بينـي وبينهـا فلمـا انقضـى مـا بيننـا سـكن الـدهر

فيـا حبهـا زدنـي جـوى كـل ليلـة ويـا سـلوة الأيـام موعـدك الحشـر

هجرتك حتى قلت لا يعرف القلى وزرتـك حتـى قلـت لـيس لـه صـبر

صدقت أنا الصب المصاب الذي بـــــــــــــــه تبـاريح حـب خـامر القلـب أو سـحر

فيـا حبـذا الأحيـاء مـا دمـت فـيهم ويـا حبـذا الأمـوات مـا ضـمك القبـر

وإليك شتى الأماني في قول جميل:

جزتـكِ الجـوازي يـا بثـين ملامـة إذا مـا خليـل بـأن وهـو حميـد

ألا ليـت شـعري هـل أبيـتن ليلـةً بـوادي القـرى ؟ إنـي إذًا لسـعيد

فقـد تلتقـي الأهـواء مـن بعـد يأسـه وقـد تطلـب الحاجـات وهـي بعيـد

ويحسـب نسـوان مـن الجهـل أنني إذا جئـت إيـاهن كنـت أريـد

فأقسـم طرفـي بيـنهن سـوية وفـي الصـدر بـون بيـنهن بعيـد

فليـت وشـاة النـاس بينـي وبينهـا يـدوف لهـم سـما طمـاطم سـود

وليـتهم فـي كـل ممسـى وشـارقٍ تضـاعف أكبـال لهـم وقيـود

إذا جئتهـا يومًـا مـن الـدهر زائـرًا تعـرض منقـوص اليـدين صـدود

يصـد ويغضـني عـن هـواي ويحتنـي ذنوبًـا علينـا إنـه لعنـود

فأصـرمها خوفًـا كـأني مجانـب ويغفـل عنـا مـرةً فنعـود

يقولـون جاهـد يـا جميـل بغـزوةٍ وأي جهـاد غيـرهن أريـد

لكـل حـديثٍ بيـنهن بشاشـة وكـل قتيـلٍ بيـنهن شـهيد

وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهري:

ولمـا نزلنـا منـزلاً طلـه النـدى　　أنيقًـا وبسـتانًا مـن النـور حاليـا
أجـد لنـا طيـب المكـان وحسـنُهُ　　منـى فتمنينـا فكنـتِ الأمانيـا

الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن ، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون أرباب وانظر قول أبي فراس:

أراميتي كل السهام مصيبة ش وأنت لي الرامي فكلي مقاتل
وإني لمقدام وعندك هائب وفي الحي سبحان وعندِ باقل
يضل علي القول إن زرت دارها ويعزب عني وجه ما أنا فاعل
وحجتها العليا على كل حالةٍ فباطلها حق وحقي باطل

وما أرق قوله في عكس هذا المعنى:

ومُغضٍ للمهابة عن جوابي وإن لسانه العضب الصقيل
أطلت عتابهُ عنتًا وظلمًا فدمع ثم قال: كما تقول !

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن ، قول الحسن بن وهب:

أقول وقد حاولت تقبيل كفها وبي رعدة أهتز منها وأسكن
ليهنك أني أشجع الناس كلهم لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حَبيبُها
وما هجرتك النفس أنك عندها قليل ولكن قل منك نَصيبُها

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف:

كم ذميلٍ إليكم ووجيف وصدودٍ عنا لكم وصدوفِ[1]
وغرامٍ بكم لو أن غرامًا جر نفعًا للواجد المشغوف

---

[1] الذميل والوجيف من ضروب السير.

صبوة ثم عفة ما أضر الحـ ... ـب في كل خلوةٍ بالعفيف

هجرونا ولم يلاموا وواصلـ ... ـنا على مؤلم من التعنيف

وطلبنا الوفاء حتى إذا عز ... رضينا بالمطل والتسويف

كيف يرجو الكثير من راضه الشو ... ق إلى أن رضي ببذل الطفيف

وانظر قول ابن الرومي:

أضعتني فرعيت ... وخنتني فوفيت

أطعت في الأعادي ... وكلهم قد عصيت

فكيف أصبحت غضبي ... لما رضاكِ أتيت



الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم ، فيرضى بالوعد ، ويفرح بالأماني ، وهي كواذب لأن الوصل عزيز المنال ، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف:

كفى حزنًا أني وفوزًا ببلدةٍ — مقيمان في غير اجتماعٍ من الشملِ
أما والذي ناجي من الطور عبده — وأنزل فرقانًا وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حواءُ منك بليةً — علي اقاسيها وخبلا من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم — بشيءٍ سوى حُسن المواتاةِ والبذل
وأني ليرضيني الذي ليس بالرضى — وتقنع نفسي بالمواعيدِ والمطل

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

لك الله هل بعد الصدود تعطف — وهل بعد ريعان البعاد تدانِ
وما غرضي أني أسومك خطةً — كفاني قليل من رضاك كفاني

وقال بعض الظرفاء:

أنا راضٍ منكم بأيسر شيءٍ — يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق إذا ما — جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليلى الأخيلية:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها — وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها — جاد لها دمع من العين سافح
وأغبط من ليلى بما لا أناله — بلى كل ما قرت به العين صالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية:

أليس قليلاً نظرة إن نظرتها — إليك ؟ وكلا ليس منكِ قليلُ

وجاراه في هذا المعنى من قال:

إن مـا قـل منـك يكثـر عنـدي وكثيــــر ممــــن تحـــب القليـــــل

وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل:

وأنـي لأرضـى مـن بثينـة بالـذي شـهي لـو أبصـره الواشـي لقـرت بلابلـه

بـلا ، وبـأن لا أسـتطيع ، وبـالمنى ، وبـالأمـل المرجـو قـد خـاب آملـه

وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضي أواخــــرُ لا نلتقـــي وأوائلـــه

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض:

وإذا اكتفـى غيـري بطيـف خيالـه فأنـــا الـــذي بوصـــاله لا أكتفـــي

وأبدع منه قول ابن الرومي:

أعانقــه والــنفس بعــد مشــوقة إليـــه وهـــل بعـــد العنـــاق تـــدان

وألــثم فــاه كــي تــزول حرارتــي فيشـــتد مـــا ألقـــى مـــن الهيمـــان

ولم يك مقدار الذي بي من الجوى ليرويـــه مـــا تلـــثم الشـــفتان

كـأن فـؤادي لـيس يشـفي غليلـه ســوى أن يــرى الــروحين يمتزجــان

شفاء المحب

وقد يمرض المحب ، فيفتن الناس في وصف دوائه ، على أنه لا يبرأ إلا بقرب من يحب. وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء:

وما هي إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت حتى ما أكاد أجيب

وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أزمعت حين تغيب

ويظهر قلبي عذرها ويعينها ... علي فما لي في الفؤاد نصيب

وقد علمت نفسي مكان شفاءها ... قريبًا وهل ما لا ينال قريب

فواكبدي أمست رفاتًا كأنما ... يلذعها بالموقدات طبيب

عشية لا عفراء منك بعيدة ... فتسلو ولا عفراء منك قريب

لئن كان برد الماء حر إن صاديًا ... إلى حبيبًا إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب:

يا زينة الدنيا التي لا ينالها ... مُناي ولا يبدو لقلبي صريمها

بعيني قذاة من هواك لو أنها ... تُداوى بمن أهوى لصحّ صقيمها

وبرء قذاة العين إن لم يكن لها ... طبيب يداوي نظرة تستديمها

فما صبر عن ذكرك النفس ساعة ... وإن كنت أحيانًا كثيرًا ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية:

قل لمن لست أسمي ... بأبي أنت وأمي

بأبي أنت لقد أصبحـ ... ـت من أكبر همي

ولقد قلت لأهلي ... إذا أذاب الحب لحمي

وأرادوا لي طبيبًا ... فاكتفوا مني بعلمي

من يكن يجهل ما ألـ ... ـقى فإن الحب سقمي

إن روحي لبغدا ... د وفي الكوفة جسمي



القلب الخافق

نذكر هنا ألوانًا من تصور الشعراء لخفوق القلب ، فمنهم من يشبه بتنزي الكرة ، كما قال بشار:

يروعــه الســرار بكــل شــيء   مخافــة أن يكــون بــه الســرار
كــأن فــؤاده كــره تنــزي   حِــذار البــين لــو نفــع الحــذارُ

ومنهن من يشبهه بالوشاح القلق ، فوق الخصر الدقيق ، كقول مسلم بن الوليد:

أزكى من المسلك أنفاسًا وبهجتها   أرق ديباجــة مــن رقــة الــنفس
كـأن قلبـي وشـاحاها إذا خطـرت   وقلبها قُلبها في الصمت والخرس[1]
تجـري محبتهـا فـي قلـب عاشـقها   جـرى السـلامة فـي أعضـاء منـتكس

وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بين القينة الهوجاء تضرب بالدف ، ويقول:

يبـين لسـاني عـن فـؤادي وربمـا   أسـر لسـاني مـا يبـوح بـه طرفـي
أعيـذك أن تشـقى بقتلـي فـإنني   أخـاف عليـك الله أن سـمتني حتفـي
إذا القلـب أومـا أن يطيـر صـبابة   ضـربت لـه صـدري وألزمتـه كفـي
كــأن جناحيــة إذ هــاج شــوقه   يداقينــةٍ هوجــاء تضــرب بالــدف

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض ، كقول أحد الأعراب:

ألا بــأبي مــن لــيس والله نــافعي   بنيـل ومـن قلبـي علـى النـأي ذاكـره
ومـن كبـدي تهفـو إذا ذكـر اسـمه   كهفـو جنـاح يـنفض الطـل طـائره

وقد وضح هذا المعنى في قول نُصيب:

كــأن القلــب ليلــة قيــل يُغــدى   بليلــــى العامريــــة أو يــــراحُ
قطــاة عزهــا شــرك فباتــت   تجاذبــه وقــد علــق الجنــاح

---

[1] القلب بضم القاف هو السوار.

لهـــا فرخـــان قـــد تُركـــا بـــوكرٍ فعشــــــهما تُصـــــفقه الريـــــاح

إذا ســـمعا هبـــوب الـــريح نصًـــا وقـــد أودى بـــه القـــدر المتـــاح[1]

فـــلا فـــي الليـــل نالـــت مـــا ترجـــي ولا فـــي الصـــبح كـــان لهـــا بـــراح

وابن ميادة يذكر أن قلبه أمسى وكأن يدًا خبثت به ، أي قبضت عليه وسامته العذاب ، ويقول:

كـأن فـؤادي فـي يـدٍ ضـبثت بـه محـاذرة أن يقضـب الحبـل قاضـبه

وأشـفق مـن وشـك الفـراق وإنـني أظـــن لمحمـــول عليـــه فراكبـــه

فـــوالله مـــا أدري أيغلبنـــي الهـــوى إذا جـــد جـــد البـــين أم أنـــا غالبـــه

فإن أستطيع أغلب وإن يغلب الهوى فمثـل الـذي لاقيـت يغلـب صـاحبه



---

(1) نص الطائر بالنهوض.

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هب من نومه ، أو أوى إلى فراشه كالذي يقول:

أآخر شيء أنت في كل هجعة وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدك عندي أن أقيك من الردى وود كماء المزن غير مشوبِ

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد:

تحيرت في أمري وأني لواقف أجيل وجوه الرأي فيك وما أدري
أأعزم عزم اليأس فالموت راحة أو أقنع بالأعراض والنظر الشزر
وإني وإن أعرضت عنك لنطوٍ على حرقٍ بين الجوانب والصدر
إذا هاج شوقي مثلتك لي المنى فألقاكِ ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ولكن دعاني اليأس منكِ إلى الصبر
تصبرت مغلوبًا وأني لموجع كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول:

ضحكت ولو تدرين ما بي من الهوى بكيت لمحزون الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرح عيناه من فيض عبرة ولا قلبه من زفرة ونجيب
لمستأنس بالهم في دار وحشة غريب الهوى باكٍ لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بان وانقضى وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا على غفلة من كاشح ورقيب
ليالي يدعونا الصبا فنجيبه ونأخذ من لذاته نصيب
إلى أن جرى صرف الحوادث في الهوى فبدل منا مشهد بمغيبِ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد ، وحرمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال "وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره ، وصنت الكتاب عن ذكره" وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر ، وكم نتمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق !

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير:

أريــد لأنســى ذكرهــا فكأنمــا   تُمثــلُ لــي ليلــى بكــل ســبيلِ

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد ، وما يقاسون فيه من أهوال ، فمن ذلك قول الشريف:

وبين ذوائب العقدات ظبي ... قصر الخطو في المرط المذال
ربيب إن أريغ إلى حديث ... نوار إن أريد إلى وصال
فهل لي والمطامع مرديات ... دنو من لمى ذاك الغزال
لقد سلبت ظباء الدار لبي ... ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي ... معالجتي بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهرًا ... أروع بالصدود فلا أبالي على البلوى
وكيف أُفيق لا جسدي بناءٍ ... ولا قلبي بسالي
يرنجني إليك الشوق حتى ... أميل من اليمين إلى الشمال
كما مال المعاقر عاودته ... حُميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكركم ارتياح ... كما نشط الأسير من العقال

وعبد الله بن مصعب يأسى على أن لم يعده أحبابه في مرضه ، مع أنه يعود كلبهم إذا مرض ! ولهذا لقلب (عائد الكلب) حين قال:

مالي مرضت فلم يعدني عائد ... منكم ويمرض كلبكم فأعود
وأشد من مرضى علي صدودكم ... وصدود عبدكم علي شديد

ويرى أبو النواس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود ، ويقول:

لقد عاجلت قلبي جنان بهجرها ... وقد كان يكفيني بذاك وعيد
رأيت تداني الدار ليس بنافع ... إذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الأحنف يترك العتب على الصدأ ، لئلا يرز بصدٍ جديد ، ويقول:

تركت صدودها وصبرت نفسي بطول تجرع الغيظ الشديد
مخافة أن تجدد لي صدودًا وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضح هذا المعنى من قبل في قول أبي صخر الهذلي:

ويمنعني من بعض إنكاري ظلمها شهي إذا ظلمت يومًا وإن كان لي عذرُ
مخافة أني قد علمت لئن بدا لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحتري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله:

ظلمتني تجنبًا وصدودًا غير مرتاعة الجنان لظلمي
ويسير عند القتول إذا ما أثمت في أن تبوء بإثمي
أجد النار تستعار من النا روينشو[1] من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيت من ذلك الصد فنرضاه أم حقيقة عزمِ
وبحقٍ أن السيوف لتنبو تارة والعيون باللحظ تُدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع:

لقد صددناكم كما صددتم فهل ندمتم كما ندمنا

---

(1) يقال: نشأ ينشأ وشنؤ ينشؤ: أي قوي وزاد.

التفت إلى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون ، تلفتهم إلى معاهد الحب: عند الوداع ، وبعد الفراق.

قال بعض الرواة: مررت بحمى الربذة فإذا صبيان يتقاسمون[1] في الماء ، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد ، فسلمت عليه فرد علي السلام. وقال: من أين وضح الراكب ؟ قلت من الحمى ! قال ومتى عهدك به ؟ قلت رائحًا. قال وأين كان مبيتك ؟ قلت: أدنى هذه المشاقر[2]. فألقى نفسه على ظهره ، وتنفس الصعداء. فقلت تفسأ[3] حجاب قلبه ، وأنشأ يقول:

سقى بلدًا أمست سُليمي تحلهُ ... من المزن ما تُروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحل به شخص علي كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدي وان شط المزار نعيم
ومن لا مني فيه حبيب وصاحبٌ ... فرد بغيظٍ صاحب وحميمُ

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه ، فصحت بالأصبية ، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصب الغريب رأى خشوعي ... وأنفاسي تزين بالخشوعِ
ولي عين أضر بها التفاني ... إلى الأجزاع مطلقة الدموع
إلى الخلوات تأنس فيك نفسي ... كما أِنس الوحيد إلى الجميع

---

[1] يتقاسمون: يتغاطون. يقال قسمته في الماء غططه فيه.

[2] المشاقر منابت العرفج.

[3] تفسأ: تشقق وانصدع.

والشاهد في الأبيات الأخيرة

وما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف:

تلفت حتى لم يبن من بلادكم	**دخان ولا من نارهن وقود**
وإن التفات القلب من بعد طرفه	**طوال الليالي نحوكم ليزيد**
ولما تداني البين قال لي الهوى	**رويدًا وقال القلب أين تريد**
أتطمع أن تسلو على البعد والنوى	**وأنت على قرب المزار عميد**
ولو قال لي الغادون ما أنت مُشتهٍ	**غداة جزعنا الرمل قلت أعود[1]**
أأصبر والوعساء بيني وبينكم	**وأعلام خبتٍ ، أنني الجليد!**

وانظر قوله من كلمة ثانية:

ترحلت عنكم لي أمامي نظرة	**وعشر وعشر نحوكم من روائيا**
ومن حذرٍ لا أسأل الركب عنكم	**واعلاق وجدي باقيات كما هيا**
ومن يسأل الركبان عن كل غائب	**فلابد أن يلقى بشيرًا وناعيا**



---

[1] جزع من باب منع: تقال جزع الأرض قطعها.

الصدى والنوى

يأسى العشاق للصد ، حتى إذا راعتهم مرارة النوى ، علموا أن الصد كان حلو المذاق. وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط:

كفى حزنًا أني أبيت معذبًا ... بنار هموم ليس يخبو سعيرها
وإن عدوي لا يُراع وإنني ... أبيت سخين العين وهو قريرها
وإني لرهن الشوق والشمل جامع ... فكيف إذا حث الحداة أميرها
ومازلت من أسر القطيعة باكيًا ... فمن لي غداة البين أني أسيرها
وكنت أرى أن الصدود منية ... يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا ... وجدت الليالي كان حلوًا مريرها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيهما ... وحسبك من حال يُذم صبورها

وقد أصاب في تشبيه النوى بعد الهجر ، بالجرح بعد الجرح حين قال:

أحن إلى قسمي لعلك عائدي ... شه ومن كلفٍ أني أحن إلى السقمِ
وحتامَ استشفي من الداء ما به ... سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق أتى في إثر هجر وما أذى ... بأوجع من كلمٍ أصاب على كلمٍ

وحنين المحب إلى سقمه ، أملا في أن يعود حبيبه ، يذكرنا بقول كثير:

يود بأن يُمسي سقيما لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك ، أو يساكنك ، ثم لا تملك وصله ، ولا حديثه. وقد تزوره بملح العين. كما قال ابن الدمينة:

ألا حب بالبيت الذي أنت هاجره ... وأنت بتلماحٍ من الطرف زائره
فيا لك من بيتٍ لعيني معجبٍ ... وأحسنُ في عيني من البيت عامره
أصد حياءً أن يلج بي الهوى ... وفيك المنى لولا عدو أحاذره

وفي هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

تدانت بقومٍ عن تناءٍ زيارة ... وشط بليلى عن دنوٍ مزارها
وإن مقيمات بمنعرج اللوى ... لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه ، بالماء يُمنع من وروده الظمآن ، فنجد منهم من يقول:

إني وإياك كالصادي رأى نهلا ... ودونه هوة يخشى بها التفا
رأى بعينيه ماءً عز مورده ... وليس يملك دون الماء منصرفا

ومن يقول:

وإني على هجران بيتك كالذي ... رأى نهلا ريا وليس بناهل
يرى برد ماءٍ ذيد عنه وروضةً ... برود الضحى فينانةً بالأصائل

وقد صور جميل هذا المعنى حين قال:

وما صاديات حمن يومًا وليلةً ... على الماء يخشين العصي حواني
حوائم لم صدرن عنه لوجهةٍ ... ولا هن من برد الحياض دواني
يرين حباب الماء والموت دونهُ ... فهن لأصوات الشقاة الرواني
بأكثر مني غُلةً وصبابةً ... إليك ولكن العدو عراني

وقال أبو حية النميري أو العباس بن الأحنف:

كفى حزنًا أني أرى الماء باديًا   لعيني ولكن لا سبيل إلى الورد

وما كنت أخشى أن تكون منيتي   بكف أعز الناس كلهم عندي

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم ، لذكر الحبيب ، كما قال أبو نواس:

أحب اللوم فيها ليس إلا لترداد اسمها فيما أُلام
ويدخل حبها في كل قلب مداخل لا تغلغلها المدامُ

وفي هذا المعنى يقول محمد بن أبي أمية:

وحدثني عن مجلس كنت زينه رسول أمين والنساء شهود
فقلت له رد الحديث الذي مضى وذكرك من بين الحديث أريد

وقد ظرف البهازير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول ، وقال:

يا من يهدد بالصدو د نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك في الهوى لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلـ ـت لمن تلوم وتعذل
عاتبت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من غضبت الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فراس:

أساء فزادته الإساءة حظوةً حبيب على ما كان منه حبيب
يعد علي العاذلون ذنوبه ومن أين للوجه المليح ذنوب ؟

والرقيب أخو اللائم في تنغيص حياة العشاق ، ومن طريف الشعر في الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز:

فبعض وآبلائي في محضرٍ ومغيبِ من حبيب مني بعيدٍ قريبِ
لم ترد ماء وجهه العين إلا شرقت قبل ريها برقيب

وقوله:

قــد دنــت الشــمس للمغيــب | وحـــان شـــوقي إلـــى الحبيـــبِ
طــوبي لمــن عــاش عشــر يــومٍ | لــــه حبيـــــب بـــــلا رقيــــبِ

وما أظرف من يقول:

لســهم الحــب جـرح فـي فـؤادي | وذاك الجــرح مــن عــين الرقيــبِ
يوكـــل ناظريـــه بنـــا ويحكـــي | مكـــان الكـــاتبين مـــن الـــذنوب
فلــو ســقط الرقيــب مــن الثريــا | لصـــب علـــى محـــبٍ أو حبيـــب

وانظر كيف ضُرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الظرفاء:

يســـقيك مـــن كفـــهِ مُـــدامًا | ألـــــذ مـــــن غفلـــــة الرقيـــــبِ
كأنهـــا إذ صَـــفَت ورقـــت | شـــكوى محـــبٍ إلـــى حبيـــب

وقد كلف سعيد الوراق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء ، وفيهم يقول:

بربــك يــا حمامــة ديــر زكــى | وبالإنجيـــل عنـــدكِ والصـــليبِ
قفـــي وتحملـــي منـــي ســـلامًا | إلـــى قمـــرٍ علـــى غُصـــنٍ رطيـــب
حمـــاه جماعـــة الرهبـــان عنـــي | فقلبـــي مـــا يقـــر مـــن الوجيـــب
وقـــالوا رابنـــا إلمـــام ســـعدٍ | ولا والله مـــــا أنـــــا بالمريـــــب
وقــولي ســعدك المســكين يشــكو | لهيــب جــوى أحــر مــن اللهيــب
فصـــله بنظـــرةٍ لـــك مـــن بعيـــدٍ | إذا مـــا كنـــت تمنـــع مـــن قريـــب
وإن أنـا مـت فاكتـب حـول قبـري | محــب مــات مــن هجــر الحبيــب
رقيـــب واحـــد تنغـــيص عـــيشٍ | فكيـــف بمـــن لـــه ألفـــا رقيـــب ؟

إنه لابد مقتول ، كما قتل صاحب هذه الأبيات !!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره ، كلما اشتاق إليه ، كما قال الحكم بن قنبرة:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي ... يرعاك قلبي وإن غُيبت عن بصري

العين تبصر من تهوى وتفقده ... وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال آخر:

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى ... لئن غبت عن عيني ما غبت عن قلبي

تُرينيك عين الوهم حتى كأنني ... أناجيك من قربٍ وإن لم تكن قربي

وقال أبو عثمان الناجم:

لئن كان من عيني أحمد غائبًا ... فما هو عن عين الضمير بغائب

له صورة في القلب لم يقصها النوى ... ولم تتخطفها اكف النوائبِ

إذا ساءني يومًا شحوط مزاره ... وضاقت بقلبي في نواه مذاهبي

عطفت على شخصٍ له غير نازحٍ ... محلتهُ بين الحشا والترائب

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب:

وليل وصلنا بين قُطريه بالشرى ... وقد جد شوق مطمع في وصالك

أطلت علينا من دجاه حنادس ... أعدن الطريق النهج وعر المسالك

فناديت يا أسماء باسم فانجلت ... واسفر منها كل أسود حالك

بنا أنت من ها نجونا بذكره ... وقد نشبت فينا أكف المهالك

منحتك إخلاصي واصفيتك الهوى ... وإن كنت لم تخطريني ببالك

وفي مثل هذا المعنى يقول اسحق الموصلي:

صــــب يحـــث مطايـــاه بـــذكركم   ولـــيس ينســـاكم إن حـــل أو ســـارا

لـو يسـتطيع طـوى الأيـام نحـوكم   حتـــى يبيـــع بعمـــر القـــرب أعمـــارا

يرجـو النجـاة مـن البلـوى بقـربكم   والقـــرب يُلهـــب فـــي أحشـــائه النـــارا



القلب والكبد

موطن الحب هو القلب ، في حديث الشعراء ، وقد أثبت أخيرًا أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد ، ونريد أن نذكر هنا طرفًا من حديث العرب عن الكبد ، وقرار الحب فيه ، مما يماثل هذا الرأي الجديد.. قال بعض الأعراب:

فيــا كبــدًا يُحمــى عليهــا وإنهــا مخافــة هيضــات النــوى لخفــوق
أقــام فريــق مــن أُنــاسٍ يــودهم بــذات الغضــا قلبــي وبــان فريــق
بحاجــة محــزونٍ يظــل وقلبــه وهــين ببضــات الحجــال صــديق

وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال:

لا الحمــى بعــدكم منــاخ ولا مــا ءُ اللـــوى إذ هجرتمـــوه بـــوردِ
والفــؤاد الــذي عهــدتم جموحًــا راضـــه طـــول جـــوركم والتعـــدي
مــا تريــدون مــن دلائــل شــوقي غيـــر هـــذا الـــذي أُجـــن وأُبـــدي
كبـــد كلمـــا وضـــعت عليـــه راحتـــي قـــال أنـــت قـــادح زنـــدي
وجفــون جــرين مــدًا ومــاء البـــ ـــحر يرتـــاح بـــين جـــزر ومـــد

وكذلك جمع بينهما البحتري حين قال:

ومــا كبــدي بالمســتطيعة لــلأذى فأســـلو ولا قلبـــي كثيـــر التقلـــبِ

وابن الأحنف حين قال:

مـا للكلـوم التي بالقلـب مـن أسـى فاصبر على اليـأس يـا مسـتقبل اليـاسَ
ما أسمج الناس في عيني وأقبحهم إذا نظــرت فلــم أبصــرك فــي النــاس
حتــى متــى كبــدي حــرى معطشــةً ولا يلـــين لشـــيء قلبـــك القاســـي
يـا مـوري الزنـد قـد أعيـت قوادحـهُ أقـبس إذا شـئت مـن قلبـي بمقبـاس

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر في بكاء الملاح ، وما أغزر الدمع في بكاء المليح ، حين يظفر بحسنه التراب:

قال ابن عبد ربه: كان لمعلى الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة ، فأخبر محمد بن وضاح قال: أدركت معلى الطائي بمصر وأعطى بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلى ؟ ! قال نعم. فقالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها !! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام. فقال يرثيها:

فبعضيا موتُ كيف سلبتني وصفا ... قدمتها وتركتني خلفا

هلا ذهبت بنا معًا فلقد ... ظفرت يداك فسمتني خسفا

وأخذت شق النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا

فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى

يا موت ما أبقيت لي أحدًا ... لما رفعت إلى البلى وصفا

هلا رحمت شباب غانية ... ريا العظام وشعرها الوحفا[1]

ورحمت عيني ظبيةٍ جعلت ... بين الرياض تناظرُ الخشفا

تقضي إذا انتصفت مرابضه ... وتظل ترعاه إذا أغفى

فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا

متحيرًا في المشي مُرتعشًا ... يخطو فيضرب ظلفهُ الظلفا

فكأنها (وصف) إذا جعلت ... نحوي تحير محاجرًا وطفا[2]

---

[1] الوحف: الاسود.

[2] وطف جمع أوطف ووطفاء وهو الماء الكثير أو الدمع: توصف به السحب والعيون.

يــا مــوت أنــت كــذا لكــل أخــي ... غلـــفٍ يصـــون بــــره الإلفـــا

خلفتنــــي فـــردًا وبنـــت بهـــا ... مــا كنــت قلبــك حــاملا وكفــا[1]

أســـكنتها فـــي قعـــر مظلمـــةٍ ... بيتًـــا يصـــافح تُربــــه الســـقفا

بيتًـــــا إذا مـــــا زاره أحـــــد ... عصــفت بــه أيــدي البلــى عصــفا

لا نلتقـــــي أبـــــدًا معاينـــــةً ... حتـــى نقـــوم لربنـــا صـــفا

لبســت ثيــاب الحتــف جاريــة ... قــد كنــت ألــبس دونهــا الحتفــا

فكأنهـــا والـــنفس زاهقـــة ... غصـــن مـــن الريحـــان قـــد جفـــا

يــا قبــر أبــقِ علــى محاســنها ... فلقـــد حويـــت البـــر والظرفـــا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات:

أقــول لقبــر زرتــه متلمثــا ... سـقى الله بـرد العفـو صـاحبة القبـر

لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى ... وشمس الضحى بين الصفائح والفقرِ

عجبـت لعـين بعـدها ملـت البكـا ... وقلـبٍ عليهـا يرتجـي راحـة الصـبر

وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له:

جفوف البلى أسرعت في الغصنِ الرطب ... وخطب الردى والموت أبرحت من خطب

لقـد شـرقت فـي الشـوق بـالموت غــــــــــــــادة ... تبـدلت منهـا غربـة الـدار بـالقرب

أقول ، وقد قالوا استراحت لموتها ... من الكرب روح الموت شر من الكرب

لهـا منـزل تحـت الثـرى وعهـدتها ... لهــا منــزل بــين الجــوانح والقلــب

وما أجمل قبوله من كلمة ثانية:

يقولـون هـل يبكـي الفتـى لخريـدة ... إذا مـا أردت اعتـاض عشـرًا مكانهـا

وهل يستعيض المرء من خمس كفهِ ... ولـو صـاغ مـن حـر اللجـين بنانهـا

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من الجيدات في الغناء:

---

[1] الوكف: الظلم.

مـا أولـع الـدهر فـي تصـرفهِ بكـل زيـنٍ لـهُ ومفتخـر
أطـار قمريـة الغنـاء عـن الأر ض فـأي القلـب لـم تِطـرِ
بسـتان يـا حسـرتا علـى زهـرٍ فيـك مـن اللهـو بـل علـى ثمـرِ
بسـتان أضـحى الفـؤاد فـي ولـهٍ يـا نزهـة السـمع منـه والبصـرِ
بسـتان مـا منـك لامـريءٍ عـوض مـن البسـاتين لا ولا البشـر
إن لـم أكـن مـت فانقرضـت فكـم مـن موتـةٍ للفـؤاد فـي الـذكر

وما أرق قوله في هذه القصيدة:

يـا غصـة السـن يـا صـغيرته أمسـيت إحـدى المصـائب الكبـر
أنـي اختصـرت الطريـق يـا سـكني إلـى لقـاء الأكفـان والحفـر
أبعـد مـا كنـت بـاب مبـتهج للـنفس أصـبحت بـاب معتبـر
كـل ذنـوب الزمـان مغتفـر وذنبـه فيـك غيـر مغتفـر
لله مـا ضـمنت حفيرتهـا مـن حسـن مـرأى وطيـب مختبـر
أضـحت مـن السـاكني حفـائرهم سـكنى الغـوالي مـداهن السـرر
لـو علـم القبـر مـن أتـيح لـهُ لا نحفـر القبـر غيـر محتفـر

وأحب لو تأمل القاريء ما في هذا الشعر من سمو الخيال.

وكان مرة بن عبد الله مغرمًا بفتاة من قومه يقال لها ليلى بنت زهير ، وتزوجت من غيره بالرغم منه ، ثم نقلت مع زوجها إلى راذان وماتت هناك ، فقال مرة فيها كثيرًا من الشعر الموجع. كقوله:

أيـا نـاعيي ليلـى أمـا كـان واحـد مـن النـاس ينعاهـا إلـى سـواكما
ويـا نـاعيي ليلـى لجلـت مصـيبةً بنـا فقـد ليلـى لا أُمـرت قواكمـا
ولا عشـتما إلا حليفـي بليـةٍ ولا مـت حتـى يُشـترى كفناكمـا
فأشـمت والأيـام فيهـا بوائـق بموتكمـا أنـي أحـب رداكمـا

وقوله:

كأنـك لـم تُفجـع بشـيءٍ تُعـده ولـم تصـطبر للنائبـات مـن الـدهر

ولـم تـر بؤسًـا بعـد طـول غضـارةٍ ... ولـم ترمـك الأيـام مـن حيـث لا تـدري
سـقى جـانبي راذان والسـاحة التـي ... بهـا دفنـوا ليلـى مُلـث مـن القطـرِ
ولازال خصب حيث حلت عظامها ... بـراذان يسـقي الغيـث مـن هطـل غمـر
وإن لـم تكلمنـا عظـام وهامـه ... هنـاك واصـداء بقـين مـع الصـخر

وكان لإسحق الموصلي غلام جميل يقال له زيد ، وهو الذي يقول فيه:

إذا مـا زيـاد علنـي ثـم علنـي ... ثـلاث زجاجـات لهـن هـدير
خرجـت أجـر الـذيل زهًـا كـأنني ... عليـك أميـر المـؤمنين أميـر

ثم مات زياد هذا ، فقال اسحق يبكيه:

فقـدنا زيـادًا بعـد طـول صـحابةٍ ... فـلازال يسـقي الغيـث قبـر زيـاد
ستبكيك كأس لم تجد من يديرها ... وظمـآن يسـتبطي الزجاجـة صـادي

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي ، وكان عبد المجيد هـذا مـن أجمـل الفتيـان وآدبهـم وأظـرفهم ، ولـه مـع ابـن منـاذر حـديث طويـل ذكـره صاحب الأغاني ، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية:

كـل حـي لاقـى الحمـام فمـودي ... مـا لحـيٍ مؤمـل مـن خلـودِ
لا تهـاب المنـون شـيئًا ولا تبـ ... ـقي علـى والـدٍ ولا مولـود
ولقـد تتـرك الحـوادث والأيـا ... م وهيًـا فـي الصـخر الصـيخود[1]
ولـو أن الأيـام أخلـدن حيًـا ... لعـلاءٍ أخلـدن عبـد المجيـد
مـا درى نعشـهُ ولا حـاملوه ... مـا علـى الـنعش مـن عفـاف وجـود
ويـح أيـدٍ جثـت عليـه وايـدٍ ... دفنتـه ! مـا غيبـت فـي الصـعيد !
وأرانـا كـالزرع يحصـده الدهـ ... ـر فمـن بـين قـائمٍ وحصـيد
وكأنـا للمـوت ركـب مخبـو ... ن سـراعًا لمنهـلٍ مـورود

---

[1] الصيخود: الشديدة.

إن عبــد المجيــد يــوم تــولى هــد ركنًــا مــا كــان بالمهــدود
هـد ركنـي عبـد المجيـد وقـد كنـ ـــت بــركنٍ أنــوء منــه شــديد
وبعبــد المجيــد تــامور نفســي عثـرت بـي بعـد انتعـاش جـدودي[1]
وبعبـد المجيـد شـلت يـدي اليمـ ـــنى وشــلت بـــه يمـــين الجـــود
حـــين تمـــت آدابـــه وتـــردى بـــرداءٍ مـــن الشـــباب جديـــد
فســقاه مــاء الشــبيبة فــاهتز اهتــزاز الغصــن النــدي الأملــود[2]
وكـــأني أدعـــوه وهـــو قريـــب حـــين أدعـــوه مـــن مكـــان بعيـــد
فلــئن صــار لا يجيــب لقــد كــا ن ســـميعًا هشًـــا إذا هـــو نـــودي
يــا فتــى كــان للمقامــات زينًــا لا أراه فـــي المحفـــل المشـــهود
لهـف نفسـي ! أمـا أراك ومـا عنـ ـــدك لـــي أن دعـــوت مـــن مـــردود
كـان عبـد المجيـد سـم الأعـادي مــلء عــين الصــديق رغــم الحســود
عـاد بعـد المجيـد رزءًا وقـد كـا ن رجـــاءً لريـــب دهـــرٍ كنـــود
خنتـك الـود لـم أمـت كمـدًا بعـ ـــدك إنـــي عليـــك حـــق جليـــد
لـو فـدى الحـي ميتًـا لفـدت نفـ ـــسك نفســـي بطـــارفي وتليـــدي
ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ن عليـــــه لأبلغـــــن مجهـــــودي
لأقـــيمن مأتمًـــا كنجـــوم الليـــ ـــل زهـــرًا يلطمـــن حـــر الخـــدود
موجعــات يبكــين للكبــد الحــر ى عليـــــه وللفـــــؤاد العميــــــد[3]
ولعـــينٍ مطروفـــةٍ أبـــدًا قـــا ل لهـــا الـــدهر لا تقـــري وجـــودي
كلمــا عـــزك البكـــاء فأنفـــد ت لعبـــد المجيـــد ســـجلا فعـــودي
لفتـــى يحســـن البكـــاء عليـــه وفتـــى كـــان لامتـــداح القصـــيد
فبرغمـــي كنـــت المقـــدم قلبـــي وبكرهـــي دليـــت فـــي الملحـــود

---

(1) تامور النفس حياتها.

(2) الاملود: الناعم الرقيق.

(3) العميد الذي صرعه الحزن.

كنت لي عصمة وكنت سماءً بك تحيا أرضي ويخضر عودي

وأغرم يعقوب بن الربيع بجارية تسمى (مُلك) ومكث في طلبها سبع سنين ،حتى رق ماله ، وجهه ، ثم ملكها ، فأقامت عنده ستة أشهر وماتت فقال يبكيها:

لله آنسة فجعت بها ما كان أبعدها من الدنسِ
أتت البشارة والنعي معًا يا قرب مأتمها من العرسِ
يا مُلكُ ! نال الدهر فرصتهُ فرمى فؤادًا غير محترسِ
أبكيك ما ناحت مطوقة تحت الظلام تنوح في الغلسِ

وقال فيها:

ليت شعري بأي ذنبٍ لمُلكٍ كان هجري لقبرها واجتنابي
ألذنبٍ حقدته كان منها أم لعلمي بشغلها عن عتابي
أم لأمني لسخطها ورضاها حين واريت وجهها في التراب
إنما حسرتي إذا ما تذكر ت عنائي بها وطول طلابي
لم أزل في الطلاب سبع سنينٍ أتأتي لذاك من كل باب
فاجتمعنا على اتفاقٍ وقدرٍ وغنينا عن فرقةٍ باصطحاب
أشهرًا ستةً صحبتك فيها كن كالحلم أو كلمع السراب
وأتاني منك النعي مع البشـ ـرى فيا قرب أوبةٍ من ذهاب

وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية:

حتى إذا فتر اللسان وأصبحت للموت قد ذبلت ذبول النرجسِ
وتسهلت منها محاسن وجهها وعلا الأنين تحثه بتنفسِ
رجع اليقين مطامعي يأسًا كما رجع اليقين مطامع المتلمس[1]

وقد وصف غربته من بعدها فقال:

فُجعتُ بمُلكٍ وقد أينعت وتمت فأعظم بها من مصيبه

---

[1] المتلمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة.

فأصبحت مغتربًا بعدها ... واضحت بحلوان مُلك غريبه

أراني غريبًا وإن أصبحت ... منازل أهلي مني قريبه

عطفت على اختها بعدها ... فصادفتها ذات عقلٍ أديبه

فأقبلتُ أبكي وتبكي معي ... بكاء كثيبٍ بحزن كئيبه

وقُلتُ لها مرحبًا مرحبًا ... بوجه الحبيبة أُخت الحبيبه

سأصفيك ودي حِفاظًا لها ... فذاكِ الوفاء بظهر المغيبه

أراكِ كمُلكٍ وإن لم تكن ... لملكٍ من الناس عندي ضريبه[1]

والشعر في بكاء الملاح كثير ، ولكن حب الإيجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار، وما هو بالقليل.

---

[1] ضريبة: شبيهة.

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل ، والحليلة المعشوقة متاع عزيز ! فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته ، وكان بها من المغرمين:

أطأ التراب وأنتِ رهن حفيرةٍ ... شه هالت يداي على صداك ترابها
إني لأغدر من مشى إن لم أطأ ... بجفون عيني ما حييت جُنابها

قال ابن رشيق: ومن جيد ما رثي به النساء وأشجاه ، وأشده تأثيرًا في القلب ، وأثارة للحزن ، قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أُمه ... شهي بعدي الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أمٍ وابنها غير أُمه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدًا في الفراش تحثه ... بلابل قلبٍ دائم الخفقان

يقول فيها بعد أبيات:

ألا أن سجلا واحدًا قد أرقته ... من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني إن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكانًا في الثرى خط لحده ... لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى ... فهل انتما إن عُجت منتظران

ومن أشجى الشعر رثاءً قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليد فمن بالصبر لابن ثمانِ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ... ولا يأتسى بالناس في الحدثان
ألا من أمنيه المنى وأعده ... لعثرة أيامي وصرف زماني
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسي ... وإن غبت عنه حاطني ورعاني

ولـم أر كالأقـدار كيـف يصـبنني ولا مثـل هـذا الـدهر كيـف رمـاني

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثي زوجها ولم يكن دخل بها:

أبكيـــك لا للنعـــيم والانـــس بـــل للمعـــالي والـــرمح والفـــرس

أبكـي علـى فـارسٍ فجعـتُ بـه أرملنـــي قبـــل ليلـــة العـــرس

يـــا فارسًـــا بـــالعراء مُطرحًـــا خانتـــه قـــواده مـــع الحـــرس

مـــا لليتـــامى إذا هـــمُ ســـغبوا وكـــل عـــان وكـــل محتـــبس

وأني لآسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية ، مع إنه من دلائل الوفاء ، لو يعلم الشعراء !



لوعة الشوق

نمتع القاريء في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق في طيات الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى أرض جِلق ، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها:

وإن اصطباري عن معاهد جلقٍ   غريب فما أجفى الفراق وأجفاني
سقى الله أرضًا لو ظفرت بتربها   كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة:

أقرطبة الغراء هل لي أوبة   إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد
سقى الجانب الغربي منك غمامة   وقعقع في ساحات دوحاتك الرعد
لياليك أسحار وأرضك روضة   وتربك في استنشاقه عنبر ورد

وإني ليبكيني قول الشريف:

ذكرت الحمى ذكر الطريد محله   يذاد ذياد العاطشات ويرجع
وأين الحمى لا الدار بالدار بعدهم   ولا مربع بعد الأحبة مربع
سلام على الأطلال لا عن جنابةٍ   ولكن يأسًا حين لم يبق مطمع
نشدتكم هل زال من بعد أهلهِ   زرود وهل زالت طلول وأربع
نعم عادني عيد الغرام ونبهت   على الجوى دار بميثاء بلقع
وطارت بقلبي نفحة عضوية   تنفسها حالٍ من الروض مُمرع
نظرت الكثيب الأيمن اليوم نظرة   ترد إلى الطرف يدمى ويدمع
وأيقظت للبرق اليماني صاحبًا   بذات النقا يخفى مِرارًا ويلمع
أأنت معيني للغليل بنظرةٍ   فنبكي على تلك الليالي ونجزع
معاذ الهوى لو كنت مثلي في الهوى   إذًا لدعاك الشوق من حيث تسمع
وبرء الحشا ، إني من البين موجع

هناك الكرى ، إني من الوجد ساهر ولا نـــوم لــي إلا النعـــاس المـــروع
فـلا لـب لـي إلا تماسـك سـاعة ألا مـــوطن يـــدنو بشـــملٍ ويجمـــع
ألا ليــت شــعري كــل دارٍ مشــتة

وانظر كيف يقول:

ومـا حائمـات يلتفـتن مـن الصـدى إلــى المــاء قــد مــوطلن بالرشــفان
إذا قيـل هـذا المـاء لـم يملكـوا لهـا معاجًـــــا بـــــأقرانٍ ولا بمثــــــانِ
بأظمـا إلـى الأحبـاب منـي وفـيهم غـــريم إذا رمـــت الـــديون لـــواني
فيــا صــاحبي رحلــي أقــلا فــإنني رأيـــت بليلـــى غيـــر مـــا تريـــانِ
ويـا مزجـي النضـو الطلـيح عشـية تُـــراك بـــبطن المـــأزمين ترانـــي
وهــل أنــا غــادٍ أنشــد النبلــة التــي بهـــا عرضًـــا ذاك الغـــزال رمـــاني

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول:

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى ونجـــدًا وكثبـــان اللـــوى والمطاليـــا
ومــروا علــى أبيــات حــيٍ برامــةٍ فقولـــوا لـــديغ يبتغـــي اليـــوم راقيـــا
وقولـوا الجيـرانٍ علـى الخيـف مـن منـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــى تـــراكم مـــن اســـتبدلتم بجواريـــا
ومـن حـل ذاك الشـعب بعـدي وأرشـقت لواحظـــه تلـــك الظبـــاء الجوازيـــا
ومـن ورد المـاء الـذي كنـت واردًا بـه ورعـى الـروض الـذي كنـت راعيـا
فوا لهفتي ! كم لي على الخيف شهقة تـــذوب عليهـــا قطعـــة مـــن فؤاديـــا
صفا العيش من بعدي حلي على النقا حلفــت لهــم لا أقــرب المــاء صــافيا
فيـــا جبـــل الريـــان إن تعـــر مـــنهم فـــإني سأكســـوك الـــدموع الجواريـــا
ويــا قــرب مــا أنكــرتم العهــد بيننــا نســيتم ومــا اســتودعتم الــود ناســيا
أأنكـــرتم تســـليمنا ليلـــة النقـــا وموقفنـــا نرمـــي الجمـــار لياليـــا
عشــــية جــــاراني بعينيــــه شــــادن حـديث النـوى حتـى رمـى بـي المراميا
رمى مقتلي من بين سجفي غبيطهِ فيـــا راميًـــا لا مســـك الســـوء راميـــا
حرامًـا ولـم أهـبط مـن الأرض واديـا

فيـا ليتنـي لـم أعـل نشـزًا إلـيكم ولـم ألـق فـي اللاقـين حيًـا يمانيـا

ولـم أدر مـا جمـع ومـا جمرتـا منـى بـذي البـان لا يشـرين إلا غواليـا

ويا ويح نفسي كيف زايدت في مها

ويقول الأبيوردي يصف شوقه إلى حبيبته:

وأقسـم بالبيـت الرحيـب فنـاؤه وبـالحجر الملثـوم والحجـر والـركن

لأنـت إلى نفسـي أحـب مـن الغنـى وذكـرك أحلـى فـي فـؤادي مـن الأمـن

ويصور الحارث بن خالد شوقه إلى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى النجاة ، ويقول:

يـا أم عمـران مازلـت ومـا برحـت بنـا الصـبابة حتـى مسـنا الشـفقُ

القلـب تـاق إلـيكم كـي يلاقـيكم كمـا يتـوق إلـى منجاتـه الغـرقُ

وإنك لتلمس حرارة الشوق في قول العذري:

لو جز بالسيف رأسي في مودتكم لمـر يهـوى سـريعًا نحـوكم رأسـي

ولو بلي تحت أطباق الثرى جسدي لكنـت أبلـى ومـا قلبـي لكـم ناسـي

أو يقـبض الله روحـي صـار ذكـركم روحًا أعـيش بـه مـا عشـت فـي النـاس

لـولا نسـيم لـذكراكم يروحنـي لعـدت محترقًـا مـن حـر أنفاسـي

والشوق يحمل ابن الدمية على أن يحمد لحبيبته ذكرها له بالمساءة ويقول:

أرى النـاس يرجـون الربيـع وإنمـا ربيعـي الـذي أرجـو نـوال وصـالكِ

أرى النـاس يخشـون السـنين وإنمـا سـني التـي أخشـى صـروف احتمالـك

لـئن سـاءني أن نلتنـي بمسـاءةٍ لقـد سـرني أنـي خطـرت ببالـكِ

ليهنـك إمسـاكي بكفـي على الحشـا ورقـراق عينـي رهبـة مـن زِيالـك

وانظر لوعة الشوق في قول أحد المتيمين:

أقـول لأصـحابي وهـم يعـذلونني ودمـع جفـوني دائـم العبـرات

بـذكر منـى نفسـي فبلـوا إذادنـا خروجـي مـن الـدنيا جفـون لهـاتي

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح إلى السلو ، ولكن أين إلى السلو السبيل؟

فمن ذلك قول العديل بن الفرخ:

فبعض صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه   وراجـع غـض الطـرفِ فهـو خفـيض
كـأني لـم أرعِ الصـبا ويروقنـي   مـن الحـي أحـى المقلتـين غضـيضُ
دعـاني لـه يومًـا هـوى فأجابـه   فـؤاد إذا يلقـى المـراض مـريضُ
لمستأنسـاتٍ بالحـديث كأنـه   تهلـل غـر بـرقهن ومـيض

وقال الشريف:

فبـع هـي سـلوة ذهبـت بكـل غـرامِ   والحـب نهـب تطـاول الأيـام
ولقـد نضـحت مـن السـلو وبـرده   حـر الجـوى فبـردت أي ضـرامِ
مـن بعـد مـا أظمـا الغليـل جـوانحي   وأطـال مـن ملـل الـزلال أوامـي
لا يـدع العـذال نـزع صـبابتي   بيـدي حسـرت عـن الغـرام لثـامي
قد كانت الصبوات تعصب مقودي   فـالآن سـوف أطيـل مـن إجمـامي
هيهـات يخفضـني الزمـان وإنمـا   بينـي وبـين الـذل حـد حسـامي

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين. وفي مقابل هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

وعلمتنـي كيـف الهـوى وجهلتـه   وعلمكـم صـبري على ظلمكـم ظلمـي
واعلـم مـالي عنـدكم فيردنـي   هـواي إلـى جهلـي فـأرجع عـن علمـي

ويقول ابن الأحنف في اليأس من السلوان:

تجنـب يرتـاد السـلو فلـم يجـد   لـهُ عنـك فـي الأرض العريضـة مـذهبا
فعـاد إلـى أن راجـع الوصـل صـاغرًا   وعـاد إلـى مـا تشـتهين وأعتبـا

ويقول من كلمة ثانية:

كم قد تجرعت من غيظٍ ومن حرقٍ إذا تجـــدد حـــزن هـــون الماضـــي
وكـم سـخطت ومـا بـاليتيم سـخطي حتـى رجعـت بقلـبٍ سـاخطٍ راضـي

ويقول أيضًا إبراهيم بن العباس:

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى وصــرت علــى قلبــي رقيبًــا لقاتلــه
أدافعـــــه عـــــن ســـــلوةٍ وأرده حنينًـــا إلـــى أوصـــابه وبلابلـــه

ويقول ابن أذنية:

إن التـــي زعمـــت فـــؤادك ملهـــا خلقـت هـواك كمـا خُلقـت هـوى لهـا
بيضــاء باكرهــا النعــيم فصــاغها بلباقــــــةٍ فأدقهـــــا واجلهـــــا
حجبــت تحيتهـا فقلــت لصــاحبي مـــا كـــان أكثرهـــا لنـــا وأقلهـــا
وإذا وجــدت لهــا وســاوس ســلوةٍ شــفع الضــمير إلــى الفــؤاد فســلها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع:

ولمـــا نســـيتم ودنـــا وغرامنـــا ولـم تحفظـوا بعـد الفـراق لنـا عهـدا
جعلنا نغض الطرف عنكم وعندنا مـن الشـوق نـار لا نطيـق لهـا وفـدا

غدر الغواني

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب ، التي طالما يغدر فيها النساء. وإنا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعًا غادرات ، ويقول:

فلا تحسبن هندًا لها الغدر وحدها ... سجية نفس ، كل غانيةٍ هندُ

ويقول كثير في السخر من عهود النساء:

فبع ألا إنما ليلى عصا خيزرانةٍ ... إذا غمزوها بالأكف تلين

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن ... عليك شجًا في الحلق حين تبين

وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لآخر من خلانها ستلين

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويف:

يا ظبية البان ترعى في خمائلهِ ... ليهنك اليوم إن القلب مرعاك

الماء عندك مبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي

وعد لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذبت عيني عيناك

أنتِ النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أرمك في قلبي وأحلامك

عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك

هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... من علم العين إن القلب يهواك

وإني ليشجيني قوله من كلمة نانية:

تهفو إلى البان من قلبي نوازعه ... وما بي البان من داره البان

أسد سمعي إذا غنى الحمام به ... كيلا يبين سر الوجد إعلان

ورب دارٍ أوليهـــــا مجانيـــــة وبــي إلــى الــدار أطــراب وأشــجان

إذا تلفــت فــي أطلالهــا ابتــدرت للقلـــب والعـــين أمـــواه ونيـــران

كلـــم بقلبـــي أداويـــه ويقرفـــه طـول أدكـاري لمـن لـي منـه نسيان[1]

لا للـــوائم أقصـــار بلائمـــة عـــن العميـــد ولا للقلـــب ســـلوان

علـى مواعيـدهم خلـف إذا وعـدوا وفـــي ديـــونهم مطـــل وليـــان

هــم عرضــوا بوفــاء العهــد آونــة حتــى إذا عــذبوني بــالمنى خــانوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان ، إذ يشبههن بالحديقة ، تحمل الثمر حينًا وتعرى من الورق حينًا ، وإليك قوله من قصيدة طويلة:

فبـعيـولين مـا فيـه أغـرام وآونـة يــولين مــا فيــه للمعشــوق ســلوان

ولا يـــدمن علـــى عهـــدٍ لمعتقـــدٍ إنــي ؟ وهــن كمــا شــبهن بســتان

يميـــل طـــورًا بحمـــلٍ ثـــم يعدمـــه ويكتســـي ثـــم يلفـــى وهـــو عريـــان

تغـدو الفتـاة لهـا خـل فـإن غـدرت راحــت ينــافس فيهــا الخــل خــلان

مــا للحســـان مســـيئاتٍ بنـــا ولنـــا إلـى المسيئات طـول الـدهر تحنـان

وإن تـــبعن بعهـــد قلـــن معـــذرةً إنـــا نســـينا وفـــي النســـوان نســـيان

يكفـــي مطالبنـــا بالـــذكر ناهيـــة إن اســمنا الغالــب المشــهور نســوان

لا نلـزم الـذكر أنـا لـم نسـم بـه ولا منحنـــاه بـــل للـــذكر ذكـــران

فضــل الرجــال علينــا إن شــيمتهم جـــود وبـــأس وأحـــلام وأذهـــان

وإن فـــيهم وفـــاءً لا تقـــوم بـــه ولــن يكــون مــع النقصــان رجحــان

صـــدقن مـــا شـــئن لكنـــا تقنصـــنا مـــنهن عـــين تلاقينـــا وأدمـــان[2]

أنكـى وأزكـى حريقًـا فـي جوانحنـا خلــق مــن المــاء والألــوان نيــران

إذا ترقـــرقن والإشـــراق مضـــطرم فــيهن لــم يملــك الأســرار كتمــان

مــاء ونــار فقــد غــادرن كــل فتــى لابســـن وهـــو غزيـــر الـــدمع حـــران

---

[1] الكلم: الجرح. وقرف الجرح أصابته من جديد.

[2] عين جمع عيناء وهي جميلة العين ، والامادان الظباء.

تخصـل مـنهن عـين فهـي باكيـة ويســتحر فــؤاد وهـــو هيمـــان

وقال فتى في ابنة عمه ، وقد تجنت عليه وغدرت به:

أأحبابنــا لــو تعلمــون بحالنــا لمـا كانـت اللـذات تشـغلكم عنـا
تشــاغلتم عنــا بصــحبة غيرنــا وأبــديتم الهجــران مـا هكـذا كنـا
وآليــتم إن لا تخونــوا عهودنــا فقـد وحيـاة الحـب خنـتم ومـا خنـا
غـدرتم ولـم نغـدر وخنـتم ولـم نخن وحلـتم عـن العهـد القـديم ومـا حلنـا
وقلـتم ولـم توفـوا بصـدق حـديثكم ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو ، أخو الخنساء ، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها ؟ وتعاهدا على أن لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه ، ثم طُعن في أحد الأيام. فمرض سنة كاملة. فقصرت زوجه في السهر عليه ، والرفق به. ولا كذلك أمه الرءوم. قالوا: وسمع يومًا امرأة تقول لأمه: كيف حال صخر ؟ فقالت: نحن بخير ما دمنا نرى وجهه. وسمع أخرى تقول لامرأته كيف حال صخر ؟ فقالت: لا حي فيرجى. ولا ميت فينعى !! وحكي أنه جلس يومًا ليستريح وقد رفع له سجف البيت ، فرأى سلمى واقفه تحادث رجلاً من بني عمها وقد وضع يده على عجيزتها ، فسمعه يقول لها: أيباع هذا الكفل ؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لأمه: علي بسيفي ، لانظر هل صديء أم لا. فأتته به فجرده ، وهم بقتل سلمى. فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله. فبكى وقال:

أرى أم صــخر لا تمــل عيــادتي وملــت ســليمى مضــجعي ومكــاني
فــأي امــريء ســاوى بـأم حليلـة فــلا عــاش إلا فــي شــقًا وهــوانِ
أهــم بــأمر الحــزم لــو اسـتطيعه وقــد حيــل بــين العيــر والنــزوان
ومـا كنـت أخشـى أن أكـون جنـازة لــديك ومــن يغتــر بالحــدثان

ويذكرون أن غسان بن جهضم كان مفتونًا بابنة عمه ، ثم تزوجها ، فلما حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده ، ثم حنثت في يمينها ، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف:

غـدرت ولـم ترعـي لبعلـك حرمـة ولـم تعرفـي حقًـا ولـم تحفظـي عهـدا

ولـم تصبري حـولاً حفاظًا لصـاحب   حلفـتٍ لـه يومًـا ولـم تنجـزي وعـدا
غـدرت بـه لمـا ثـوى فـي ضـريحه   كـذلك ينسـى كـل مـن سـكن اللحـدا

وذكرني هذا الشعر بقول أبي العتاهية:

إذا مـا انقضـت عنـي مـن العـيش   فـــإن غنـــاء الباكيـــات قليـــل
مــــــــــــــــــــدتي   ويحــدث مــن بعــد الخليــل خليــل
سيعرض عن ذكري وتنسى مودتي

وهـذه طبيعـة العـالم يـا صـاح ، فـاقض مـن أوطـارك مـا أنـت قـاض ، واتـرك الـوهم للمجانين!!



ميزان الحب(١)

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله ،

وانظر كيف يقول:

لحا الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مد غير متين

ومن هو ذو لونين ليس بدائمٍ ... على ثقةٍ خوان كل أمين

فلو أرسلت يومًا بثينة تبتغي ... يميني ولو عزت علي يميني

لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سليني

سليني مالي يا بثين فإنما ... يبين عند المال كل ضنين

فمالك لما خبر الناس أنني ... أسأت بظهر الغيب لم تسليني

فأبلى عذرًا أو أجيء بشاهدٍ ... من الناس عدلٍ إنهم ظلموني

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ... وهموا بقتلي يا بثين لقوني

إذا ما رأوني طالعًا من ثنيةٍ ... يقولون من هذا ؟ وقد عرفوني !

---

(١) في كتاب «الأخلاق عند الغزالي» بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية ، فليرجع إليه القاريء إن شاء.

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الأيام السوالف ، والليالي الخوالي !!

ويذكرون إن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاك ، ليرى ما بقي من طرفه ، وشهوته لما كان عليه. فأحضره وقد كبر وضعف، فسقاه حتى سكر وقال لخادمه شفيع: أسقه ! فسقاه وحياه بوردة. وكانت على شفيع أثواب موردة. فمد الحسين يده إلى درع شفيع. فقال المتوكل: اتجس غلامي بحضرتي ؟ فكيف لو خلوت به ! ما أحوجك يا حسين إلى أدب ! وكان المتوكل غمز شفيعًا على العبث به ، فقال الحسين: يا سيدي ! أريد دواة وقرطاسًا. فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاء حيا بأحمرٍ ... من الورد يسقى في قراطق كالورد

له عبثات عند كل تحيةٍ ... بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجدِ

تمنيت أن أسقي بكفيه شربةً ... تذكرني ما قد نسيت من العهد

سقى الله عيشًا لم أبت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر ، وهم بتقديم الغلام إليه ، لو كان مما تسمح بمثله النفس!!

وانظر ما يقول ابن هانيء في ذكرى أيامه السوالف:

قمن في مأتمٍ على العشاقِ ... ولبسن السواد في الأحداق

وبكين الفراق بالغم الرطـ ... ـب المقنا وبالخدود الرقاقِ

ومنحن الفراق رقة شكوا ... هن حتى عشقت يوم الفراق

ومع الجيرة الذين غدوا دمـ ... ـع طليق ومهجة في وثاق

حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنــوا للــوداع حتــى تــرى الأجــ ـــياد فـــوق الأجيـــاد كـــالأطواق
يــوم راهنــت فــي البكــاء عيونًــا فتقـــدمت فـــي عنـــان الســـباق
أمنــع القلــب أن يــذوب ومــن يمنــ ـــع جمـــر الغضـــى عـــن الأحـــراق
رب يــوم لنــا رقيــق حواشــي اللهــ وحســـنًا جـــوال عقـــد النطـــاق
قــد لبســناه وهــو مــن نفحــات الــ ـــمسكِ درع الجيـــوب درع التراقـــي

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالي:

أيــام لهــوي هــل مواضــيك عــود شهيوهل لشبابٍ ضل بالأمس منشدُ
رزئــت شــبابي عــودة بعــد بــدأةٍ وهـــن الرزايـــا بادئـــات وعـــود
ســلبت ســواد العارضــين وقبلــه بياضـــهما المحمـــود إذ أنـــا أمـــرد
وبــدلت مــن ذاك البيــاض وحســنه بياضًـــا ذميمًـــا لا يـــزال يســـود
لشــتان مــا بــين البياضــين: معجــب أنيـــق ومنشـــوء إلـــى العـــين أنكـــد
وكنــت جــلاءً للعيــون مــن القــذى فقــد جعلــت تقــذي بشــيبي وترمــد
هي الأعين النجل التي كنت تشتكي مواقعهــا فــي القلــب والــرأس أســود
فمالـــك تأســـى الآن لمـــا رأيتهـــا وقـــد جعلـــت مرمـــى ســـواك تعمـــد
تشــكى إذا مــا اقصــدتك ســهامها وتأســـى إذا نكـــبن عنـــك وتكمـــد
كــذلك تلــك النبــل مــن وقعــت بــهِ ومــن صُــرفت عنــه مــن القــوم مقصــد
إذا عــدلت عنــا وجــدنا عــدولها كموقعهــا فــي القلــب بــل هــو أجهــد
وبيضــاء يخبــو درهــا مــن بياضــها ويـــذكو لـــه ياقوتهـــا والزبرجـــد
إذا ما التقى السكران: سكر شبابها وأكوابهـا ، كــادت مــن اللــين تعقــد
لهــوت بهــا لــيلاً قصــيرًا طويلــهُ ومـــالي إلا كفهـــا متوســـد
وكــم مثلهــا مــن ظبيــةٍ قــد تفيــأت ظلالـــي وأغصـــان الشـــبيبة ميـــد

ليالي سنتريس(١)

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين إلى سنتريس ، وهي مهوى قلبه ، ومنية روحه ، إذا كانت ملعب صباه ، وميدان لهوه ، في أيامه السوالف ، ولياليه الخوالي !

وانظر كيف يقول:

ليـــالي النيـــل واللـــذات ذاهبـــة وجــدي علــيكن أشــجاني بأفضــناني

لـو يرجـع الـدهر لـي مـنكن واحـدةً فــي ســنتريس ويــدني بعــض خلانــي

إذًا تبــين دهــري كيــف يرحمنــي مــن ظلــم همــي ومــن عــدوان أحزانــي

كـم ليلـةٍ لـي بـذاك النهـر سـالفةٍ قضـــيتها بـــين غـــاداتٍ وولـــدانِ

* * *

وذي دلالٍ هـــو الـــدنيا وزينتهـــا شهي يُردي الأسود بطرفٍ منه نعسان

كأنمـــا فعـــل عينيـــه بعاشـــقه فعــل المدامــة فــي أعطــاف نشــوان

شـربت مـن ريقـه راحًـا مشعشـعة بخــالص الــود لــم تُمــزج بســلوان

وكـم حبيـبٍ بـراح الريـق أسـكرني وكـــم جميـــلٍ بـــورد الخـــد حيـــاني

* * *

يـا موقـد النـار فـي قلبـي مؤججـةً وقاطنًـــا بـــين أنهـــار وريحـــانِ

عــرج علــي فمــا نفســي بصــابرةٍ علـــى نـــواك ومـــا طرفـــي بوســـنان

وإليك قوله من كلمة ثانية:

إيــهِ يــا فتنــة الوجــود ســلام مـــن مشـــوقٍ متـــيم القلـــب عـــانِ

لــو يشــاء الهــوى حوتــك ضــلوع حائمـــات علـــى صـــباك حـــواني

---

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل.

فـارحمي فانيًـا مـن الوجـد يشـقى   بغــــرامٍ مـــــؤججٍ غيـــــر فـــــان
رنقـــت ورده الليـــــالي فأمســـى   يرقــب الصــفو مــن خــلال الأمــاني

* * *

آه لـــو يســـمح الزمـــان ونلقـــى   مـــن طـــوى قـــربهم عنـــاد الزمـــان
وتـــرى ســـنتريس والـــدهر غـــافٍ   مـــا قضـــينا مـــن الليـــالي الحســـان
حـــين كنـــا مـــن الســـرور نشـــاوى   فـــي نجـــاةٍ مـــن النـــوى وأمـــان
نتســـاقى الحـــديث عـــذبًا شـــهيًا   وقطـــوف المنـــى رِطـــاب دوانـــي

* * *

يـــا خليلـــي والرفيـــق معـــين   أســـعفاني بـــبعض مـــا تملكـــانِ
أبتغـــي آســـيًا فقـــد عيـــل صـــبري   مـــن تـــوالي الوجيـــب والخفقـــان
أبتغـــي صـــاحبًا تولـــه قبلـــي   وشـــجاه مـــن الجـــوى مـــا شـــجاني
فلقـــد يُســـعف الجـــريح أخـــاهُ   ويواســـي الزميـــل فـــي الأحـــزان

* * *

وقد لحن هذه القصيدة البلبل الغريد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري وما أروع شعر الوجدان إذا غني بمثل صوته العذب الجميل !!

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد ! فقد حببه إلينا الشعراء حق لنجد (صردر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى ، حين يقول:

النجاءَ النجاءَ من أرض نجد	قبل أن يعلق الفؤاد بوجدِ
إن ذاك الثرى لينبت شوقًا	في حشا ميت اللبابات صلد
كم خليٍ غدا إليه وأمسى	وهو يهذي بعلوةٍ أو بهندِ
وظباءٍ فيه تُلاقي الموالي	والمعادي من الجمال بجند
بشتيت من المباسم يغري	وسقامٍ من المحاجر يعدي[1]
وبنانٍ لولا اللطافة ظنت	لجناياتها براثن أسدِ
وحديث إذا سمعناه لم ند	ر بخمرٍ نضحننا أم بشهد
أنفت من براقع الخز والقز	خدود قد برقعوها بوردِ

ويقول الطغرائي:

يا حبذا نجد وأعراق الثرى	لدن وأنفاس النسيم رقاقُ
فهواؤه خضر النسيم وتربه	حالي الأديم وماؤه رقراق
وبساكنيه إن استقربنا النوى	تشفي النفوس وتمسك الأرماق

ويقول ابن الخياط:

خذا من صبا نجد أمانًا لقلبهِ	فقد كان رياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فإنه	إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلي لو احببتما لعلمتما	مكان الهوى من مغرم القلب صبه

---

[1] المراد بالمبسم الشتيت الثغر المفلج.

تـذكروا لـذكرى تشـوق وذو الهـوى يتـوق ومـن يعلـق بـه الحـب يصـبه
غـرام علـى يـأس الهـوى ورجائـه وشـوق علـى بعـد المـزار وقربـه

وقال ابن التعاويذي:

يـا رفيقـي هـل لـذاهب أيـا مٍ تقضـت حميـدة مـن مـرد
أنجـداني بوقفـة فـي مغـاني الـ ـحي إن جزتمـا بـأعلام نجـدِ
وابكياهـا بمقلتـي وأسـألاها مـن سـقاها مـاء المـدامع بعـدي
جنبًـا عنـدها مصـارع مـن مـا ت بـداء الغـرام فالشـوق يعـدي
فبأكنافهـا جـاذر رمـلٍ بـين أثوابهـا بـراثن أسـد



جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه ، كقول خالد الكاتب:

أعان طرفي على جسمي وأحشائي بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي
وكنت غرا بما يجني على بدني لا علم لي إن بعضي بعض أدوائي

ومثله قول الأرجاني:

تمتعا يا مقلتي بنظرةٍ وأوردتما قلبي أشر المواردِ
أعيني كفا عن فؤادي فإنه من البغي سعى اثنين بي قتل واحد

ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاه ، ويقول:

قلب كيف علقت في أشراكهم ولقد عهدتك تُفلت الاشراكا
أكثبت حتى أقصدتك سهامهم قد كنت عن أمثالها إنهاكا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى هذا الذي جرت علي من جراكا
لا تشكون إلي وجدًا بعدها هذا الذي جرت علي يداكا
لأعاقبنك بالغليل فإنني لولاك لم أذق الهوى لولاكا

ويأسى صردر على إن كانت أجفانه حجاب قلبه ، ويقول:

لواحظنا تجني ولا علم عندها وأنفسنا مأخوذة بالجرائر
ولم أر أغبى من نفوس عفائفٍ تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه أذن على أحشائه للفواقر

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه:

يهيم بجيران الجزيرة قلبهُ وفيها غزال فاتر الطرف ساحره
يؤازره قلبي علي وليس لي يدان بمن قلبي علي يؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع:

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة   لم تغن فيها حكمة الحكماءِ

إن الذي خلق الملاحة لم يشأ   إلاّ شقائي في الهوى وبلائي

ولله الأمر من قبْلُ ومن بعد !

الفهرس